أجاثا كريستي

جريمة في القطار الأزرق

دار النجمة للنشر والتوزيع

جريمة
في القطار الأزرق

بسم الله الرحمن الرحيم

أجاثا كريستي

جريمة
في القطار الأزرق

دار النجمة للنشر والتوزيع

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر:
دار النجمة للنشر والتوزيع

يُمنَع تصوير أو إعادة إنتاج هذا الكتاب
ورقياً أو إلكترونياً إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

للاستفسار والطلبات التجارية
AgathaBooks@sardira.com

الفصل الأول

كان الوقت يقترب من منتصف الليل حين عبر رجل ميدان الكونكورد. ورغم معطف الفراء الذي كان يلف جسده النحيل فقد كانت تبدو عليه سمات الضعف وضعة الشأن؛ كان رجلاً قصيراً وجهه كوجه الفأر، قد تظنه تافه القدر خامل الذكر، ولكن هذا لم يكن صحيحاً؛ فرغم مظهره الذي يلوح عليه الإهمال والرثاثة، إلاّ أنه كان يلعب دوراً هاماً في مصير العالم، ملكاً لإمبراطورية الظلام، يحوطه الشك من كل جانب.

وحتى هذا الوقت المتأخر كانت إحدى السفارات تنتظر عودته، ولكن كان عليه أن يقوم بمهمةٍ ما أولاً؛ مهمة لم تكن السفارة على علم بها. وحين انعكس ضوء القمر على وجهه بدا أبيض حاد القسمات وظهر أنفه معقوفاً قليلاً؛ فقد كان والده مهاجراً من بولندا، وكانت المهمة التي خرج من أجلها من ذلك النوع الذي كان يحبه والده.

ووصل إلى نهر السين، فعبَرَه ودخل أحد أحياء باريس المتواضعة. وهنا توقف أمام أحد المنازل العتيقة العالية وصعد إلى شقة الدور الرابع، ولم يكد يطرق الباب حتى فتحته امرأة كان من الواضح أنها تنتظر عودته. ولم تتفوه بكلمة تحية واحدة، بل أخذت تساعده في خلع معطفه ثم قادته إلى غرفة جلوس رثة الأثاث حيث

كانت أباجورة وردية اللون تحجب الضوء، فانعكس خابياً على الفتاة وإن لم يستطع أن يخفيه -وقد علته طبقة كثيفة من المساحيق- ولا أن يخفي ملامحها المنغولية. كان من الواضح أية مهنة تمتهن الفتاة، وكذا جنسيتها.

- أكل شيء على ما يرام يا صغيرتي؟

- نعم يا بوريس إيفانوفتش.

وأومأ برأسه متمتماً: لا أظن أن أحداً يتبعني.

ولكن نبرته كانت تنم عن القلق. واتجه إلى النافذة وأزاح الستائر قليلاً، ثم نظر إلى الشارع. ولم يلبث أن تراجع مبتعداً في عنف: هناك رجلان على الرصيف المقابل. يبدو...

وصمت وأخذ يقضم أظافره، وهي عادة كانت تلازمه عندما يستبد به القلق. وهزت الفتاة الروسية رأسها ببطء وكأنها تطمئنه: كانا هنا قبل أن تحضر.

- حتى وإن. يبدو لي وكأنهما يراقبان هذا المنزل.

فردّت بلا اكتراث: ربما.

- ولكن لماذا؟

- وماذا في ذلك؟ حتى لو عرفا، فلن تكون أنت الشخص الذي سيتعقبانه من هنا.

وتسللت إلى شفتيه ابتسامة صغيرة فيها قسوة، وقال: هذا صحيح.

وفكر برهة ثم قال: هذا الأمريكي اللعين... ليتولَّ أمر نفسه.

- نعم.

ومرة أخرى اتجه إلى النافذة. ثم ضحك ضحكة قصيرة وقال: يبدو أنهما من المعروفين للشرطة. حسناً، أرجو لهما صيداً ثميناً.

وهزّت أولغا دميروف رأسها وقالت: لو كان الأميركي كما يقولون فإن الأمر سيحتاج إلى أكثر من شخصين حتى يتغلبا عليه.

وتوقفت عن الكلام برهة، ثم استطردت قائلة: ترى...

- نعم؟

- لا شيء. فقط هناك رجل ذو شعر أبيض قد مرّ من هذا الشارع مرتين هذا المساء.

- وماذا في ذلك؟

- سأقول لك. عندما مر بجانب هذين الرجلين أسقط قفازه، فالتقطه أحدهما وأعاده إليه. إنها حيلة قديمة.

- أتعنين أن هناك علاقة بينهما وبين الرجل ذي الشعر الأبيض؟

- شيء من هذا القبيل.

بدا الانزعاج والقلق على وجه الروسي وقال: أواثقة أنت أن اللفافة في أمان وأن يداً لم تعبث بها؟ لقد ثارت أقاويل كثيرة حول هذا الموضوع، أكثر من اللازم.

ومرة أخرى قضم أظافره. وردت هي بقولها: لتحكم بنفسك.

ثم انحنت إلى المدفأة وأزاحت الفحم بعناية، ومدت يدها تحته فالتقطت لفافة مستطيلة مغطاة بأوراق الصحف وسلمتها إليه. فأومأ برأسه موافقاً وقال: فكرة رائعة!

- لقد فُتِّشت الشقة مرتين وتم شق فراش السرير.

– كما قلت لكِ: لقد كثر الكلام، وهذه المساومة على الثمن... لقد كانت غلطة.

كان قد أزاح أوراق الجرائد عن اللفافة. وبالداخل بدت لفافة صغيرة مغطاة بورق بني اللون، فأزاحه بدوره وتأكد من محتوياتها، ثم أعاد لفها بسرعة مرة أخرى. وبينما هو يفعل ذلك دق الجرس عالياً.

ونظرت أولغا إلى الساعة قائلة: إن الأمريكي دقيق في مواعيده.

وتركت الغرفة. وبعد لحظة عادت ومعها شخص غريب ضخم عريض المنكبين، من الواضح أنه أمريكي. وتنقل ببصره بينهما ثم تساءل بأدب: السيد كراسنين؟

فرد بوريس: نعم. معذرة للقائنا في هذا المكان، ولكن السرية في هذه المسائل أمر مطلوب؛ فأنا لا أستطيع أن أزج بنفسي في هذا الأمر.

وسأله الأمريكي بأدب: حقاً؟

– لقد وعدتني، أليس كذلك؟ وعدتني بألا تذيع أية تفصيلات عن هذه الصفقة. هذا أحد شروط البيع.

أومأ الأمريكي برأسه وقال بلا اكتراث: لقد اتفقنا على هذا. والآن، هلا قدمت لي البضاعة؟

– هل معك الثمن، نقداً؟

– نعم.

ولكن لم يبدُ عليه أي استعداد للدفع. وبعد فترة تردد أشار كراسنين إلى اللفافة الصغيرة الموضوعة على المائدة، فأخذها

الأمريكي وفضّها، ثم أخذ يفحصها فحصاً دقيقاً في ضوء مصباح صغير. وعندما اطمأن إلى نتيجة الفحص أخرج من جيبه محفظة جلدية ضخمة وأخرج منها رزمة من الأوراق المالية سلمها إلى الروسي الذي راح يعدّها بعناية شديدة.

- هل كل شيء على ما يرام؟

تنهد الأمريكي ووضع اللفافة في جيبه بلا اكتراث، ثم انحنى لأولغا وقال: سعدت مساء يا آنستي، سعدت مساء يا سيد كراسنين.

وخرج بعد أن أغلق الباب خلفه. والتقت عيون الرجل والمرأة، وبلل الرجل شفتيه الجافتين ثم تمتم قائلاً: ترى هل سيكتب له أن يعود إلى فندقه سالماً؟

واستدار الاثنان معاً ناحية النافذة فرأيا الرجل الأمريكي يدلف إلى الشارع، ثم اتجه إلى اليسار وحث خطاه دون أن يلتفت إلى الخلف مرة واحدة. وتسلل شخصان من مدخل أحد المنازل فاقتفيا أثره في هدوء، واختفى الجميع في الظلام.

قالت أولغا دميروف: سيعود سالماً، فلا داعي لأن تخشى شيئاً أو تتمنى... أياً كان ما ترجوه.

وسألها كراسنين بفضول: ولماذا تظنين أنه سيعود سالماً؟

- إن رجلاً مثله قد جمع كل هذه الثروة لا يمكن أن يكون مغفلاً. أما وقد جرّنا الحديثُ عن المال...

ونظرت إلى كراسنين نظرة ذات مغزى، فقال: نعم؟

- نصيبي يا بوريس إيفانوفيتش.

وبشيء من التردد ناولها كراسنين ورقتين ماليتين، فأومأت برأسها شاكرة دون أن تبدي أية عاطفة ووضعتهما في جيبها، وقالت في ارتياح: هذا بديع.

نظر إليها بفضول قائلاً: ألستِ نادمة على شيء يا أولغا فاسيلوفنا؟

- نادمة؟ لماذا؟

- على ما كان في حوزتك؛ فنساء كثيرات يفقدن عقولهن بسبب هذه الأشياء.

فأومأت برأسها وقالت وهي ساهمة: نعم، هذا صحيح. معظم النساء يفعلن، ولكني لست مثلهن. ترى...

- ماذا؟

- سيكون الرجل الأمريكي في أمان وهي معه، ولكن بعد ذلك؟

- فيمَ تفكرين؟

قالت أولغا وهي مستغرقة في التفكير: إنه سيقدمها إلى سيدة بالطبع. تُرى ما الذي سيصيبها عندئذٍ؟

وبصبر نافد اتجهت ناحية النافذة، وفجأةً ندّتْ عنه صرخة ونادت رفيقها. ونظرا معاً، كان شخص نحيل رشيق يتقدم بخطى وئيدة، كان يرتدي قبعة سهرة، وعندما مر تحت أحد المصابيح انعكس الضوء على شعره الأبيض.

* * *

الفصل الثاني

مضى الرجل ذو الشعر الأبيض في طريقه دون عجلة غير عابئ بما حوله، واتجه ناحية اليمين، ثم استدار إلى اليسار. وبين الفينة والفينة كان يدندن لنفسه. وفجأةً توقف وأصاخ السمع؛ لقد تناهى إلى سمعه صوت ما، ربما كان صوت انفجار إطار سيارة وربما كان طلقة رصاص. وتلاعبت ابتسامة غريبة على شفتيه، ثم مضى في طريقه مرة أخرى.

وعندما وصل إلى المنحنى رأى مشهداً مثيراً. كان أحد رجال الشرطة يدوّن بعض الملاحظات في مفكرة وقد تجمع حوله بعض المارة. وتقدم الرجل من أحدهم وسأله بأدب: هل حدث شيء؟

- نعم يا سيدي. لقد هاجم اثنان من الخارجين على القانون رجلاً أمريكياً.

- وهل أصاباه بسوء؟

وضحك الرجل قائلاً: كلا بالتأكيد؛ إذ كان الأمريكي يحمل مسدساً معه، وقبل أن يهجما عليه أطلق الرصاص قريباً منهما فوليا الأدبار. وكالعادة وصل رجال الشرطة متأخرين.

- آه!

لم يبد على السائل أي تأثر. واستأنف سيره بهدوء وبلا

اكتراث، وسرعان ما عبر نهر السين إلى أحياء باريس الأنيقة. وبعد نحو عشرين دقيقة توقف أمام محل معين في حي أرستقراطي هادئ، وكان متجراً عتيقاً بعيداً كل البعد عن مظاهر الدعاية، وكان صاحبه بابوبولس تاجر العاديات من الشهرة بمكان بحيث لم يعد في حاجة للإعلان عن نفسه، وكانت أغلب صفقاته لا تتم داخل محله إذ كان يمتلك شقة فاخرة تطل على الشانزليزيه. وقد كان المفروض أن يكون فيها في مثل هذا الوقت لا في محل عمله، ولكن الرجل ذا الشعر الأبيض كان يبدو واثقاً من وجوده هنا. وبعد أن ألقى نظرة سريعة على الشارع ضغط على الجرس الذي كان الظلام يلفه.

ولم يخب ظنه. وفتح الباب ووقف رجل في المدخل، كان أسمر الوجه ويضع أقراطاً ذهبية في أذنيه. وقال الرجل الغريب: مساء الخير، هل سيدك بالداخل؟

– نعم؛ إنه هنا، ولكنه لا يستطيع مقابلة أي عابر سبيل في مثل هذا الوقت.

– أظن أنه سيقابلني أنا. أخبره أن صديقه الماركيز هنا.

وفتح الرجل الباب قليلاً فدخل الزائر.

كان الرجل الذي قدم نفسه باسم الماركيز يخفي وجهه بيده وهو يتحدث. وعندما عاد الخادم ليخبر الزائر بأن السيد بابوبولس يسعده أن يلتقي به كان مظهره قد اعتراه تغير كبير. ولا شك أن الخادم لم يكن قوي الملاحظة أبداً أو أنه كان مدرباً تماماً، إذ لم يبدُ عليه أي أثر للدهشة عندما رأى قناعاً صغيراً أسود يخفي ملامح الزائر الغريب. وقاده إلى باب في نهاية الردهة ثم فتحه وتمتم بأدب: مسيو الماركيز.

نهض رجل مهيب يحيي ضيفه، وكان شامخ الجبهة ذا لحية

بيضاء. كان يبدو كأحد رجال الدين الأتقياء. وقال مسيو بابوبولس: أهلاً يا صديقي العزيز.

فرد الزائر: لا، لا، إنه وقت ممتع. ربما كنت قد أمضيت أمسية سعيدة؟

- لا، لست أنا.

- لست أنت، نعم، نعم، بالطبع. ألديك أخبار؟

ونظر إلى الآخر نظرة حادة لم تكن من الطيبة في شيء.

- لا أخبار. لقد فشلت المحاولة؛ لم أكن أنتظر غير ذلك.

- هذا صحيح. إن كل شيء يتسم بالعنف!

ولوح بيده معبّراً عن بغضه للعنف في كل صوره. وفعلاً لم يكن هناك أي مظهر من مظاهر العنف يحيط بمسيو بابوبولس ولا بتجارته، وكان معروفاً لدى أغلب ملوك أوروبا؛ ينادونه في ألفة باسم ديمتروس، وقد ذاع صيته كرجل حصيف، هذا بالإضافة إلى أن مظهره قد حقق له الكثير من الصفقات المربية.

وهزّ بابوبولس رأسه وقال: الهجوم المباشر قد ينجح، ولكن ذلك نادر الحدوث.

قال الرجل الآخر: إنه يوفر الوقت، ثم إن الفشل لا يكلف شيئاً... أو يكاد لا يكلف شيئاً، أما الخطة الأخرى فهي لن تخيب.

ونظر إليه السيد بابوبولس بحماس وقال: آه!

فأومأ الآخر برأسه. وقال تاجر العاديات: إن ثقتي لكبيرة في شهرتك المدوية.

فابتسم المركيز برقة ورد قائلاً: أعتقد أن ثقتك في محلها.

- إن فرص العمل أمامك فريدة.

- أنا الذي أصنعها.

ثم نهض وأخذ رداءه الذي كان قد ألقاه بإهمال على ظهر المقعد وقال: سأبلغك بما يحدث يا مسيو بابولوس بالطرق المعتادة، ولكن يجب أن تكون استعداداتك كلها محكمة.

وتضايق السيد بابوبولس وقال: إن الاستعدادات التي أقوم بها تكون دائماً محكمة.

وابتسم الآخر. ودون أن يتفوه بكلمة وداع ترك الغرفة بعد أن أغلق الباب خلفه.

وبقي السيد بابوبولس مستغرقاً في التفكير لحظة وهو يمر بيده على لحيته البيضاء، ثم سار عبر الغرفة إلى باب آخر يفتح إلى الداخل. وبينما هو يدير المقبض تعثرت سيدة كان من الواضح أنها تسترق السمع مستندة إلى الباب. ولم يُبدِ السيد بابوبولس أية دهشة أو اهتمام؛ بل كان من الواضح أن هذا شيء عادي بالنسبة له.

- حسناً يا زيا؟

- لم أسمعه وهو يغادر الغرفة.

كانت سيدة جميلة ذات عينين داكنتين لامعتين وتشبه بابوبولس إلى حد كبير، وكان من الواضح أنها ابنته. واستطردت تقول بغيظ: من المؤسف أن المرء لا يستطيع أن يرى ويسمع في نفس الوقت من خلال ثقب الباب!

ورد بابوبولس ببساطة شديدة: كثيراً ما ضايقني هذا.

قالت زيا ببطء: إذن فهذا هو الماركيز؟ ترى هل يرتدي قناعاً بصفة مستمرة يا أبي؟

- دائماً.

وتلت ذلك فترة صمت، ثم تساءلت زيا: أظن أن الأمر يتعلق بالياقوت؟

أومأ والدها برأسه. ثم تساءل وقد التمعت عيناه: ما رأيك يا صغيرتي؟

- في الماركيز؟

- نعم.

ردّت زيا ببطء: أظن أنه من النادر أن تجد شخصاً إنجليزياً يتحدث بالفرنسية بهذه البراعة.

- آه! إذن فهذا هو رأيك؟

وكالعادة، لم يعلق بأكثر من هذا، وإنما رمق زيا بنظرة تنم عن مشاركة لها في الرأي. قالت زيا: أظن أيضاً أن رأسه غريب الشكل.

- ضخم قليلاً، ولكن هذا بسبب الشعر المستعار الذي يضعه.

وتبادلا النظرات وهما يبتسمان.

* * *

الفصل الثالث

كانت السيدة روث كترنج، زوجة ديرك كترنج، تقطن في شارع كيرزون. وما إن فتح الخادم الباب لروفوس فان أولدين حتى عرفه لأول وهلة وابتسم له محيياً، ثم قاده إلى الطابق الأول حيث غرفة الصالون. ونهضت سيدة كانت تجلس بجوار النافذة وقالت: يا إلهي! أليس هذا شيئاً رائعاً يا أبي؟ لقد كنت على اتصال دائم بالميجور نايتون طول اليوم لأحاول الاتصال بك ولكنه لم يكن واثقاً من موعد عودتك.

كانت روث في الثامنة والعشرين من عمرها. ورغم أنها لم تكن جميلة إلاّ أنها كانت جذابة، فقد كان شعرها أحمر بنياً يتلاءم مع لون عينيها الداكنتين وأهدابها الشديدة السواد. كانت طويلة نحيلة رشيقة، يخيل لمن يراها لأول وهلة أنها وجه رسمه الفنان رافاييل، ولكن إذا دققت النظر إليها ستلمح نفس خط الفك والذقن الذي يميز وجه فان أولدين وينم عن نفس الصلابة والتصميم. وإذا كان هذا يناسب الرجل إلاّ أنه لم يكن مناسباً لسيدة! ومنذ طفولتها اعتادت روث فان أولدين أن تقرر بنفسها ما تراه، وكل من خطر له أن يعترض طريقها سرعان ما كان يكتشف أن ابنة فوس فان أولدين لم تكن لتلين أبداً.

قال فان أولدين: لقد أخبرني نايتون أنك اتصلت به تليفونياً،

وقد عدت من باريس منذ نصف ساعة فقط. أهذا بسبب ديرك؟

احمرّ وجه روث كترنج غضباً وصاحت: إنه لا يُحتمل وقد فاق كل حد؛ فهو لا يستمع لأية كلمة أقولها.

وبدت الحيرة والغضب في صوتها، فرد المليونير بقوله: سوف ينصت لي أنا.

فاستمرت روث تقول: أنا لم أكد أراه طيلة الشهر الماضي، وهو يذهب إلى كل مكان مع تلك المرأة.

- أية امرأة؟

- ميراي، الراقصة في البارتينون كما تعلم.

أومأ أولدين برأسه فاستطردت قائلة: لقد ذهبت إلى ليكونبري في الأسبوع الماضي وتحدثت مع اللورد ليكونبري. لقد كان رقيقاً معي وأبدى غاية العطف، وقال إنه سيتحدث مع ديرك في الأمر.

- آه!

- ماذا تعني بآه يا أبي؟

- الذي تعتقدينني أعنيه هو ما أعنيه. إن ليكونبري العجوز المسكين قد انتهى. بالطبع عطف عليك، وبالطبع حاول أن يسري عنك، أما وقد تزوج ابنه ووريثه بابنة واحد من أغنى أغنياء الولايات المتحدة فمن الطبيعي أنه لا يريد أن يفسد الأمر. إنه على حافة القبر والكل يعلم هذا، وأي شيء يقوله لن يؤثر في ديرك كثيراً.

وبعد لحظة صمت تساءلت روث: ألا تستطيع أن تفعل شيئاً يا أبي؟

فردّ المليونير قائلاً: ربما.

وصمت برهة وهو يفكر ثم استطرد قائلاً: هناك بضعة أشياء أستطيع أن أفعلها، ولكن حلاً واحداً فقط هو الذي سيأتي بالنتيجة المرجوة. والآن يا روث، هل أنت شجاعة؟

وحملقت فيه، فأومأ إليها وقال: إنني أعني ما أقول. هل لديك من الشجاعة ما يجعلك تواجهين العالم معترفة بخطئك؟ هناك طريقة واحدة فقط تخرجك من هذه الورطة. احسمي الأمر وابدئي بداية جديدة.

- أتعني...؟

- الطلاق.

- الطلاق؟!

ابتسم فان أولدين بجفاء: أنت تقولين هذه الكلمة وكأنها لم تطرق سمعك من قبل، رغم أن هذا هو ما يفعله أصدقاؤك كل يوم.

- أعلم ذلك، ولكن...

وصمتت وهي تعض شفتها، فأومأ أبوها برأسه كمن يدرك ما تحسه وقال: أنا أعلم يا روث. أنت مثلي، لا تتقبلين الهزيمة، ولكني تعلمت أن هناك أوقاتاً يكون فيها هذا هو الحل الوحيد ويجب أن تعلمي أنت أيضاً هذا. وربما يكون في استطاعتي أن أجد الوسيلة لإعادة ديرك إليك، ولكن النتيجة في النهاية ستكون واحدة؛ فلا فائدة تُرجى منه. روث، إنه فاسد. إنني ألوم نفسي لأنني سمحت بهذه الزيجة، ولكنك كنت مصممة وكان هو بادي اللهفة ليبدأ صفحة جديدة. لقد أغضبتك ذات مرة يا حبيبتي.

لم ينظر إليها وهو يقول الكلمات الأخيرة، ولو أنه فعل لرأى

وجهها يتضرج. وقالت بلهجة جافة: نعم، حدث هذا.

- لقد كان قلبي رقيقاً فلم يطاوعني أن أغضبك مرة أخرى. ورغم ذلك، فكم أتمنى لو أني فعلت، فقد عشت السنوات الأخيرة حياة بائسة يا روث.

ووافقته روث قائلة: إنها لم تكن ممتعة تماماً.

- وهذا ما يجعلني أقول إن هذا الموضوع يجب أن ينتهي.

وضرب بيده على المائدة وهو يقول: ربما كنت لا تزالين معجبة به، ولكن دعك من هذا كله وواجهي الحقائق؛ لقد تزوجك ديرك كترنج من أجل مالك، هذا هو كل ما في الأمر. تخلصي منه يا روث.

نظرت روث كترنج إلى الأرض برهة، ثم قالت ولم تزل خافضة رأسها: لنفرض أنه لم يوافق.

فنظر إليها فان أولدين في دهشة: لن تكون له كلمة في الموضوع.

احمرّ وجهها وعضت على شفتها وقالت: نعم، بالطبع. إنما كنت أقصد...

وصمتت، ونظر إليها والدها بحدة وسألها: ماذا تعنين؟

- أعني...

وتوقفت وهي تختار كلماتها بعناية: ربما لا يسلّم بسهولة.

- أتعنين أنه سيجادل في الأمر؟ ليكن، ولكن الواقع أنك مخطئة؛ فهو لن يفعل لأن أي محام سيستشيره سيخبره بأن قضيته خاسرة.

- ألا تظن...؟

وترددت: أعني... ربما حاول أن يحرج مركزي لمجرد إثارة الضغينة ضدي.

نظر إليها والدها في دهشة وقال: أتعنين أنه ربما يعارض في القضية؟

ثم هزّ رأسه نفياً وقال: هذا احتمال بعيد؛ فكما ترين، يجب أن يكون لديه ما يستند إليه.

ولم تحر روث جواباً، فرمقها فان أولدين بنظرة حادة وقال: روث، هاتِ ما عندك. هناك شيء ما تخفينه عني، ما هو؟

- لا شيء، لا شيء أبداً.

ولكن صوتها بدا غير مقنع، فقال والدها: لعلك تخشين التشهير، أليس كذلك؟ دعي الأمر لي. سأجعله يمر بسهولة ولن تثار حوله أية ضجة إطلاقاً.

- حسناً يا أبي، ما دمت تعتقد أن هذه هي أفضل وسيلة.

- أما زلت تحبينه؟

- كلا.

وخرجت الكلمة من بين شفتيها لا تدع مجالاً للشك، فارتاح فان أولدين وربت على كتفيها قائلاً: سيمر الأمر بسلام يا صغيرتي، فلا تشغلي بالك. والآن، لننس كل شيء عن هذا الموضوع. لقد أحضرت لك هدية من باريس.

- لي أنا؟ أهي شيء جميل حقاً؟

ابتسم وهو يقول: أرجو أن يكون كذلك.

وأخرج اللفافة من جيب معطفه وقدمها إليها، ففضت غلافها بلهفة وفتحت العلبة. وخرجت من بين شفتيها آهة طويلة؛ فقد كانت روث تحب المجوهرات طول عمرها.

- أبي، لكم هي جميلة!

- إنها فريدة في نوعها، أليس كذلك؟ هل أعجبتك؟

- أعجبتني؟ أبي، إنها في غاية الروعة. كيف حصلت عليها؟

ابتسم فان أولدين وقال: آه، هذا سري. لقد اضطررت إلى شرائها خلسة بالطبع، فهي معروفة. انظري إلى هذه الياقوتة في الوسط. هل سمعت عنها؟ إنها «قلب النار» ذات التاريخ العريق.

ردّدت روث: قلب النار!

كانت قد أخرجت المجوهرات من العلبة ووضعتها على صدرها، وأخذ المليونير يرقبها وهو يفكر في النساء اللاتي تحلين بها وفيما تسببت فيه من أسى ويأس وغيرة. فإن «قلب النار» -مثلها مثل كل الجواهر المشهورة- قد خلّفت وراءها سلسلة من المآسي العنيفة. ولكنها بدت وكأنها قد فقدت كل عوامل الشر الكامنة فيها وهي في يد روث؛ فهذه المرأة الأمريكية بهدوئها واتزانها لم تكن توحي بمعنى المأساة أو تحطيم القلوب. وأعادت روث المجوهرات إلى علبتها، ثم أحاطت عنق والدها بذراعيها: شكراً، شكراً، شكراً يا أبي. أنها رائعة، إنك تمنحني أروع الهدايا دائماً.

وربت فان أولدين على كتفها وقال: حسناً، إنك كل ما لديّ كما تعلمين يا روث.

- ستبقى معنا للغداء يا أبي، أليس كذلك؟

- لا أظن. هل كنت تزمعين الخروج؟

– نعم، ولكن من السهل أن ألغي هذا الموعد فليست له أهمية.

– كلا. اذهبي أنت لشأنك، فلديّ الكثير مما يشغلني، وسأراك غداً يا عزيزتي. سأتصل بك تليفونياً. ماذا لو التقينا عند جالبريث؟

كان إخوان جالبريث هم محامو فان أولدين في لندن. وترددت وهي تقول: حسناً يا أبي، أظن أن هذا لن يعطلني عن الذهاب إلى الريفيرا.

– متى تذهبين؟

– في الرابع عشر.

– لا بأس، فإن هذه المسائل تستغرق وقتاً طويلاً. وبهذه المناسبة، لو كنت مكانك لما أخذت هذه المجوهرات معي إلى الخارج يا روث؛ اتركيها في البنك.

أومأت روث برأسها فقال المليونير ضاحكاً: لا نريد أن يقتلوك بسبب «قلب النار».

فردت ابنته باسمة: ورغم ذلك، فقد كنت أنت تحملها في جيبك هكذا.

– نعم.

واسترعى انتباهها شيء من التردد لديه فسألته: ما بك يا أبي؟

فابتسم وقال: لا شيء، إنما كنت أفكر في مغامرة صغيرة حدثت لي في باريس.

– مغامرة؟

– نعم، في الليلة التي اشتريت فيها هذه المجوهرات.

وأشار بيده إلى علبة المجوهرات فقالت: هلا أخبرتني.

- ليس هناك ما يستحق الذكر. لقد تتبعني بعض قطاع الطرق في باريس ولكني أطلقت عليهم النار ففرّوا؛ هذا هو كل ما في الأمر.

نظرت إليه بشيء من الفخر وقالت: أنت لا يستهان بك.

- أظن ذلك.

وقبّلها وافترقا. وعند وصوله إلى فندق سافوي أصدر أمراً مقتضباً إلى نايتون: استدع رجلاً يدعى جوني. ستجد عنوانه في مفكرتي الخاصة. ليكن هنا غداً صباحاً في التاسعة والنصف.

- نعم يا سيدي.

- وأريد أيضاً أن أرى السيد كترنج؛ أحضره هنا. حاول الاتصال بناديه... أحضره بأية وسيلة ورتب لي لقاء معه هنا غداً. وليكن الموعد متأخراً قليلاً، في نحو الثانية عشرة، فهو نؤوم الضحى.

أومأ السكرتير برأسه علامة فهمه لهذه التعليمات كلها. ودخل فان أولدين ليأخذ حماماً، وبينما هو مستلق في الماء الساخن كان عقله يستعيد حديثه مع ابنته. وبصفة عامة كان مستريحاً لما حدث؛ فقد استقر رأيه منذ وقت طويل على أن الطلاق هو الحل الوحيد لمشكلة روث، وقد وافقت روث على الحل الذي اقترحه بسرعة أكثر مما كان متوقعاً. ورغم كل شيء، ورغم قبولها، إلاّ أنه كان يحس إحساساً غامضاً بالقلق. شيء ما في سلوكها لم يكن طبيعياً. وتمتم لنفسه: ربما كان هذا محض خيال. ورغم ذلك فأكاد أجزم بأن هناك شيئاً ما لم تخبرني به.

* * *

الفصل الرابع

لم يكد دوفوس فان أولدين يفرغ من إفطاره المكون من القهوة والتوست الجاف (وهو كل ما كان يسمح لنفسه به) حتى دخل نايتون الغرفة قائلاً: السيد جوبي بالطابق الأسفل يا سيدي في انتظار مقابلتك.

ونظر المليونير إلى الساعة. كانت التاسعة والنصف تماماً، وقال باقتضاب: لا بأس، يستطيع أن يحضر إلى هنا.

وبعد دقيقة أو اثنتين دخل السيد جوبي. كان رجلاً قصيراً متوسط العمر رث الثياب، له عينان تنظران إلى كل شيء حوله في الغرفة فيما عدا محدثه. وقال المليونير: صباح الخير يا جوبي، تفضل بالجلوس.

- شكراً يا سيد فان ألولدين.

وجلس السيد جوبي وقد عقد يديه على ركبتيه وأخذ يحدق في جهاز التدفئة.

- لديّ عمل لك.

- نعم يا سيد فان أولدين.

- إن ابنتي متزوجة بديرك كترنج. ربما تعلم هذا.

ونقل السيد جوبي نظرته من جهاز التدفئة إلى درج المكتب على الناحية اليسرى وابتسم. كان السيد جوبي يعرف أشياء كثيرة، ولكنه لم يكن ليصرح بهذه الحقيقة.

- إنها على وشك أن ترفع قضية الطلاق تنفيذاً لنصيحتي، وهذه مهمة المحامي بالطبع، ولكن -لأسباب خاصة- أريد أن أعرف عنه كل شيء.

نظر السيد جوبي إلى حاجز الشرفة وتمتم: السيد كترنج؟

- نعم، أريد معرفة كل شيء عن السيد كترنج.

- حسناً يا سيدي.

ونهض السيد جوبي واقفاً فسأله: متى تقدم إليّ المعلومات؟

- هل أنت في عجلة من الأمر يا سيدي؟

فردّ المليونير: أنا دائماً في عجلة من أمري.

ابتسم السيد جوبي وسأل: في الثانية من بعد ظهر اليوم؟

- عظيم. سعدت صباحاً يا سيد جوبي.

- سعدت صباحاً يا سيد فان أولدين.

وعندما خرج السيد جوبي ودخل السكرتير قال المليونير: إنه رجل مفيد للغاية ولا يجاريه أحد في هذا المضمار.

- وما هو هذا المضمار؟

- المعلومات. امنحه أربعاً وعشرين ساعة فقط وسيضع أمامك كل دقائق حياة أسقف كانتربري!

ابتسم نايتون وقال: إنه مفيد حقاً.

– لقد أفدت من خبرته مرة أو مرتين من قبل. والآن يا نايتون، هيا إلى العمل.

* * *

في الساعات القليلة التالية أنهى فان أولدين الكثير من أعماله بسرعة. وفي الساعة الثانية عشرة والنصف دق جرس التليفون وقيل لمستر فان أولدين إن السيد كترنج قد حضر. ونظر نايتون وأدرك ما تعنيه إيماءته القصيرة، فأجاب على التليفون قائلاً: دع السيد كترنج يصعد من فضلك.

وجمع السكرتير أوراقه وخرج، والتقى مع الزائر في المدخل فانتحى جانباً ليدع الآخر يمر، ثم دخل وأغلق الباب من خلفه قائلاً: صباح الخير يا سيدي. لقد سمعت أنك شديد اللهفة لرؤيتي.

وأثار الصوت الكسول بنبرة السخرية الخفيفة التي أحاطت به ذكريات فان أولدين، فلقد كان لهذا الصوت دائماً سحر خاص. وألقى على زوج ابنته نظرة طويلة. كان ديرك كترنج في الرابعة والثلاثين، نحيلاً، ذا وجه أسمر صغير كوجه صبي. وقال فان أولدين باقتضاب: تفضل بالجلوس.

وألقى كترنج بنفسه على مقعد ونظر إلى حميه قائلاً: لم أرك منذ فترة طويلة، منذ نحو سنتين. هل رأيت روث؟

– نعم، رأيتها مساء أمس.

قال الزوج بخفة: إنها في صحة طيبة، أليس كذلك؟

فرد فان أولدين بجفاء: لا أظن أنك رأيتها لتحكم.

فرفع ديرك كترنج حاجبيه وقال باستخفاف: آه، إننا نلتقي أحياناً في نفس النادي الليلي كما تعلم.

قال فان أولدين باقتضاب: أنا لن ألف وأدور، لقد نصحت روث بأن تقدم طلباً للطلاق.

بدا ديرك كترنج غير متأثر إطلاقاً لهذا الكلام وقال: يا له من إجراء عنيف! أتسمح لي بالتدخين يا سيدي؟

وأشعل سيجارة ونفث سحابة طويلة من الدخان وقال بلا اكتراث: وماذا قالت روث؟

- لقد وافقت على رأيي.

- حقاً؟

سأله فان أولدين بحدة: أهذا كل ما لديك؟

فألقى كترنج رماد سيجارته في وعاء الفحم وقال: أعتقد أنها ترتكب خطأً جسيماً بهذا.

رد فان أولدين متجهماً: من وجهة نظرك طبعاً.

وقال الآخر: دعنا نكن موضوعيين. لم أكن أفكر في نفسي في هذه اللحظة، بل كنت أفكر فيها. وأنت تعلم أن والدي العجوز لن يعيش طويلاً، فقد أجمع الأطباء على ذلك، ومن الأفضل لروث أن تنتظر سنتين أخريين فأصبح أنا لورد ليكونبري وتصبح هي عقيلة لورد ليكونبري، وهو ما تزوجتني من أجله.

زمجر فان أولدين: لن أقبل هذه الوقاحة منك.

فابتسم ديرك كترنج دون أن يهتز وقال: أتفق معك؛ إنها فكرة قديمة، فلم تعد الألقاب مغرية في هذه الأيام. ورغم ذلك فإن ليكونبري مكان عريق ورائع، وأيضاً فنحن من أعرق الأسر في إنجلترا، ولا شك أنه مما يضايق روث أن تطلق مني لتجدني متزوجاً بأخرى وتُتوّج امرأة أخرى على ليكونبري بدلاً منها.

قال فان أولدين: إنني جاد.

- وأنا أيضاً، فأنا أعاني ضائقة مالية والطلاق سيضعني في موقف حرج. ثم إذا كانت تحملتني عشر سنوات فلماذا لا تتحملني وقتاً آخر؟ أؤكد لك أن الرجل العجوز لن يعيش أكثر من سنة ونصف، وكما قلت لك من قبل من المؤسف ألا تحصل روث على ما تزوجتني من أجله.

- أتعني أن ابنتي تزوجتك من أجل اللقب والمركز؟

ضحك ديرك كترنج ضحكة لا تحمل معنى السرور: أكنت تعتقد أنه زواج قائم على الحب؟

فردّ فان أولدين ببطء: أعلم أنك كنت تتحدث بلهجة مغايرة تماماً في باريس منذ عشر سنوات.

- حقاً، ربما كانت روث جميلة كما تعلم، كملاك أو قديسة أو كشيء هبط من السماء. وكنت أرغب في أن أبدأ صفحة جديدة من الاستقرار والعيش طبقاً لأعرق التقاليد الإنجليزية مع زوجة جميلة تحبني.

وضحك ضحكة أخرى وقال: ولكنك لا تصدق، كما أعتقد.

فردّ فان أولدين: أنا لا أشك لحظة في أنك تزوجت روث من أجل ثروتها.

فرد الآخر ساخراً: وأنها تزوجتني من أجل الحب!

- بالتأكيد.

فنظر إليه ديرك كترنج قليلاً ثم أومأ برأسه مفكراً: أرى أنك تصدق هذا الزعم كما صدقته أنا في وقت ما، ولكني أؤكد لك يا حماي العزيز أنني سرعان ما اكتشفت خطأه.

- لا أدري ماذا تعني بهذا ولا يهمني. لقد أسأت معاملة روث.

ووافقه كترنج قائلاً باستخفاف: نعم، ولكنها عنيدة كما تعلم. إنها ابنتك، فتحت هذه الرقة والنعومة صلابة كالجرانيت. لقد اشتهرتَ بأنك رجل صعب المراس ولكن روث أصعب منك كثيراً، فأنت -على الأقل- تحب شخصاً أكثر من نفسك، أما روث فهي لم تفعل ذلك أبداً... ولن تفعله!

- هذا يكفي! لقد طلبت حضورك إلى هنا لكي أخبرك بكل صراحة بما اعتزمت عمله. يجب أن تحظى ابنتي بشيء من السعادة. ولتذكر أيضاً: إنني أساندها.

نهض ديرك كترنج ووقف إلى جوار المدفأة وألقى بسيجارته بعيداً، وعندما تكلم كان صوته في غاية الهدوء: ترى، ماذا تعني بكلامك هذا؟

- أعني أنه من الأفضل لك ألا تعارض في طلب الطلاق.

- آه، أهذا تهديد؟

- لتفهمه كما يحلو لك.

جذب كترنج مقعداً من ناحية المنضدة وجلس قبالة المليونير وقال برقة: ولنفرض -جدلاً- أنني عارضت في طلب الطلاق؟

فهزّ أولدين كتفيه وقال: إنك لا تقف على أرض صلبة أيها المغفل، ولتسأل محاميك وسيخبرك بذلك. لقد كان سلوكك مشيناً وكان حديث لندن كلها.

- لقد أثارت روث ضجة حول ميراي، وكان هذا غباء منها؛ فأنا لا أتدخل في علاقاتها بأصدقائها.

سأله فان أولدين بحدة: ماذا تعني؟!

فضحك ديرك كترنج وقال: أرى أنك لا تعلم كل شيء يا سيدي. إنك متحيز ضدي، وقد يكون هذا شيئاً طبيعياً.

والتقط قبعته وعصاه واتجه ناحية الباب، وكانت آخر طعنة وجهها هي قوله: إنني لا أحب تقديم النصائح عادة، ولكن في هذه الحالة أنصحك -بكل شدة- بوجوب الصراحة التامة بينك وبين ابنتك.

ودلف سريعاً خارج الغرفة وأغلق الباب خلفه في اللحظة التي قفز فيها المليونير واقفاً، ثم عاد فجلس مرة أخرى في مقعده قائلاً: يا إلهي! ماذا يعني بكلامه هذا؟

وعاوده القلق الطاغي مرة أخرى، فهناك شيء ما لم يستطع أن ينفذ إلى أعماقه. وكان التليفون قريباً منه فطلب منزل ابنته: هالو، هالو. هل هذه ماي فير ٨١٩٠٧؟ هل السيدة كترنج موجودة؟ آه، بالخارج؟ نعم، لتناول الغداء. ومتى تعود؟ لا تعلمين؟ حسناً، لا، ليست هناك رسالة.

وألقى سماعة التليفون غاضباً. وفي الساعة الثانية كان يذرع غرفته في انتظار جوبي، الذي وصل فابتدره المليونير قائلاً بحدة: حسناً، هات ما عندك.

ولكن السيد جوبي لم يكن من ذلك النوع الذي يمكن انتزاع الكلام منه بسرعة، فجلس إلى المائدة وأخرج مفكرة رثة وشرع يقرأ منها بصوت رتيب. وأنصت المليونير باهتمام متزايد، وانتهى جوبي من القراءة فقال فان أولدين: إن الأمر يبدو محدداً الآن، وستمر القضية بسلام. وأعتقد أن شهادة الفندق كافية، أليس كذلك؟

فرد السيد جوبي وهو ينظر إلى مقعد مذهّب: تماماً.

– ومن الناحية المالية فهو يعاني ضائقة شديدة، وهو يحاول الحصول على قرض الآن كما تقول، وقد حصل فعلاً على كل ما أمكنه من قروض معتمداً على ما سيؤول إليه من أبيه، وإذا شاعت أخبار الطلاق فلن يتمكن من الحصول على أي قرض. ليس هذا فقط، ولكن من الممكن أيضاً الضغط عليه من هذه الناحية. إنه في قبضتنا تماماً.

وضرب المنضدة بقبضته ووجهه تشع فيه نشوة الانتصار، فقال السيد جوبي بصوت خافت: إن المعلومات تبدو مطمئنة.

وقال المليونير: يجب أن أذهب الآن إلى شارع كيرزون، وإني شاكر لك يا جوبي فقد حصلت على ما أريد.

فبدت ابتسامة شاحبة على وجه الرجل القصير وقال: شكراً يا سيد فان أولدين، إنني أحاول بذل أقصى ما في وسعي.

لكن لم يذهب فان أولدين مباشرةً إلى شارع كيرزون، بل ذهب أولاً إلى المدينة حيث أجرى مقابلتين زادتا من اطمئنانه إلى الموقف، ومن هناك أخذ مترو الأنفاق إلى شارع دادن. وبينما كان يسير في شارع كيرزون خرج شخص من المنزل رقم ١٦٠ وانحرف في الشارع متجهاً ناحيته. وتقابلا على نفس الرصيف ثم استمر كل في طريقه. وقد ظن المليونير لبرهة أن هذا الشخص هو ديرك كترنج نفسه، إذ إن له نفس القامة ونفس بنيان الجسم، ولكن عندما التقيا وجهاً لوجه اكتشف أن الرجل الآخر غريب عنه، على الأقل لا... ليس غريباً، لقد كان في وجهه شيء ما. وحاول المليونير أن يتذكر كنهه، لقد كان مرتبطاً بذكرى غير سارة حاول جاهداً أن يتذكر ما هي ولكنه لم يستطع، فعاود السير في طريقه وهو يهز رأسه بانفعال، فقد كان يكره الهزيمة.

كان واضحاً أن روث تتوقع مجيئه، فجرت إليه وقبلته عندما دخل: حسناً يا أبي، كيف تسير الأمور؟

- على ما يرام، ولكن لي كلمة أو اثنتين معك يا روث.

وبلا وعي رأى التغير الذي طرأ عليها، فبدلاً من فرحة لقياه وتحيته بان على وجهها الترقب، وجلست في مقعد كبير وسألته: حسناً يا أبي، ماذا هناك؟

فرد فان أولدين: لقد التقيت بزوجك هذا الصباح.

- أرأيت ديرك؟

- نعم، وقال لي الكثير من كلامه الوقح، وقبل أن يغادر الغرفة قال شيئاً لم أستطع أن أفهمه. لقد نصحني بأن تكون هناك ثقة تامة بيني وبينك، فماذا يعني بذلك يا روثي؟

تململت روث قليلاً في مقعدها: أنا... أنا لا أعلم يا أبي، وأنّى لي ذلك؟

فقال السيد أولدين: أنت تعلمين بالطبع. ثم إنه قال شيئاً آخر عن حريته في اختيار أصدقائه وعدم تدخله في اختيارك لأصدقائك، فماذا يعني بذلك؟

وردّت روث مرة أخرى: لا أدري.

جلس فان أولدين وقد زم شفتيه، وقال: اسمعي يا روث. إنني لن أتدخل في هذا الموضوع وأنا مغمض العينين، فلست واثقاً من أن زوجك هذا لن يثير المتاعب. ولكني لن أمكنّه من ذلك، فلدي من الوسائل ما يمكنني من أن أسكته وأغلق فمه إلى الأبد، ولكن يجب أن أعلم ما إذا كانت هناك ضرورة لاستخدام هذه الوسائل، فماذا كان يعني بأن لك أصدقاءك؟

هزت كتفيها وقالت بتردد: إن لديّ الكثير من الأصدقاء، ولا أدري ماذا كان يعني.

- بل تعلمين.

كان يتكلم في هذه اللحظة كما لو كان يتحدث إلى خصم في العمل: سأكون أكثر وضوحاً. مَن هو الرجل؟

- أي رجل؟

- الرجل؛ هذا الذي يعنيه ديرك بكلامه. شخص معين تربطك به صداقة. لا داعي للقلق يا عزيزتي فأنا أعلم ألا شيء هناك، ولكن يجب أن ننظر إلى كل شيء من وجهة النظر التي ستبدو بها للمحكمة؛ فكما تعلمين يستطيعون أن يقلبوا الأمور وفق هواهم. أريد أن أعلم من هو الرجل ومدى صلتك به.

لم تجب روث ومضت تفرك يديها في عصبية ظاهرة، فقال فان أولدين بصوت أكثر رقة: هيا يا عزيزتي، لا تخشي شيئاً من أبيك العجوز. أنا لم أكن فظاً معك تلك المرة في باريس، أليس كذلك؟

وسكت كمن أصابته صاعقة وتمتم لنفسه قائلاً: هو ذا الرجل... لقد تذكرت أنني رأيت هذا الوجه.

- عمّ تتحدث يا أبي؟ إنني لا أفهمك.

سار المليونير إليها وأمسك معصمها بشدة وقال: اسمعي يا روث، هل عدت إلى لقاء هذا الرجل؟

- أي رجل؟

- ذلك الذي ثارت حوله ضجة منذ عدة سنوات. أنت تعلمين جيداً من أعني.

وترددت ثم قالت: تعني... تعني الكونت دي لاروش؟

هتف فان أولدين: الكونت دي لاروش! لقد أخبرتك عندئذٍ أن هذا الرجل ليس إلاّ محتالاً، وكنت قد تورطت معك عندئذٍ ولكنني استطعت أن أخلصك من قبضته.

فردت روث بمرارة: نعم، لقد فعلت، وتزوجت أنا ديرك كترنج.

قال المليونير بحدة: لقد أردت أنت ذلك.

فهزت كتفيها. وقال فان أولدين ببطء: والآن عدت إلى الالتقاء به مرة أخرى بعد كل ما أخبرتك به؟ لقد حضر إلى منزلك اليوم وقد التقيت به في الخارج، وإن لم أستطع التعرف إليه لأول وهلة.

واستعادت روث كترنج سيطرتها على نفسها وقالت: أريد أن أخبرك بشيء واحد فقط يا أبي. إنك مخطئ في حق أرمان... أعني الكونت دي لاروش. أعلم أنه قد ارتكب بعض الحوادث المشينة في صباه، وقد حدثني عنها، ولكنه كان دائم الاهتمام بي، وقد حطمتَ قلبه عندما فرقتَ بيننا في باريس. والآن...

لكن قطع حديثها ما أبداه والدها من استياء: إذن فقد انحدرت إلى هذا الدرك، أليس كذلك؟ أنت ابنتي، يا إلهي!

ورفع ذراعيه وقال: هل يصل البله بالنساء إلى هذا الحد؟!

* * *

الفصل الخامس

خرج ديرك كترنج من جناح فان أولدين بسرعة، حتى إنه اصطدم بسيدة كانت تعبر الممر، فاعتذر وقبلت اعتذاره بابتسامة ومضت في طريقها، وقد تركت في نفسه انطباعاً ممتعاً بشخصية لطيفة وعينين رماديتين جميلتين.

ورغم كل ما أبداه من عدم الاكتراث إلاّ أن حديثه مع حميه قد هزه بدرجة أكبر مما كان يبدو عليه. وتناول غداءه وحيداً ثم ذهب إلى الشقة الفاخرة التي كانت تقطنها السيدة التي تدعى ميراي، واستقبلته سيدة فرنسية أنيقة وهي تبتسم وقالت: لتتفضل بالدخول يا سيدي، إن سيدتي تستريح.

وقادته إلى غرفة ذات أثاث شرقي كان يعرفها جيداً. كانت ميراي تستريح على أريكة. ورغم أن وجهها كان شاحباً إلاّ إنها كانت تتمتع بالجاذبية. وابتسمت لديرك فألقى بنفسه إلى المقعد المقابل وقال: ماذا كنت تفعلين؟ أتراك استيقظت لتوك؟

- لا، لقد كنت أعمل.

وأشارت بيدها الشاحبة إلى البيانو وقد تناثرت عليه النوتات الموسيقية، ثم قالت: أنت مغفل يا ديرك، مغفل للغاية. إن كل شيء في غاية البساطة، يجب أن تسوي أمورك مع زوجتك.

فرد ديرك بجفاء: أخشى ألا يكون هذا ممكناً.

- ماذا تقول؟ لست أفهمك.

- إن فان أولدين لا يقبل يا عزيزتي؛ فهو من ذلك النوع الذي يصمم على شيء ولا يحيد عنه.

أومأت الراقصة برأسها وقالت: لقد سمعت عنه. إنه واسع الثراء، أليس كذلك؟ ربما يكون أغنى رجل في أمريكا، ومنذ بضعة أيام اشترى في باريس أروع ياقوتة في العالم، تلك التي يطلقون عليه اسم «قلب النار».

ولم يحر كترنج جواباً فاستطردت ميراي تقول وهي تفكر: المجوهرات يا ديرك... آه لو أني أتحلى بياقوتة مثل قلب النار!

وأطلقت زفرة قصيرة ثم عادت امرأة عملية مرة أخرى: أنت لا تفهم هذه الأشياء يا ديرك، فأنت مجرد رجل. وكما أعتقد فسوف يقدم فان أولدين هذه المجوهرات إلى ابنته، أليست هي ابنته الوحيدة؟

- بلى.

- وعندما يموت سترث كل ثروته وتصبح امرأة ثرية.

- إنها ثرية الآن؛ فقد منحها مليونين عند زواجها.

- مليونين! ولو ماتت فجأة سترث أنت كل ذلك؟

قال كترنج ببطء: في الوقت الحاضر نعم؛ فعلى قدر معلوماتي لم تكتب وصية.

فصاحت: يا إلهي! يا له من حل، لو قُدّر لها أن تموت!

تلت ذلك فترة صمت، ثم ضحك ديرك كترنج وقال: إنني

معجب بتفكيرك البسيط العملي يا ميراي، ولكن أخشى ألا يتحقق ما تريدين فزوجتي تتمتع بصحة جيدة.

قالت ميراي: حسناً، ولكن هناك حوادث تقع.

فنظر إليها بحدة ولكنه لم يجب. واستطردت: ولكنك على حق يا صديقي، يجب ألا تفكر كثيراً في الاحتمالات. اسمع الآن، يجب ألاّ تذكر أبداً هذا الطلاق ويجب أن تكف عن هذه الفكرة.

- وماذا إذا لم تفعل؟

ضاقت عينا الراقصة وقالت: أعتقد أنها ستفعل يا صديقي، فهي من ذلك النوع الذي لا يحب التشهير، وهناك بعض الروايات لن تحب أن يقرأها أصدقاؤها في الصحف.

سألها كترنج بحدة: ماذا تعنين؟

فألقت ميراي برأسها إلى الخلف وهي تضحك قائلة: أعني الرجل الذي يطلق على نفسه الكونت دي لاروش، فأنا أعلم كل شيء عنه. لا تنسَ أنني باريسية. وقد كان صديقها قبل أن تتزوجك، أليس كذلك؟

فأمسك كترنج بكتفيها بشدة وقال: هذا محض افتراء. أرجو ألا تنسي أنك تتحدثين عن زوجتي.

- أنا؟ إن لديّ أصدقاء في باريس يا عزيزي ديرك وهم يعرفون الكونت معرفة وثيقة. كل شيء مرتب ترتيباً دقيقاً؛ إن زوجتك ستذهب إلى الريفيرا، أو هكذا تقول، ولكنها في الواقع ستلتقي بالكونت في باريس. ومن يدري؟ نعم، لتثق بكلامي، فكل شيء معد إعداداً دقيقاً.

صرخ كترنج قائلاً: بحق الله! اسكتي وأغلقي فمك اللعين.

ألقت ميراي بنفسها على الأريكة وهي تضحك، وتناول كترنج قبعته ومعطفه وغادر الشقة. وقد صفق الباب بعنف فيما ظلت الراقصة جالسة على الأريكة تضحك مع نفسها، فقد كانت سعيدة بالدور الذي قامت به.

* * *

من النادر أن يطلق ديرك كترنج العنان لغضبه، فقد كانت اللامبالاة هي طابعه المميز، وطالما ساعده ذلك على الخروج من مآزق كثيرة كان يجد نفسه فيها. وكان قد بدا يهدأ. لقد كان فعلاً في حاجة إلى الهدوء، وكان المأزق الذي وجد نفسه فيه الآن أصعب كثيراً من أي وقت مضى، فقد طرأت عوامل لم تكن في الحسبان ولم يعرف كيف يتصرف حيالها.

ومضى في طريقه وهو مستغرق في التفكير وقد عقد حاجبيه، وتخلت عنه روح المرح والبساطة وطافت بفكره احتمالات عدة لو عُرفت لقيل عن ديرك كترنج إنه أقل غفلة مما يبدو عليه! ورأى أمامه عدة طرق يمكن أن يسلكها، من بينها واحد بعينه بدا له مغرياً، فإذا جفل منه فإنما كان ذلك للحظة، فالمرض الميؤوس منه ليس له إلاّ علاج ميؤوس منه.

لقد خبر حماه تماماً وعرف أن أي حرب بين ديرك كترنج وروفوس فان أولدين لن تكون لها إلاّ نهاية واحدة. وأخذ ديرك يلعن المال والقوة المستمدة منه، وسار في شارع سانت جيمس ومضى في اتجاه ميدان بيكادللي، وعندما مر أمام مكتب توماس كوك وأولاده أبطأ قليلاً. وعلى أية حال فقد عاود سيره وهو يقلب الأمر من جميع وجوهه، وأخيراً أومأ برأسه إيماءة قصيرة واستدار فجأة (لدرجة أنه اصطدم باثنين من المارة كانا يسيران خلفه تماماً)

وعاد من حيث أتى، ولكنه هذه المرة لم يمر من أمام مكتب كوك وإنما دخله. وكان المكتب خالياً نسبياً فقال للموظف من فوره: أريد أن أذهب إلى نيس في الأسبوع القادم.

- متى يا سيدي؟

- في الرابع عشر. ما هو أفضل قطار؟

- بالطبع أفضلها جميعاً هو ما يطلقون عليه اسم القطار الأزرق، وفيه تتفادى متاعب الجمارك في كاليه.

فأومأ ديرك برأسه، وهمس الموظف: الرابع عشر، إنه موعد قريب نوعاً ما، فالقطار الأزرق محجوز دائماً في العادة.

قال ديرك: ربما كانت هناك مقصورة خالية، فإذا لم يكن...

ولم يتم جملته، ولاحت ابتسامة غريبة على وجهه. واختفى الموظف بضع دقائق ثم عاد ليقول: اتفقنا يا سيدي؛ هناك ثلاث مقصورات ما زالت خالية وسأحجز لك واحدة منها. باسم مَن؟

فرد ديرك بقوله: بافيت.

وأعطى عنوان سكنه في شارع جرمين، فأومأ الموظف برأسه وانتهى من كتابة الاسم وتمنى لديرك يوماً سعيداً، ثم التفت إلى العميل التالي.

- أريد أن أذهب إلى نيس في اليوم الرابع عشر، أليس هناك قطار اسمه القطار الأزرق؟

ونظر ديرك خلفه بحدة: مصادفة، مصادفة غريبة! وتذكر كلماته لميراي وهو يتذكر صورة سيدة ذات عينين رماديتين: "لا أظن أنني سأراها مرة أخرى". لكن ها هو يراها مرة ثانية، بل أكثر

من ذلك كانت ستذهب إلى الريفيرا بنفس القطار الذي سينقله هو. وسرت في جسده رعدة، فقد كان يؤمن بالخرافات إلى حد ما. لقد قال وهو يضحك إنه ربما جلبت هذه المرأة له سوء الطالع، ولنفرض أنها كانت فعلاً كذلك.

وعاد ينظر إليها مرة أخرى عندما وصل إلى الباب ورآها تتحدث إلى الموظف. ولأول مرة لم تخنه ذاكرته، فهي سيدة، سيدة بكل معنى الكلمة. لم تكن صغيرة السن ولا متميزة الجمال، ولكن هناك شيئاً ما... ربما هما هاتان العينان اللتان قد تريان أكثر من اللازم؟ وعندما دلف من الباب كان يشعر بخوف غامض من هذه المرأة، كان لديه إحساس بالخطر.

دخل إلى مسكنه في شارع جرمين ونادى تابعه فقال له: خذ هذا الشيك يا بافيت واذهب إلى مكتب كوك في بكاديللي، وستجد هناك بعض التذاكر محجوزة باسمك، فادفع ثمنها وعد بها.

- حسناً يا سيدي.

وانسحب بافيت. ومضى ديرك إلى منضدة جانبية فالتقط ملء يده من الخطابات. وكانت كلها مألوفة لديه، فواتير صغيرة وكبيرة وكلها مستحقة الدفع، وكانت لهجة المطالبة ما زالت مهذبة ولكنه كان يعلم أن هذه اللهجة ستتغير إذا ذاع نبأ معين. وألقى بنفسه على مقعد كبير مكسو بالجلد. يا له من مأزق ذلك الذي وجد نفسه فيه! نعم، مأزق حرج لا سبيل إلى الهرب منه.

وعاد بافيت تلوح على وجهه ابتسامة ذكية وقال: هناك رجل يطلب مقابلتك يا سيدي، الماجور نايتون.

اعتدل ديرك في جلسته وقطب حاجبيه وبدا حذراً وقال بلهجة ألطف ربما لنفسه: نايتون؟! ترى ماذا جلب من أخبار الآن؟

- هل أسمح له بالدخول؟

أومأ برأسه، وعندما دخل نايتون الغرفة وجد مضيفه بشوشاً في انتظاره. وقال ديرك: كم هو لطيف منك أن تحضر إلى هنا.

لاحظ ديرك بعينيه الثاقبتين أن نايتون كان عصبياً. كان من الواضح أن المهمة التي حضر هذا السكرتير من أجلها بغيضة إلى نفسه، وقد ردّ بطريقة آلية على حديث ديرك الذي انساب في يسر واعتذر عن تناول أي شراب، وبدا سلوكه جافاً مختلفاً عن ذي قبل. وبدا على ديرك أنه لاحظ ذلك فقال بمرح: والآن ماذا يريد حماي المبجل مني؟ لعلك حضرت في مهمة على ما أعتقد؟

ولم يبتسم نايتون وإنما قال بحرص: نعم، وقد كنت... كنت أود لو أن السيد فان أولدين اختار لها شخصاً غيري.

فرفع ديرك حاجبيه في قنوط ساخر: أيكون الأمر سيئاً إلى هذا الحد؟! أؤكد لك يا نايتون أنني لا أتأثر بسهولة.

فرد نايتون: لا، ولكن...

وتوقف عن الحديث، فنظر إليه ديرك نظرة ثاقبة وقال بلطف: هيا، هات ما عندك؛ ففي رأيي أن أية مهمة لحماي العزيز لا يمكن أن تكون مهمة سارة.

وتنحنح نايتون وتكلم بلهجة حاول ألا يبدو فيها مرتبكاً فقال: لقد بعث بي السيد فان أولدين لأعرض عليك عرضاً محدداً.

- عرضاً؟!

بدت الدهشة على ديرك، إذ كانت كلمات نايتون الصريحة مغايرة لما توقع، فقدم إليه سيجارة وأشعل لنفسه أخرى، ثم جلس في المقعد يتمتم بصوت ساخر: عرضاً؟ هذا يبدو مسلياً.

- هل أستمر؟

- أرجوك، واغفر لي دهشتي إذ يبدو أن حماي العزيز قد تنازل قليلاً منذ لقائنا هذا الصباح، ثم إن التنازل ليس من سمات الرجال الأقوياء أباطرة المال، وهذا معناه... أعتقد أن هذا معناه أنه قد وجد موقفه أضعف مما كان يظن.

أنصت نايتون بأدب إلى الصوت المنساب الساخر دون أن يبدو على وجهه أي تعبير، وانتظر حتى انتهى ديرك من حديثه ثم قال بهدوء: سأقدم لك العرض في أقل عدد ممكن من الكلمات.

- تفضل.

لم ينظر نايتون إليه وقال بلهجة مقتضبة واقعية: إن الأمر -ببساطة- كالآتي، فكما تعلم إن السيدة كترنج على وشك أن تقدم طلباً للطلاق، فلو مرت القضية دون معارضة منك فسوف تحصل على مئة ألف في نفس اليوم الذي يصبح فيه الحكم نهائياً.

وقف ديرك فجأة وقال بحدة: مئة ألف! دولار؟

- بل مئة ألف جنيه.

وساد الصمت العميق دقيقتين كاملتين، وعقد كترنج حاجبيه وهو يفكر: مئة ألف جنيه؟ إن هذا يعني حصوله على ميراي واستمرار حياته اللاهية العابثة، وكان يعني أيضاً أن فان أولدين يعرف شيئاً، فهو لم يكن الشخص الذي يدفع دون مقابل. ونهض ديرك ووقف إلى جوار المدفأة وسأل بصوت بارد ساخر: وإذا ما رفضت هذا العرض السخي؟

أشار إليه نايتون في توسل وقال بلهفة: أؤكد لك يا سيد كترنج أنني لم أحضر إلى هنا بهذه الرسالة إلاّ رغماً عني.

فرد كترنج: لا عليك، لا تزعج نفسك فليست الغلطة غلطتك. والآن لقد وجهت إليك سؤالاً فهلا رددت عليه.

نهض نايتون أيضاً وتكلم رغماً عنه فقال: في حالة رفضك هذا العرض فقد طلب مني السيد فان أولدين أن أبلغك بصراحة أنه سيحطمك.

رفع كترنج حاجبيه، ولكنه استعاد طريقته اللاهية المرحة فقال: نعم، نعم، أعتقد أنه يستطيع أن يفعل ذلك، وبكل تأكيد لن أستطيع أن أتحمل صراعاً ضد الأمريكي صاحب الملايين. مئة ألف؟ إذا شئت أن ترشو شخصاً فلا أقل من أن تقدم عرضاً مناسباً، ولنفترض أني أفعل ما يريد مقابل مئتي ألف؟

فرد نايتون: سأبلغ هذه الرسالة إلى السيد فان أولدين. هل هذا ردك؟

- لا، من المضحك أنه ليس ردي. والآن تستطيع أن تذهب إلى حماي تقول له: ليذهب هو ورشوته إلى الجحيم. أواضح هذا؟

- تماماً.

نهض نايتون وتردد قليلاً، ثم قال وقد احمرّ وجهه: أتسمح لي أن أقول يا سيد كترنج أنني سعيد بأن هذا هو ردك؟

لم يجب ديرك، وعندما غادر الآخر الغرفة بقي مستغرقاً في التفكير بعض الوقت وقد لاحت على شفتيه ابتسامة غريبة، ثم قال بهدوء: إذن فهذا هو الموضوع؟

* * *

الفصل السادس

- أبي؟!

ذُعرت السيدة كترنج، وطوال هذا الصباح لم تكن أعصابها على ما يرام. كانت تسير على الرصيف المزدحم في محطة فكتوريا وهي مستغرقة في التفكير، وقد ارتدت معطفاً طويلاً من فراء المنك وقبعة صغيرة من اللون الأحمر. وفوجئت بظهور أبيها وتحيته الصادرة من القلب لها: ماذا أصابك يا روث؟ كأنك فزعت.

- لم أكن أتوقع رؤيتك يا أبي، فقد ودّعتني الليلة الماضية وقلت إن لديك مؤتمراً هذا الصباح.

- نعم، ولكنك أهم كثيراً من كل المؤتمرات، وقد حضرت لأراك قبل سفرك الذي يستغرق بعض الوقت.

- كم هو لطيف منك يا أبي أن تفعل هذا! كنت أتمنى لو أنك جئت معي.

- ما رأيك إذا فعلتها؟

كانت مجرد كلمة عابرة، لكنه فوجئ بوجنتي روث تتضرجان، بل لعله رأى ومضة أسى تلمع في عينيها. وضحكت بعصبية وقالت: لقد ظننت أنك تنوي الذهاب فعلاً؟

- وهل كنت تسرين لهذا؟

فقالت بتأكيد مبالغ فيه: طبعاً.

- جميل منك هذا.

واستطردت روث تقول: لن أتغيب طويلاً يا أبي، وكما تعلم، ستذهب أنت في الشهر القادم.

قال فان أولدين بلا انفعال: آه، أعتقد أنني سأذهب أحياناً إلى أحد الأطباء في شارع هارلي ليؤكد لي أنني بحاجة إلى الشمس والهواء.

صاحت روث: لا تكن كسولاً، فالجو هناك يكون أفضل كثيراً في الشهر القادم، ولديك من الأعمال ما لا يمكنك أن تتركه الآن.

تنهد فان أولدين وقال: هذا صحيح، ومن الأفضل أن تصعدي إلى قطارك الآن يا روث. أين مقعدك؟

نظرت روث كترنج إلى القطار بشرود، وعلى باب إحدى عربات البولمان كانت تقف سيدة نحيلة طويلة ترتدي ثوباً أسود، كانت هي وصيفة روث كترنج، وقد انتحت جانباً عندما صعدت سيدتها وقالت: لقد وضعت حقيبة ملابسك تحت المقعد يا سيدتي إذ ربما تحتاجين إليها. هل آخذ البطاطين أم ستحتاجين إليها؟

- لا، لن أحتاج إليها، ومن الأفضل أن تذهبي لتجدي مكانك الآن يا ميسون.

- نعم يا سيدتي.

مضت الوصيفة، ودخل فان أولدين عربة البولمان مع روث، ووجدت مقعدها فوضع فان أولدين بعض الصحف والمجلات

على المنضدة أمامها. وكان المقعد المقابل لها مشغولاً، فألقى الأمريكي نظرة عابرة على صاحبته، وانطبعت في ذهنه صورة لعينين رماديتين جذابتين ولباس أنيق.

وتبادل مع ابنته الكلمات المعتادة في مثل هذا الموقف. وسرعان ما انطلقت صفارات القطار فنظر إلى ساعته ثم قال: من الأفضل أن أمضي الآن. وداعاً يا عزيزتي، لا تشغلي بالك فسأتولى أنا كل شيء.

- آه يا أبي!

واستدار ليذهب، لكن شيئاً ما في صوت روث، شيئاً غريباً جعله يفزع. لعلها كانت صرخة يأس؟ لقد بدت كما لو كانت على وشك أن تلقي بنفسها نحوه، ولكنها عادت وتمالكت نفسها وقالت بمرح: وداعاً حتى نلتقي مرة أخرى.

وبعد دقيقتين تحرك القطار.

جلست روث في مكانها ساكنة تماماً تعض شفتها السفلى وتحاول جاهدة أن تمنع دموعها، وراودها إحساس مفاجئ بالوحدة المروعة فودّت لو استطاعت أن تقفز من القطار وتعود أدراجها قبل أن يفوت الوقت. ولأول مرة في حياتها أحست (وهي الهادئة والواثقة من نفسها دائماً) كما لو كانت ورقة شجرة جرفتها الرياح. لو أن والدها عرف، ترى ماذا كان يقول؟

إنه جنون، نعم، هو كذلك: جنون. ولأول مرة في حياتها تملكتها العواطف بدرجة جعلتها على وشك أن تفعل شيئاً تعلم تمام العلم أنه جنون وطيش. كانت ابنة فان أولدين وكانت تعلم تماماً ما تقوم به، وكانت من الفطنة بحيث أدانت تصرفها هذا، ولكنها كانت ابنته أيضاً في عزيمتها التي لا تلين وفي رغبتها الحصول

على ما تريد، فلا يثنيها عن عزمها شيء. كانت قوية الشكيمة منذ طفولتها، وقد زادتها ظروف حياتها صلابة على صلابتها فاندفعت في طريقها. لقد فات الأوان ولن تستطيع التراجع!

ورفعت عينيها فالتقتا بعيني السيدة التي كانت تجلس مقابلها، وطرأ على فكرها أنها قد قرأت ما كان يدور بخلدها، فقد رأت في هاتين العينين الرماديتين فهماً وعطفاً. كان انطباعاً طارئاً سرعان ما زال ليحل محله طابع الجمود، والتقطت السيدة كترنج مجلة، أما السيدة الأخرى، كاترين جراي، فقد نظرت من خلال النافذة وأخذت ترقب المناظر التي تتابعت أمام ناظريها، الشوارع والمنازل في الضواحي...

ووجدت روث صعوبة كبيرة في تركيز تفكيرها فيما أمامها، ورغماً عنها ازدحم عقلها بالمخاوف. يا لها من حمقاء! إنها مثل أي شخص بارد الأعصاب واثق من نفسه، عندما يفقد سيطرته على نفسه يفقدها تماماً. لقد تأخر الوقت، أحقاً تأخر الوقت؟ لو أنها تجد شخصاً تتحدث معه، لو أنها تجد إنساناً ينصحها! لم تراودها أبداً هذه الأمنية من قبل ولم تكن لتطمئن إلى أي تقدير غير تقديرها هي، ولكن الآن، ماذا حدث لها؟ الرعب؟ نعم، هذا هو أحسن وصف لما تعانيه، الرعب. هي، روث كترنج، كانت واقعة تحت سيطرة هذا الإحساس بالرعب.

ونظرت نظرة متلصصة إلى السيدة الجالسة أمامها. لو أنها كانت تعرف شخصاً مثلها، شخصاً لطيفاً هادئاً عطوفاً، فإن مثل هذا الشخص هو من تستطيع أن تتحدث معه، ولكنك لا يمكن أن تفضي بما في نفسك إلى شخص غريب بالطبع. وابتسمت روث لنفسها قليلاً لهذه الفكرة، ثم عادت فالتقطت المجلة مرة أخرى. حقاً يجب أن تسيطر على نفسها، ثم إنها قد فكرت في هذا الأمر

طويلاً واتخذت قرارها بمحض اختيارها. ثم أية سعادة نعمت بها في حياتها حتى الآن؟ وقالت لنفسها بقلق: أليس من حقي أن أسعد قليلاً؟ ولن يعلم أحد شيئاً.

وسرعان ما وصلوا إلى دوفر. ولم تسبب لها الرحلة البحرية أية متاعب؛ كانت تكره البرد فأسعدها أن تجد المأوى في كابينة خاصة أبرقت بحجزها. لقد كانت روث تؤمن بالخرافات، وإن لم تعترف بذلك. كانت من ذلك النوع من الناس الذي تستهويه الصدفة، وعندما وصلت إلى كاليه واستقرت في مقصورتها المزدوجة مع وصيفتها في القطار الأزرق ذهبت إلى عربة الأكل، ولدهشتها البالغة وجدت نفسها تجلس وجهاً لوجه أمام نفس السيدة التي كانت مواجهتها في عربة البولمان. وابتسمت السيدتان ابتسامة خفيفة وقالت السيدة كترنج: يا لها من مصادفة!

فردت كاترين: إن الأمور تسير بطريقة غريبة أحياناً.

وحضر الجرسون بسرعة مذهلة اشتهر بها كل من يعملون في شركة عربات النوم الدولية ووضع أمامهما الطعام. وعندما كانتا تتناولان البيض المقلي كانتا تتحدثان معاً كصديقتين، وتنهدت روث وقالت: إنه لأمر رائع أن نستمتع بالشمس الساطعة.

- حقاً سيكون إحساساً ممتعاً.

- هل تعرفين الريفيرا جيداً؟

- لا، فهذه هي زيارتي الأولى لها.

- حقاً؟

- أتذهبين إلى هناك كل عام؟

- تقريباً، فشهرا يناير وفبراير في لندن لا يطاقان.

- لقد قضيت عمري كله في الريف، وحتى هناك فهذان الشهران كئيبان، ففي معظم الأوقات يغطي الوحل كل شيء.

- وما الذي جعلك تفكرين في السفر فجأة؟

ردت كاترين: المال. لمدة عشر سنوات كاملة كنت أعمل مرافقة، ليس عندي من المال إلاّ ما يكفي لشراء زوج من الأحذية القوية يصلح للريف. أما الآن فقد ورثت ما يخيل لي أنه ثروة، وإن لم يكن كذلك بالنسبة لك.

- يدهشني قولك أنه ليس كذلك بالنسبة لي.

ضحكت كاترين قائلة: لا أدري، ولكن الإنسان يكوّن انطباعاته أحياناً دون تفكير، وفكرتي عنك أنك واحدة من أغنى أغنياء العالم. إنه مجرد انطباع ربما كنت مخطئة فيه.

قالت روث: لا، لم تخطئي الظن.

وفجأة أصبحت جادة تماماً وقالت: أود لو أنك أخبرتني عن انطباعاتك الأخرى عني.

- أنا؟!

انطلقت روث بلا مراعاة لارتباك الأخرى وقالت: أرجوك، لا تكوني متحفظة. أريد أن أعلم، إذ عندما تركنا محطة فكتوريا نظرت إليك فخطر لي أنك تدركين ما يجول في خاطري.

ابتسمت كارتين وقالت: أؤكد لك أنني لست قارئة أفكار.

- نعم، ولكن أرجو أن تخبريني بما دار بخلدك.

كانت روث تبدو شديدة اللهفة مخلصة في طلبها حتى إن الأخرى استجابت لها وقالت: سأخبرك إذا أردت، ولكن لا تظني

ذلك وقاحة مني. لقد ظننت أنك تعانين كرباً شديداً لسبب ما وكنت أشعر بالأسف من أجلك.

– لقد أصبت، لقد أصبت فعلاً، فأنا أعاني متاعب كثيرة وأود لو أنني استطعت أن أخبرك عن بعض ما بي، لو سمحت؟

قالت كاترين في نفسها: يا إلهي! يا له من عالم يبدو كل شيء فيه متشابهاً وإن تغير المكان؛ لقد كان الجميع يروون لي ما بهم في سانت ماري ميد، وهأنذا الآن في نفس الموقف. ولكني لا أريد أن أنصت إلى شكاية أحد فعلاً.

ردّت بأدب: أرجو أن تحدثيني عما بك.

كانتا على وشك الانتهاء من غدائهما فازدردت روث القهوة ونهضت من مقعدها، وقد نسيت تماماً أن كاترين لم تشرب قهوتها بعد فقالت: تعالي إلى المقصورة معي.

كانتا مقصورتين مفردتين يصل بينهما باب، وكانت في المقصورة الأخرى الوصيفة النحيلة التي رأتها كاترين في محطة فكتوريا. كانت جالسة مشدودة القامة على مقعد وقد أمسكت بعلبة كبيرة قرمزية اللون عليها حروف «ر. ف. ك».

وجذبت السيدة كترنج الباب الأوسط وغاصت في مقعدها وجلست أمام كاترين قائلة: إنني في مأزق ولا أدري ماذا أفعل، فهناك رجل أحبه، أحبه فعلاً. وقد بدأ حبنا منذ كنا صغيرين إلاّ أن الظروف فرقتنا بوحشية وقسوة، والآن التقينا مرة أخرى.

– حسناً؟

– أنا، أنا ذاهبة للقائه الآن. أعتقد أنك تظنين أن الأمر كله خطأ ولكنك لا تعرفين الظروف. إن زوجي لا يُحتمل وهو يعاملني

معاملة مشينة.

وقالت كاترين مرة أخرى: حسناً؟

- إن ما يقلقني للغاية هو أنني قد خدعت أبي الذي حضر لوداعي في محطة فكتوريا اليوم. هو يريدني أن أطلق زوجي ولكنه -بالطبع- لا يعلم أنني ذاهبة للقاء الرجل الآخر، إذ سيعتبر ذلك طيشاً لا حد له.

- ألا تعتقدين أن الأمر كذلك؟

- نعم، أعتقد أنه كذلك.

ونظرت روث كترنج إلى يديها اللتين كانتا ترتجفان بشدة وقالت: ولكنني لا أستطيع أن أتراجع الآن.

- ولم لا؟

- إنني... إن كل شيء قد أعد وسيحطم هذا قلبه.

قالت كاترين: لا تصدقي ذلك؛ فالقلوب تتحمل الكثير.

- سيظن أنه ليست لديّ الشجاعة أو قوة العزيمة.

فقالت كاترين: إن ما تقدمين عليه لفي غاية الطيش، وأظن أنك تدركين هذا بنفسك.

دفنت روث وجهها في راحتيها وقالت: لا أدري، لا أدري. ومنذ غادرنا محطة فكتوريا وأنا أحس إحساساً رهيباً بأن شيئاً ما، شيئاً ما سيحدث لي قريباً، ولا مفر منه.

وأمسكت بيد كاترين بشدة وقالت: قد تظنين أنه جنون أن أتحدث إليك هكذا، ولكني أقول لك إنني أحس بأن شيئاً رهيباً سيحدث.

- لا تفكري بهذه الطريقة؛ حاولي أن تتمالكي أعصابك، ويمكنك أن تبرقي إلى والدك من باريس لو أردت وسيحضر إليك في الحال.

تهلل وجه روث وقالت: نعم، سأفعل، يا أبي العجوز! إنه لشيء غريب، ولكني لم أشعر أبداً كم أحبه إلاّ هذا الصباح.

واعتدلت في جلستها وجففت عينيها بمنديلها وقالت: لقد كنت حمقاء للغاية. شكراً جزيلاً على أن أتحت لي فرصة التحدث إليك. لست أدري ما الذي دفعني إلى هذه الحالة الهستيرية الغريبة!

ثم نهضت وقالت: أنا على ما يرام الآن. أعتقد أنني كنت بحاجة إلى شخص أفضي إليه بما في مكنون نفسي، ولا أجد الآن سبباً يدعوني إلى هذا التصرف الطائش.

ونهضت كاترين وقالت وهي تحاول أن تتحدث بصوت عادي: أنا سعيدة لأنك تشعرين بتحسن.

وكانت تدرك تماماً أن هناك فترة من الارتباك تتلو مرحلة الاعتراف بكوامن النفس، فأضافت بلباقة: أعتقد أنه يجب أن أعود إلى مقصورتي الآن.

وخرجت إلى الممر في نفس الوقت الذي خرجت فيه الوصيفة من الباب الآخر، ونظرت الأخيرة إلى كاترين من فوق كتفها فرأت كاترين الدهشةَ البالغة على وجهها، والتفتت كارتين لترى سبب دهشة الوصيفة، ولكن أياً كان الشخص الذي تسبب في ذلك فإنه قد دخل في مقصورته وأصبح الممر خالياً. وسارت كاترين لتعود إلى مكانها في العربة التالية، وعندما مرت أمام المقصورة الأخيرة فُتح الباب وأطل وجه امرأة، ثم أغلق مرة أخرى بشدة.

لم يكن وجهها مما يُنسى بسهولة، وقد أدركت كاترين ذلك عندما رأته مرة أخرى. كان وجهها جميلاً بيضاوياً تغطيه طبقة كثيفة من المساحيق، وراود كاترين إحساس غامض بأنها قد رأت هذا الوجه من قبل في مكان ما.

وأخيراً وصلت إلى مقصورتها وجلست فترة تفكر فيما أفضي إليها من أسرار، وتعجبت من تكون المرأة ذات معطف الفراء وكيف ستنتهي قصتها؟ ومضت تفكر لنفسها وتقول: إذا كنت قد منعت شخصاً من أن يتصرف بطيش فأعتقد أن هذا عمل طيب، ولكن من يدري؟ إنها من ذلك النوع من النساء اللاتي عشن طول حياتهن أنانيات صعبات المراس، وقد يفيدها أن تتصرف بهذه الطريقة من قبيل التغيير. حسناً، لا أظن أنني سأراها بعد ذلك مرة أخرى وهي بالتأكيد لن ترغب في رؤيتي، وهذا هو أسوأ ما في الأمر حين يفضي إليك الناس بأسرارهم... إنهم لا يريدون أن يروك بعد ذلك أبداً.

وتمنت كاترين لو أنهم لا يعطونها نفس المكان على مائدة العشاء، وأخذت تفكر في أن الموقف سيكون محرجاً لكليهما عندئذ. ورجعت إلى الوراء قليلاً وقد أسندت رأسها إلى الوسادة وأحست بالتعب والاكتئاب. لقد وصلوا باريس، وكانت الرحلة البطيئة -بما فيها من توقف بالمحطات وانتظار- منهكة ومتعبة للغاية. وعندما وصلوا إلى محطة ليون أسعدها أن تتمشى قليلاً على الرصيف، وأنعشتها نسمة من الهواء البارد بعد حرارة القطار، ولاحظت وهي تبتسم أن صديقتها ذات معطف الفراء قد حلت مشكلة العشاء بطريقتها الخاصة، إذ تسلمت الوصيفة العشاء من خلال النافذة.

عندما عاود القطار سيره وأعلنت الأجراس الصاخبة موعد

العشاء مضت إليه كاترين وقد هدأت. كان يجلس مقابلها إلى المائدة شخص مختلف تماماً. كان رجلاً قصيراً من الواضح أنه غريب، له شارب كث ورأسه بيضاوي الشكل مائل قليلاً. وكانت كاترين قد أخذت معها كتاباً فلاحظت أن عيني الرجل القصير مثبتتان عليه وهما تومضان، وقال: أرى يا سيدتي أن معك قصة بوليسية، فهل أنت مغرمة بمثل هذه الأشياء؟

ردت كاترين: إنني أجد فيها تسلية.

وأومأ الرجل القصير برأسه دلالة على فهمه التام وقال: لقد قيل لي إنها تلقى رواجاً، ترى لماذا يا آنستي؟ إنني أسألك باعتبارك دراسة للطبيعة البشرية، لماذا؟

بدت كاترين أكثر استمتاعاً بهذا الحديث وقالت: ربما لأنها تعطي الإنسان فرصة لكي يحيا حياة مثيرة.

فأومأ برأسه وقال: نعم، هناك بعض الحقيقة فيما تقولين.

واستطردت كاترين تقول: ولكن المرء يعلم تماماً أن مثل هذه الأشياء لا تحدث في الواقع.

لكنه قاطعها بقوله: إنها تحدث أحياناً يا آنستي، في بعض الأحيان. لقد حدثت لي أنا شخصياً.

رمقته بنظرة سريعة فاستطرد يقول: من يدري؟ ربما تجدين نفسك يوماً في خضم الأحداث، إنها الصدفة.

فردت كاترين: لا أعتقد بإمكان حدوث شيء من ذلك، فلم يسبق لي أن تعرضت لمثل هذا.

انحنى إلى الأمام وسألها: وهل تحبين أن يحدث لك هذا؟

أفزعها السؤال فشهقت، ولكن الرجل القصير قال: لعله مجرد خيال، ولكني أعتقد أن في أعماق نفسك شوقاً إلى أحداث مثيرة. حسناً يا آنسة، لقد لاحظت طول حياتي شيئاً واحداً: كل ما يتمناه المرء يدركه. من يدري، ربما تحصلين على أكثر مما تودين؟

وسألته كاترين مبتسمة وهي تغادر المائدة: أهذه نبوءة؟

فهزّ الرجل القصير رأسه وقال متباهياً: أنا لا أتنبأ بشيء، ولكن الواقع أنني دائماً على حق، لكني لا أتفاخر بذلك. سعدت مساء يا آنسة وأتمنى لك نوماً هادئاً.

عادت كاترين عبر القطار وقد أمتعها حديث جارها الضئيل الحجم. ومرت أمام باب مقصورة صديقتها المفتوح فرأت المحصل يعد السرير، أما السيدة ذات الفراء فقد كانت واقفة تنظر من خلال النافذة. وكانت المقصورة الأخرى -كما لاحت لكاترين عبر الباب المؤدي إليها- خالية، وقد تكومت الحقائب والبطاطين على المقعد، ولم تكن الوصيفة فيها.

ووجدت كاترين سريرها معداً، ولما كان التعب يغلب عليها فقد دخلت لتنام وأطفأت النور في نحو الساعة التاسعة والنصف.

ثم استيقظت فزعة. لم تكن تدري كم من الوقت مضى فنظرت إلى ساعتها لتجد أنها قد توقفت. واجتاحها شعور هائل بالقلق أخذ يتزايد لحظة بعد أخرى، وفي النهاية نهضت فوضعت رداء حول كتفيها وخطت إلى الممر. وبدا القطار كله يلفه النعاس، وفتحت كاترين النافذة وجلست إلى جانبها بضع دقائق تملأ رئتيها من هواء الليل البارد وتحاول جاهدة أن تهدئ من مخاوفها، ثم قررت أن تمضي إلى نهاية الممر وتسأل المحصل عن الوقت لتضبط ساعتها. ولكنها وجدت معقده الصغير خالياً، وترددت قليلاً

ثم استأنفت سيرها إلى العربة التالية، وألقت ببصرها عبر الممشى الطويل المعتم، ولدهشتها رأت رجلاً يقف ويده على مقبض باب المقصورة التي تحتلها السيدة ذات الفراء أو المقصورة التي ظنت أنها مقصورة السيدة ذات الفراء. على أي حال ربما تكون قد أخطأت. وقف هناك لحظة وظهره إليها، وبدا متردداً، ثم استدار ببطء.

وانتاب كاترين إحساس غريب بالخطر، وأدركت أنه الرجل الذي التقت به مرتين من قبل: مرة في ممر فندق سافوي ومرة أخرى في مكتب كوك. ثم فتح باب المقصورة ودلف منه وأغلقه خلفه. ومر خاطر في عقل كاترين: ترى أيمكن أن يكون هذا الرجل هو الذي تحدثت عنه السيدة الأخرى، الرجل الذي قامت برحلتها هذه لتلتقي به؟

وعادت كاترين تقول لنفسها إن خيالها قد جمح، فلا شك أنها قد أخطأت المقصورة. وعادت إلى العربة الأخرى حيث مقصورتها هي، وبعد خمس دقائق أبطأ القطار سيره وسمعت صوت الفرامل، وبعد دقائق أخرى توقف القطار تماماً في ليون.

* * *

الفصل السابع

عندما استيقظت كاترين في الصباح التالي كانت الشمس مشرقة. وذهبت لتتناول إفطارها مبكراً ولكنها لم تلتق بأي ممن تعرفت بهم في اليوم السابق، وعندما عادت إلى مقصورتها وجدت المحصل قد أعاد ترتيبها. وكان رجلاً له شارب كبير ووجه أسمر يشيع فيه الحزن، وقد بادرها بقوله: إن سيدتي محظوظة فالشمس مشرقة، قد يحدث أن يصل المسافر إلى هنا ليجد الجو قاتماً فينتابه شعور قوي بخيبة الأمل.

- كنت فعلاً سأصاب بخيبة أمل شديدة لو حدث لي هذا.

واستعد الرجل للخروج قائلاً: لقد تأخرنا قليلاً يا سيدتي، عندما نصل إلى نيس سأخبرك.

فأومأت كاترين، وجلست إلى جانب النافذة وقد نفذت خلالها أشعة الشمس فبان المنظر أمامها بكل جماله: أشجار النخيل، ومياه البحر الزرقاء، وزهور الميموزا الصفراء... بدا كل شيء ساحراً بالنسبة لامرأة لم تر إلاّ شتاء إنجلترا الكئيب على مدى أربعة عشر عاماً.

وعندما وصلوا إلى كان غادرت كاترين القطار وتمشت على الرصيف، وتملكها الفضول بشأن السيدة ذات الفراء فنظرت إلى

نوافذ مقصورتها فوجدت الشيش مغلقاً، كانت تلك النوافذ الوحيدة التي كانت مغلقة في القطار كله. وتعجبت كاترين قليلاً، وعندما عادت إلى القطار ومرت في الممشى وجدت أن المقصورتين كانتا لا تزالان مغلقتي الأبواب والنوافذ. يبدو أن السيدة ذات الفراء لا تحب الاستيقاظ مبكراً.

وحضر المحصل فأخبرها أنهم سيصلون إلى نيس بعد بضع دقائق، ومنحته كاترين بعض النقود فشكرها، ولكنه لم يمض لحاله. كان في الأمر شيء ما. وظنت في بادئ الأمر أن المبلغ الذي منحته إياه لم يكن مجزياً، ولكنها الآن تأكدت أن شيئاً خطيراً قد حدث، إذ كان وجهه شاحباً كوجوه المرضى وكان يرتعد من قمة رأسه إلى أخمص قدميه وقد بدا كما لو كان الرعب قد خلع قلبه. وكان ينظر إليها بطريقة غريبة ثم قال فجأة: عفواً يا سيدتي، أينتظرك أحد في نيس؟

- ربما، ولكن لماذا؟

ولكن الرجل اكتفى بهز رأسه وتمتم شيئاً لم تفهمه كاترين ومضى بعيداً، ثم لم يظهر إلاّ حين توقف القطار تماماً في المحطة فجعل يناولها حقائبها من النافذة. ووقفت كاترين برهة على الرصيف في حيرة من أمرها، ولكن شاباً أشقر تبدو على وجهه سمات الطيبة تقدم منها وقال بتردد: الآنسة جراي، أليس كذلك؟

قالت كاترين إنها هي، فأضاء وجه الشاب وتمتم: أنا تشابي، زوج الليدي تامبلين كما تعلمين، أظن أنها ذكرتني ولكن ربما تكون قد نسيت. هل معك تذكرة الحقائب؟ لقد فقدت تذكرة حقائبي عندما سافرت هذا العام، ولن تتخيلي الضجة التي حدثت بسبب ذلك. إنه الروتين الفرنسي!

أبرزت كاترين تذكرتها، وكانت على وشك أن تمضي إلى جانبه حين همس صوت رقيق للغاية في أذنها قائلاً: لحظة واحدة من فضلك يا سيدتي.

والتفتت كاترين فرأت شخصاً يرتدي زياً رسمياً موشى بالذهب، وأوضح الأمر بقوله: هناك بعض الإجراءات. أرجو أن ترافقني السيدة فإن إجراءات البوليس غير معقولة، ولكن ما الحيلة؟

وأنصت السيد تشابي إيفانز وهو لا يفهم شيئاً مما يدور حوله، إذ كانت معرفته باللغة الفرنسية محدودة للغاية. وتمتم : تماماً، كالفرنسيين.

كان واحداً من أولئك البريطانيين الوطنيين الذين ما يكادون يستوطنون بلاداً غير بلادهم حتى يُبدوا استياءهم الشديد من سكانها الأصليين. وقال: لا بد أنها خدعة ما، وإن كانوا لم يتعرضوا لأي شخص في المحطة من قبل. أعتقد أنك يجب أن تذهبي معهم.

خرجت كاترين ومعها مرافقها، ولدهشتها قادها إلى حيث كانت إحدى عربات القطار الذي غادر المحطة وقد فُصلت عنه، ودعاها إلى صعود تلك العربة وسبقها عبر الممر ليفتح باب إحدى المقصورات حيث وجدت شخصاً مهيباً معه آخر يبدو أنه كاتب. ونهض الشخص المهيب فانحنى لكاترين ثم قال: عفواً يا سيدتي، ولكن هناك بعض الإجراءات لا بد من استيفائها. أظن أن السيدة تتحدث بالفرنسية؟

فردت كاترين بالفرنسية: إلى حد ما يا سيدي، على ما أظن.

- هذا بديع، تفضلي بالجلوس. أنا المسيو كو، مفتش المباحث.

ونفخ صدره محاولاً التأثير عليها، فتظاهرت كاترين بأنها قد تأثرت فعلاً وتساءلت: أتريد أن ترى جواز سفري؟، ها هو.

فنظر إليها المفتش بحدة ثم زمجر قائلاً وهو يتناول جواز سفرها: شكراً يا سيدتي، ولكن ما أريده فعلاً هو بعض المعلومات.

- معلومات؟

فأومأ برأسه ببطء وقال: عن سيدة كانت رفيقتك في السفر، وقد تناولت غداءك معها بالأمس.

- أخشى ألا أستطيع أن أخبرك عنها بالكثير. لقد تحادثنا معاً أثناء تناول الطعام ولكنها غريبة تماماً عني فأنا لم أرها من قبل أبداً.

رد المفتش بحدة قائلاً: ورغم ذلك فقد عدت إلى مقصورتها بعد الغداء وجلستما معاً تتجاذبان أطراف الحديث فترة؟

ردت كاترين: نعم، هذا صحيح.

ويبدو أن المفتش قد توقع أن تقول شيئاً آخر، فنظر إليها مشجعاً وقال: نعم يا سيدتي.

فردت كاترين: حسناً يا سيدي.

- ربما استطعت أن تعطينا فكرة عن الحديث الذي دار بينكما.

- أستطيع طبعاً، ولكني لا أجد سبباً يدعوني إلى ذلك الآن.

وأحست بالضيق، فقد بدا لها هذا الموظف وقحاً. وفجأة صاح المفتش: لا تجدين سبباً؟ أؤكد لك أن هناك سبباً يا سيدتي.

- إذن فلتقله لي.

حكّ المفتش ذقنه وهو مستغرق في التفكير برهة دون أن يتكلم، وأخيراً قال: إن السبب بسيط للغاية يا سيدتي؛ السيدة التي نتحدث عنها وُجدت ميتة في مقصورتها هذا الصباح.

شهقت كاترين: ميتة! وما السبب؟ هبوط في القلب؟

فرد المفتش بصوت خافت: لا، لقد قتلت.

وصرخت كاترين: قُتلت!

- وهكذا ترين يا سيدتي لماذا نحن متلهفون لأية معلومات نستطيع الحصول عليها.

- ولكن وصيفتها بالتأكيد...

- لقد اختفت الوصيفة.

- آه!

سكتت كاترين تستجمع شتات أفكارها. وقال المفتش: ولما كان المحصل قد شاهدك تتجاذبين أطراف الحديث معها في مقصورتها فمن الطبيعي أنه قد أخطر الشرطة بذلك، ولهذا السبب حجزناك يا سيدتي على أمل الحصول على بعض المعلومات.

قالت كاترين: أنا آسفة، فإنني لا أعرف حتى اسمها.

- إن اسمها كترنج، وقد عرفناه من جواز سفرها ومن البطاقات الموضوعة على حقائبها. وإذا...

وهنا دق الباب، فقطب المسيو كو وفتحه نحو ست بوصات وصاح بحزم: ماذا هناك؟ لا أريد أن يزعجني أحد.

ومن خلال الفتحة ظهر رأس بيضاوي هو رأس الرجل الذي

تناول العشاء مع كاترين، وكانت على وجهه ابتسامة مضيئة وقال: إن اسمي هيركيول بوارو.

تلعثم المفتش قائلاً: أنت لست... لست هيركيول بوارو المعروف.

فرد بوارو: بل أنا هو، وأذكر أننا قد التقينا مرة يا مسيو كو في إدارة الأمن في باريس، رغم أنك قد نسيتني بلا شك.

فقال المفتش بحرارة: لا، أبداً. تفضل بالدخول، هل علمت بهذه...

- نعم، لقد حضرت لأرى ما إذا كنت أستطيع أن أقدم أية مساعدة؟

فرد المفتش من فوره: يسعدنا ذلك. دعني أقدمك يا مسيو بوارو إلى...

ونظر إلى جواز السفر الذي كان لا يزال يحمله في يده وقال: إلى السيدة، الآنسة جراي.

فابتسم بوارو لكاترين وتمتم قائلاً: أليس غريباً أن تتحقق كلماتي بهذه السرعة؟

وقال المفتش: للأسف لا تستطيع الآنسة أن تخبرنا بالكثير.

فقالت كاترين: لقد كنت أحاول أن أشرح للمفتش أن هذه السيدة المسكينة كانت غريبة عني تماماً.

أومأ بوارو برأسه وقال برقة: ولكنها تحدثت إليك، وقد كونت لنفسك انطباعاً عنها، أليس كذلك؟

ردت كاترين بتفكير: نعم، أعتقد ذلك.

وقال المفتش: نعم يا آنسة، أرجو أن نعرف انطباعاتك.

أخذت كاترين تدير الأمر كله في رأسها وأحست كما لو كانت تخون الثقة. ولكن الكلمة البغيضة «جريمة قتل» ظلت تتردد في أذنيها حتى لم تعد تقوى على كتمان السر، إذ ربما توقف على ذلك الكثير، ولذا أخذت تردد بقدر ما تستطيع الحديث الذي دار بينها وبين القتيلة كلمة كلمة.

قال المحقق وهو ينظر إلى بوارو: هذا ممتع، أليس كذلك يا مسيو بوارو؟ سواء أكان لهذا الموضوع أية علاقة بالجريمة...

ولم يتم جملته. وتساءلت كاترين بصوت يحمل نبرة شك: أظن أن الأمر لا يمكن أن يكون انتحاراً؟

رد المفتش: لا، لا يمكن أن يكون انتحاراً فقد خُنقت بقطعة حبل سوداء اللون.

ارتعدت كاترين وصاحت: آه!

مدّ مسيو كو يديه معتذراً: إنه ليس شيئاً لطيفاً، وأعتقد أن لصوص قطاراتنا أشد وحشية مما تحسبين.

- هذا فظيع!

- نعم، نعم، ولكنك شجاعة يا آنسة، وبمجرد أن رأيتك قلت لنفسي: "إن الآنسة تمتاز بشجاعة فائقة"، ولهذا السبب سأطلب منك أن تقومي بعمل آخر، شيء محزن ولكني أؤكد لك أنه ضروري للغاية.

نظرت إليه كاترين نظرة ملؤها القلق والخوف فبسط يديه معتذراً وقال: سأطلب منك يا آنسة أن ترافقيني إلى المقصورة المجاورة.

وتساءلت كاترين بصوت خفيض: أهذا ضروري؟

فرد المفتش: يجب أن يتعرف عليها أحد، ولما كانت الوصيفة قد اختفت (وسعل بطريقة لها مغزاها) فيبدو أنك الإنسانة الوحيدة التي أمضت معها أطول وقت منذ أن استقلت القطار.

قالت كاترين بهدوء: لا بأس، إذا كان هذا ضرورياً.

ونهضت فأومأ إليها بوارو إيماءة خفيفة وقال: إن الآنسة عاقلة. هل تسمح لي بمرافقتكم يا مسيو كو؟

- بكل سرور يا عزيزي مسيو بوارو.

ومضوا إلى الممر وفتح مسيو كو باب مقصورة المرأة القتيلة. كان الشيش في الناحية الأخرى قد رُفع قليلاً إلى أعلى ليسمح بدخول بعض الضوء، وكانت السيدة القتيلة ترقد على السرير الأيسر بطريقة طبيعية للغاية حتى ليظن المرء أنها نائمة، وقد جذبت ملاءات السرير عليها واتجه رأسها إلى الحائط فلم يبد منه إلاّ خصلات شعرها الأحمر. وبرقّة متناهية وضع مسيو كو يده على كتفها وأدار رأسها حتى يبدو وجهها واضحاً، فجفلت كاترين وغرزت أظافرها في راحتيها؛ إذ كانت المرأة قد تلقت ضربة ثقيلة على وجهها شوّهت ملامحه حتى ليصعب التعرف عليه. وقال بوارو متسائلاً: متى حدث هذا؟ قبل موتها أو بعده؟

فقال مسيو كو: بل بعده كما قرر الطبيب.

عقد بوارو حاجبيه وقال: غريب. ثم التفت إلى كاترين وقال لها: تشجّعي يا آنسة، انظري إلى وجهها جيداً. هل أنت واثقة من أن هذه هي السيدة التي تحدثت إليها في القطار أمس؟

كانت أعصاب كاترين قوية فملكت زمام نفسها ونظرت طويلاً

إلى الجسد الساكن، ثم انحنت إلى الأمام وأمسكت بيد القتيلة، وأخيراً قالت: أنا واثقة تماماً؛ لقد تشوه الوجه لدرجة يصعب تمييزه ولكن الجسد والشعر هما تماماً، وأيضاً لاحظت هذه.

ثم أشارت إلى حسنة صغيرة على معصم القتيلة وأكملت عبارتها بقولها: لقد لاحظتها بينما كنت أتحدث إليها.

قال بوارو: حسناً، أنت شاهدة ممتازة يا آنسة ولم يعد هناك شك في الشخصية، ورغم ذلك فالأمر غريب.

وكشّر قليلاً وهو ينظر إلى القتيلة في حيرة، وهز مسيو كو كتفيه وقال: لا شك أن الحقد هو الدافع إلى هذه الجريمة.

فكر بوارو ثم قال: لو أنها ضربت بشدة ضربة أدت إلى قتلها لكان الأمر مفهوماً، ولكن الرجل الذي خنقها تسلل خلفها وغافلها ثم خنقها، ثم بعد ذلك هذه الضربة الهائلة على وجهها. لماذا؟ هل كان يأمل ألا يمكن التعرف عليها إذا شوه وجهها؟ أو هل يكرهها لدرجة أنه لم يستطع مقاومة الرغبة في لطمها حتى بعد أن ماتت؟

وارتعدت كاترين فالتفت إليها في الحال وقال بعطف: يجب ألا تدعي كلامي هذا يحزنك يا آنسة؛ قد يكون هذا جديداً عليك ومروعاً ولكن بالنسبة لي -للأسف- فهي قصة قديمة. أمهلاني لحظة لو سمحتما.

وقفا خلف الباب يرقبانه وهو يدور في المقصورة بسرعة، ولاحظ ملابس القتيلة وقد طويت بعناية عند نهاية السرير ومعطف الفراء الثمين وقد علق في مشجب والقبعة الصغيرة وقد علقت هي الأخرى، ثم عبر خلال الباب إلى المقصورة الملحقة حيث رأت كاترين الوصيفة من قبل وهي جالسة، وهنا لم يكن السرير قد أعد للنوم وتكومت ثلاث بطاطين على المقعد، كما كانت هناك أيضاً

علبة القبعات وحقيبتان. ثم استدار فجأة إلى كاترين وقال: لقد كنت هنا بالأمس، فهل ترين شيئاً قد تغير أو نقص؟

دارت كاترين ببصرها تفحص المقصورتين بدقة، ثم قالت: نعم، هناك شيء مفقود؛ علبة صغيرة حمراء عليها حروف «و.ف.ك»، قد تكون حقيبة ملابس صغيرة أو علبة مجوهرات كبيرة، وعندما رأيتها كانت الوصيفة ممسكة بها.

صاح بوارو: آه!

وقالت كاترين: ولكن بالتأكيد أنا... بالطبع أنا لا أفهم شيئاً في مثل هذه الأمور. ولكن بالتأكيد الأمر واضح تماماً، فإذا كانت الوصيفة وعلبة المجوهرات قد اختفتا...

- أتعنين أن الوصيفة هي السارقة؟ لا يا آنسة، هناك دليل قوي ضد هذا.

- ما هو؟

- لقد تخلفت الوصيفة في باريس.

ثم استدار إلى بوارو وقال: أود أن تستمع بنفسك إلى قصة المحصل. ثم تمتم بثقة: فقد تخرج منها بشيء.

فقال بوارو: لا شك أن الآنسة تود أن تسمعها أيضاً. ألديك اعتراض يا سيدي المفتش؟

قال المفتش الذي كان يبدو واضحاً أنه يعارض بشدة: لا، لا، بالتأكيد يا مسيو بوارو، ما دمت تقول هذا. هل انتهت من هنا؟

- أعتقد ذلك، دقيقة واحدة فقط.

كان يقلب البطاطين، ثم أخذ واحدة إلى النافذة ونظر إليها

والتقط شيئاً بأصابعه. وسأله مسيو كو بحدة: ما هذا؟

- أربع شعرات لونها أحمر.

ثم انحنى على القتيلة وأضاف: نعم، إنها من رأس السيدة.

- وماذا في ذلك؟ أتعلق أية أهمية عليها؟

ترك بوارو البطاطين تقع على المقعد وقال: إن ما هو هام وما هو غير هام لا يمكن أن يقرره المرء في هذه المرحلة، ولكن يجب أن نفحص كل شيء بمنتهى الدقة مهما كان صغيراً.

وعادوا أدراجهم إلى المقصورة الأولى، وبعد برهة دخل المحصل لاستجوابه فسأله المفتش: هل تدعى بيير ميشيل؟

- نعم يا سيدي المفتش.

- أود أن تعيد أمام هذا السيد القصة التي أخبرتني بها عما حدث في باريس.

- حسناً يا سيدي المفتش. كان ذلك بعد أن غادرنا محطة ليون؛ دخلت لأعد الأسرّة ظاناً أن السيدة ستكون وقتئذ تتناول العشاء، ولكني وجدت عشاءها في المقصورة وأخبرتني أنها اضطرت إلى ترك وصيفتها في باريس وأن ما عليّ ألا أرتب سريراً واحداً. ثم حملت عشاءها إلى المقصورة الملحقة وجلست هناك بينما أنا أعد السرير، ثم أخبرتني بأنها لا ترغب في الاستيقاظ مبكراً في الصباح وإنما تفضّل أن تواصل نومها، فقلت لها إنني أفهم تماماً، وتمنت لي ليلة سعيدة.

- ولكن أنت نفسك لم تدخل إلى المقصورة الملحقة؟

- لا يا سيدي.

- إذن فلم يُقدّر لك أن تلحظ ما إذا كانت هناك علبة قرمزية ضمن الحقائب أم لا؟

- لا يا سيدي، لم تتح لي الفرصة.

- أكان من الممكن لأي شخص أن يختفي في المقصورة الملحقة؟

وفكر المحصل ثم قال: لقد كان الباب نصف مفتوح، ولو وقف رجلٌ خلفه لما استطعت أن أراه، ولكن من المؤكد أنه يكون ظاهراً أمام السيدة عندما دخلت هناك.

قال بوارو: تماماً. ألديك شيء آخر تقوله لنا؟

- أعتقد أن هذا كل شيء يا سيدي؛ فلا أستطيع أن أتذكر شيئاً آخر.

فقال بوارو: وماذا حدث هذا الصباح؟

- كما أمرتني السيدة، لم أزعجها، وعندما كنا على وشك الوصول إلى كان تجرأت وطرقت الباب، ولم أتلق رداً ففتحته. وبدت السيدة كما لو كانت نائمة في سريرها فأمسكت بكتفها لأوقظها، وعندئذ...

تطوع بوارو بقوله: وعندئذ رأيت ما حدث. حسن جداً، أعتقد أنني عرفت كل ما أريد معرفته.

قال الرجل يتوسل: سيدي المفتش، إنني لم أهمل في عملي أبداً، ولكن أن يحدث مثل هذا في القطار الأزرق، فهذا فظيع.

فرد المفتش: خفف عنك فلا أظن أنك متهم بأي إهمال.

- وهل سيبلغ سيدي المفتش الشركة برأيه هذا؟

فقال مسيو كو بصبر نافذ: بالتأكيد، بالتأكيد. هذا يكفي الآن.

وانسحب المحصل فقال المفتش: طبقاً للتقرير الطبي فالمحتمل أن السيدة قد توفيت قبل أن يصل القطار إلى ليون، ومن القصة التي روتها الآنسة يبدو أنها كانت ستلتقي بهذا الرجل الذي تحدثت عنه في مكان ما، ويبدو تخلصها من الوصيفة ذا مغزى، فهل صعد الرجل إلى القطار في باريس؟ وهل أخفته في المقصورة الملحقة؟ لو كان الأمر كذلك فربما كانا قد تشاجرا فقتلها في سورة غضب. هذا احتمال، أما الاحتمال الثاني فهو أنه قد سافر على نفس القطار ثم تسلل إلى الممر دون أن يراه المحصل فقتلها وهرب ومعه العلبة الحمراء التي لا شك أنها كانت تحتوي على مجوهرات ذات قيمة. وفي كل الاحتمالات يكون قد غادر القطار في ليون، وقد أبرقنا إلى المحطة ليوافونا بكل التفاصيل عن أي فرد يكون قد غادر القطار.

قال بوارو: وربما يكون قد واصل الرحلة حتى نيس.

- ربما، لكن هذه خطوة في غاية الجرأة.

وصمت بوارو برهة ثم قال: في الحالة الثانية، أتظن أن الرجل من لصوص القطارات العاديين؟

فهز المفتش رأسه وقال: هذا يتوقف. يجب أن نقبض على الوصيفة فمن المحتمل أن تكون العلبة الحمراء معها، وإذا كان الأمر كذلك فإن الرجل الذي تحدثت عنه القتيلة للآنسة تكون له علاقة بالجريمة وتصبح جريمة عاطفية. وأنا نفسي أميل إلى تصديق مسألة لص القطار، فقد أصبح هؤلاء اللصوص في غاية الجرأة في الفترة الأخيرة.

وفجأة نظر بوارو إلى كاترين وقال لها: وأنت يا آنسة، ألم

تسمعي أو ترى شيئاً غير عادي أثناء الليل؟

فردت كاترين بقولها: لا شيء.

والتفت بوارو إلى المفتش قائلاً: أعتقد أنه لا حاجة بنا إلى تعطيل الآنسة أكثر من ذلك.

فأومأ الآخر برأسه وقال: هل تترك لنا عنوانها؟

فأعطته كاترين اسم فيلا ليدي تامبلين، وانحنى بوارو لها وسألها: أتسمحين بأن أراك مرة أخرى يا آنسة أم أن لديك الكثير من الأصدقاء يشغلون وقتك؟

فردت كاترين: بالعكس، سيكون لديّ فراغ كبير وسيسرني كثيراً أن أراك مرة أخرى.

فقال بوارو: هذا رائع. ثم أومأ برأسه إيماءة ودية وقال: ستكون هذه رواية بوليسية بالنسبة لنا وسندرسها سوياً.

* * *

الفصل الثامن

صاحت الليدي تامبلين بحسد: إذن فقد عشت فعلاً وسط الأحداث؟ يا له من أمر مثير يا عزيزتي!

فتحت عينيها الواسعتين الزرقاوين عن آخرهما وزفرت زفرة قصيرة، وقال السيد إيفانز بشغف: حادث قتل حقيقي!

استطردت الليدي تامبلين: وبالطبع لم يكن لدى تشابي أدنى فكرة عن هذا، فهو ببساطة لم يكن يتصور لماذا كانت الشرطة تريدك. يا لها من فرصة! يا عزيزتي، أظن... نعم، بكل تأكيد، يمكنك أن تخرجي من هذا الحادث بشيء.

وبدت نظرة ذات مغزى عكرت صفاء العينين الزرقاوين. وأحست كاترين ببعض الضيق. كانوا قد أوشكوا على الانتهاء من الغداء ومضت تنقل بصرها بين الثلاثة الجالسين إلى المائدة، الليدي تامبلين وقد امتلأ رأسها بالمشروعات، والسيد إيفانز وقد بدا على وجهه الإعجاب الساذج، ولينوكس وقد تلاعبت ابتسامة خبيثة على شفتيها.

وتمتم تشابي: يا له من حظ مدهش! لكم أتمنى لو أنني كنت معك ورأيت كل شيء.

وبدت نبرة صوته وفيها لهفة وطفولية. ولم تقل كاترين شيئاً. إن الشرطة لم تصدر إليها أية تعليمات بالاحتفاظ بالأمر سراً، وكان يبدو مستحيلاً أن تحجب الحقائق المجردة أو تخفيها عن مضيفتها، ولكنها تمنت لو أنها استطاعت أن تفعل ذلك.

وصحت ليدي تامبلين فجأة من أحلامها وقالت: نعم، أعتقد ذلك؛ تستطيعين عمل شيء، قصة قصيرة مثلاً تكتب بأسلوب رشيق، شاهدة عيان، لمسة أنثوية، كيف تجاذبتِ الحديث مع القتيلة... شيء من هذا القبيل.

صاحت لينوكس: كلام فارغ.

قالت الليدي تامبلين بصوت ناعم كله لهفة: لن تتصوري المبالغ التي تدفعها لك الصحف نظير ذلك، وبالطبع يصبح كاتبها شخصاً مرموقاً. أعتقد أنك لن تحبي كتابتها بنفسك يا عزيزتي كاترين، ولكن فقط أخبريني بالنقاط الرئيسية في الموضوع وسأتولى أنا الأمر كله نيابة عنك، فإن مسيو دي هافيلاند صديق لي ويمكننا التفاهم معاً، وهو رجل رائع. ما رأيك بالفكرة يا كاترين؟

ردّت كاترين بلهجة قاطعة: أفضّل ألاّ أفعل شيئاً مثل هذا.

لكن بدت الليدي تامبلين غير عابئة بهذا الرفض، فتنهدت ودخلت في تفصيلات الموضوع: كانت امرأة شكلها جذاب، أليس كذلك؟ ترى من كانت؟ ألم تسمعي اسمها؟

وقالت كاترين: لقد سمعته ولكنني لا أستطيع أن أتذكره، فقد كنت مهمومة.

وقال السيد إيفانز: أعتقد ذلك، لا بد أن الصدمة كانت شديدة.

ومن المشكوك فيه أن كاترين كانت ستفضي بالاسم حتى لو كانت تذكره، وقد جعلها الاستجواب الذي كانت تقوم به الليدي تامبلين قلقة نوعاً. وقد لاحظت لينوكس ذلك فعرضت أن تصحب كاترين إلى الدور العلوي لترى غرفتها، ثم تركتها هناك بعد أن قالت: لا تهتمي بما قالته أمي، فلو أتيحت لها فرصة كسب بعض المال من أمها هي شخصياً حتى وهي على فراش الموت لما ترددت.

وعادت لينوكس مرة أخرى لتجد أمها وزوج أمها يناقشان موضوع الضيفة الجديدة. قالت الليدي تامبلين: أن شكلها لطيف تماماً وملابسها لا غبار عليها.

قال السيد إيفانز: هل لاحظت عينيها؟

وردت ليدي تامبلين بلهجة لاذعة: دعك من عينيها فنحن نناقش أشياء مهمة فعلاً.

قال السيد إيفانز: آه، فعلاً.

واستطردت الليدي تامبلين تقول وهي تنتقي كلماتها: إنها تبدو صعبة المراس.

قالت لينوكس وهي تبتسم: إنها تملك كل مكونات السيدة الراقية كما يقولون في الكتب.

فردت ليدي تامبلين: إنها ضيقة الأفق، ولكن أظن أن الظروف هي التي تدفعها إلى ذلك.

- أعتقد أنك ستبذلين قصارى جهدك لتوسيع مداركها، ولكنها لن تمنحك الفرصة لذلك، فكما ترين الآن لقد أصمت أذنيها عن كل شيء ورفضت الحديث.

قالت الليدي تامبلين: على أية حال إنها لا تبدو في نظري بخيلة، فبعض الناس الحديثي العهد بالمال يحرصون عليه.

ردت لينوكس: آه، تستطيعين أن تطلبي منها ما تريدين، فهذا هو المهم، أليس كذلك؟ هذا هو سبب مجيئها.

وبكبرياء قالت الليدي تامبلين: إنها ابنة عمي.

فخرج السيد إيفانز من صمته بقوله: ابنة عمك؟ أظن أنه يمكنني إذن أن أناديها باسمها، كاترين؟

فردت الليدي تامبلين: لا يهم أبداً بماذا تناديها.

قال السيد إيفانز: هذا جميل، إذن سأفعل. ثم أضاف بلهجة كلها أمل: أتظنين أنها تلعب التنس؟

ردت الليدي تامبلين: بالطبع لا، لقد كانت مرافقة كما أخبرتك، والمرافقات لا يلعبن التنس أو الجولف. قد يلعبن الكروكيه، ولكني أعلم أنهن يغزلن الصوف ويقمن بتنظيف الكلاب أغلب الوقت.

صاح السيد إيفانز: يا إلهي! أيفعلن ذلك حقاً؟

وصعدت لينوكس إلى الدور العلوي حيث غرفة كاترين، وقالت بلا اكتراث: هل أستطيع أن أقدم لك أية مساعدة؟

وعندما أجابت كاترين بالرفض جلست لينوكس على حافة السرير ومضت تنظر بتفكير إلى ضيفتها، ثم سألتها: لماذا حضرت؟ أعني: إلينا؛ نحن لسنا على شاكلتك.

- آه، إنني أود أن أختلط بالمجتمع.

فردت لينوكس من فورها وهي تلمح شبح ابتسامة على شفتي

الأخرى: لا تكوني غبية، أنت تدركين ما أعنيه تماماً. أنت لست كما كنت أظنك أبداً، لقد أحببتك ولذلك جئت إليك لأحذّرك من الوقوع تحت تأثير أمي. لكن ربما لا داعي لذلك فأنت مخلصة وصريحة ولكنك لست مغفلة. آه، يا للجحيم!

- ماذا هناك الآن؟

كانت الليدي تامبلين تنادي من الصالة: لينوكس، لقد اتصل ديرك بالتليفون الآن وهو يرغب في الحضور إلى العشاء الليلة، ما رأيك؟

قالت لينوكس تخاطب كاترين ووجهها يبدو أكثر إشراقاً وأقل عبوساً: أنا سعيدة لحضور ديرك، سيعجبك.

- من هو ديرك؟

- إنه ابن اللورد ليكونبري، وقد تزوج سيدة أمريكية ثرية. إن النساء مفتونات به.

- لماذا؟

- السبب المعتاد؛ فهو وسيم للغاية ومستهتر، وكلهن مجنونات به.

- وأنت؟ أمجنونة به أنت أيضاً؟

فأجابت لينوكس: أحياناً، وأحياناً أخرى أفضّل أن أتزوج قسيساً لطيفاً وأعيش في الريف. ثم توقفت برهة وأضافت: لو كان قساً إيرلندياً لكان أفضل، فعندئذٍ ستتاح لي الفرصة للخروج للصيد.

وبعد فترة عادت إلى موضوع الحديث الأصلي فقالت: هناك شيء غريب في ديرك، فكل أسرته بهم مسٌّ من الجنون. إنهم

مجانين مقامرة، ففي الأيام الخوالي كان من عادتهم أن يقامروا بزوجاتهم وضياعهم، وكانوا يقومون بأعمال كثيرة جنونية لمجرد المتعة. ولعل ديرك كان يصلح ليكون قاطع طريق، فهو دائماً سعيد ومرح.

واتجهت ناحية الباب وقالت: عندما تشعرين بالرغبة في النزول فلتفعلي.

وتركت كاترين العنان لأفكارها إذ أصبحت وحيدة. في الوقت الحالي كانت تشعر بالارتباك وبأن كل ما حولها يعكر صفو هدوئها، فالصدمة التي باغتتها في القطار وكيفية تقبل أصدقائها الجدد للخبر قد جرحت إحساسها المرهف. وفكرت طويلاً في القتيلة؛ لكم أسفت من أجلها، ولكنها لا تستطيع أن تقول بأمانة إنها قد أحبتها. لقد أدركت الأنانية البغيضة التي كانت هي مفتاح شخصية القتيلة والتي سيطرت عليها تماماً.

لقد جرحتها قليلاً الطريقة التي تخلصت بها القتيلة منها عندما استنفذت أغراضها. وكانت كاترين واثقة من أن القتيلة قد اتخذت قراراً ولكنها كانت تتساءل الآن ما هو هذا القرار. وأياً كان فقد تدخل الموت فأصبحت كل القرارات بلا معنى ولا فائدة. إنه لغريب أن تمضي الأمور في هذا الطريق وأن تضع جريمة وحشية نهاية لرحلة القدر هذه. وفجأة تذكرت كاترين واقعة بسيطة ربما كان من الواجب أن تخبر بها الشرطة، واقعة كانت قد نسيتها. ترى هل لها أهمية؟ من المؤكد أنها رأت رجلاً يدخل تلك المقصورة بالذات. وأدركت أنها قد تكون مخطئة، فربما يكون قد دخل المقصورة المجاورة، ولكن من المؤكد أن هذا الرجل لا يمكن أن يكون لص قطارات، وهي تذكره بوضوح تام إذ قد رأته مرتين من قبل، مرة في فندق سافوي والأخرى في مكتب كوك للسياحة.

كلا، لاشك أنها قد أخطأت إذ أنه لم يدخل مقصورة القتيلة، وربما كان من الأفضل أنها لم تخبر الشرطة بأي شيء، إذ ربما تسبب ذلك في أذى لا تدري مداه بالنسبة له.

ونزلت كاترين إلى الطابق الأول ثم لحقت بالآخرين في الشرفة الخارجية، ومن خلال فروع الميموزا نظرت إلى زرقة المياه في البحر الأبيض المتوسط. وبينما تطرقت إلى أذنها ثرثرة الليدي تامبلين كانت تشعر بالسعادة لحضورها إلى هذا المكان، فقد كان أفضل من سانت ماري ميد.

وفي ذلك المساء ارتدت الفستان الوردي، وبعد أن ابتسمت لنفسها في المرآة هبطت يخالجها -لأول مرة في حياتها- إحساس بسيط بالخجل. وكان أغلب ضيوف الليدي تامبلين قد وصلوا، وكانت حفلاتها تتميز بالصخب ولذا كان الطنين مزعجاً، وأسرع تشابي إلى كاترين فقدم لها شراباً وبقي إلى جوارها.

وصاحت الليدي تامبلين عندما فتح الباب ليدخل منه آخر ضيوفها: ها أنت ذا يا ديرك؟ الآن نستطيع أن نتناول الطعام فإنني أكاد أموت جوعاً.

ونظرت كاترين عبر الغرفة فأذهلتها المفاجأة؛ إذن فهذا هو ديرك؟ وأدركت أنها لم تدهش لرؤيته فقد كانت تعلم أنها ستلتقي يوماً بالرجل الذي جمعتها به الصدفة ثلاث مرات متتاليات. ويبدو أنه قد تعرف عليها، إذ توقف فجأة عن حديثه مع الليدي تامبلين ثم واصله مرة أخرى ببعض العناء.

ودخلوا جميعاً لتناول العشاء، ووجدته كاترين يجلس إلى جوارها، ثم استدار نحوها بابتسامة كلها حيوية وقال: كنت أعلم أنني سألتقي بك، ولكني لم أحلم أبداً أننا سنلتقي هنا. كان لا بد

أن نلتقي. لقد تقابلنا في السافوي وتقابلنا مرة ثانية في مكتب كوك، وكان لا بد أن نلتقي للمرة الثالثة. لا تقولي إنك لا تذكرينني أو إنك لم تلاحظيني، فأنا مصمم على أنك قد لاحظت وجودي.

قالت كاترين: فعلاً، ولكن هذه ليست المرة الثالثة. إنها الرابعة؛ إذ قد رأيتك في القطار الأزرق.

- في القطار الأزرق؟!

طرأ على سلوكه شيء لم تستطع تحديده، لم تستطع أن تقول ما هو... كان كمن تلقّى صدمة، ثم عاد يقول بلا اكتراث: ترى ما سبب الضجة التي حدثت هذا الصباح؟ هل مات أحد؟

قالت كاترين بهدوء: نعم.

فقال ديرك بطيش: يجب ألا يموت الإنسان وهو يستقل القطار. أعتقد أن هذا يسبب الكثير من التعقيدات، سواء من الناحية القانونية أو الدولية، ثم إنه يكون سبباً لتأخير القطار أكثر من المعتاد.

- سيد كترنج؟

انحنت سيدة أمريكية ممتلئة كانت تجلس في مواجهته إلى الأمام ونادته، ثم استطردت تقول: سيد كترنج، أعتقد أنك قد نسيتني، وأنا التي أعتقد أنك شخص رائع تماماً.

وانحنى ديرك وهو يجيبها بينما جلست كاترين مذهولة. كترنج! هذا هو الاسم، لقد تذكرته الآن. ولكن يا له من موقف غريب حافل بالسخرية! فهذا هو الرجل الذي رأته يدخل مقصورة زوجته في الليلة الماضية، ثم غادرها وما زالت الحياة تدب فيها وهي في أتم صحة، والآن يجلس إلى العشاء لا يدري شيئاً عن

المصير الذي لقيته. لا شك في هذا، لم يكن يعرف شيئاً.

وكان أحد الخدم يميل على ديرك وهو يسلمه ورقة ويهمس في أذنه شيئاً. وفضّ الرسالة وبدا على وجهه تعبير من الدهشة البالغة وهو يقرأ، ثم نظر إلى مضيفته وقال: هذا شيء في غاية الغرابة، يؤسفني يا سيدتي أنني مضطر إلى الانصراف، إذ أن رئيس البوليس يريد أن يقابلني في الحال، ولا أدري لمَ يريدني.

قالت لينوكس: لقد نمت عنك خطاياك.

قال ديرك: يبدو أن هذا صحيح. لا بد وأن السبب مسألة سخيفة، وعلى أية حال يجب أن أسرع إلى رئاسة البوليس. كيف يجرؤ على استدعائي وأنا مدعو على العشاء؟ يجب أن يكون أمراً بالغ الأهمية هذا الذي دعاه إلى هذا التصرف.

وضحك، ثم دفع بكرسيه إلى الوراء ونهض ليغادر الغرفة.

* * *

الفصل التاسع

في الخامس عشر من شهر فبراير كان الضباب الأصفر الكثيف يغطي لندن، وكان روفوس فان أولدين يجلس في جناحه بفندق سافوي يعمل بكل طاقته منتهزاً فرصة سوء الأحوال الجوية. وكان نايتون بادي السرور، إذ أنه في الفترة الأخيرة كان يلقى صعوبة كبيرة في دفع فان أولدين إلى العمل وكلما قدم إليه بعض الأوراق رده عنه بكلمات مقتضبة، ولكن الآن كان يبدو فان أولدين وكأنه قد ألقى بنفسه في أتون العمل. وانتهز السكرتير الفرصة وكان لبقاً، فلم يشعر فان أولدين أنه يدفعه دفعاً إليه.

ولكن رغم استغراقه في عمله فإن شيئاً ما كان يقلقه؛ كانت ملاحظة عابرة قد ألقاها نايتون بلا وعي قد أثارت ما بنفسه فظلت الهواجس تلح عليه حتى فرضت نفسها عليه فرضاً. وأنصت إلى ما كان يقوله نايتون باهتمام ظاهر وأومأ برأسه بطريقة آلية وإن لم تنفذ كلمة واحدة منه إلى عقله. ثم عاد السكرتير إلى أوراقه يفرزها فقال فان أولدين: نايتون، هل لك أن تعيد ذلك عليّ مرة أخرى؟

فأمسك نايتون بتقرير إحدى الشركات بيده وقال: أتعني هذا يا سيدي؟

- لا، لا؛ وإنما أعني ما قلته لي عن لقائك بوصيفة روث

في باريس الليلة الماضية، فأنا لا أستطيع أن أفهم ما حدث. لا بد وأنك قد أخطأت.

- لا يمكن أن أكون قد أخطأت يا سيدي، لقد تحدثت إليها فعلاً.

- حسناً، فلتقل لي ما حدث مرة أخرى.

قال نايتون: كنت قد أنهيت الاتفاق مع برثيمرز وعدت إلى فندق ريتز لأجمع حاجياتي تمهيداً لتناول العشاء قبل أن ألحق بقطار الساعة التاسعة من محطة الشمال، وفي مكتب الاستقبال رأيت امرأة كنت واثقاً من أنها وصيفة السيدة كترنج، فذهبت إليها وسألتها ما إذا كانت السيدة كترنج تنزل هناك.

فرد فان أولدين: نعم، نعم، بالطبع؛ وعندئذ أخبرتك الوصيفة بأن روث قد مضت إلى الريفيرا وأنها قد بعثت بها إلى فندق ريتز في انتظار أوامر أخرى.

- هذا هو ما قالته بالضبط.

- إنه أمر في غاية الغرابة، في غاية الغرابة فعلاً... إلاّ إذا كانت وقاحة المرأة هي التي دفعت روث إلى تركها في باريس.

- في هذه الحالة من المؤكد أن السيدة كترنج تكون قد منحتها بعض النقود وطلبت منها العودة إلى إنجلترا، لا أن تبعث بها لتنزل في الريتز.

- نعم، هذا صحيح.

كان على وشك أن يقول شيئاً آخر، لكنه سكت. كان يحب نايتون ويثق به، ولكنه لم يكن يستطيع مناقشة شؤون ابنته الخاصة مع سكرتيره. لقد شعر بالألم لأن روث لم تصارحه، ولكن هذه

المعلومات التي نمت إليه بالصدفة لم تزد الأمر إيضاحاً. لماذا تخلصت روث من وصيفتها في باريس؟ ما الدافع الذي حدا بها لأن تفعل هذا؟ وفكر برهة في الصدفة الغريبة: هل كان يخطر ببال روث أن أول شخص ستلتقي به وصيفتها في باريس هو سكرتير والدها؟ ولكن هكذا تسير الأمور وينكشف كل شيء.

وأزعجته العبارة الأخيرة. لقد وردت إلى ذهنه بطريقة طبيعية، لكن -يا ترى- هل كان هناك شيء «يمكن أن يكتشف»؟ كان يكره أن يسأل نفسه هذا السؤال، فالإجابة التي لا شك فيها هي أن أرماند دي لاروش يقف وراء هذا التصرف. كان شعوراً مريراً ذلك الذي أحسه فان أولدين؛ أن تقع ابنته فريسة لهذا الرجل. ورغم ذلك فلم يسعه إلاّ أن يعترف بأن ابنته كانت في رفقة طيبة وأن غيرها من النساء الذكيات ذوات المكانة الرفيعة قد وقعن أسيرات سحره. كان في استطاعة الرجال أن يفهموه على حقيقته أما النساء فلم يستطعن.

وأخذ يبحث الآن عن عبارة تزيل أي شك يكون سكرتيره قد شعر به، فقال: إن روث تغير رأيها متى يحلو لها. ثم أضاف في نبرة حاول ألا تحمل أي اهتمام: ألم تعطك الوصيفة أي سبب لهذا التغيير في خطة سيدتها؟

كان نايتون حريصاً على أن يبدو صوته طبيعياً وهو يقول: لقد قالت يا سيدي إن السيدة كترنج قد التقت مصادفة بشخص تربطها به صلة صداقة.

واستطاع السكرتير أن يتبين نبرة القلق التي تبدو مغلفة بالهدوء، إذا قال فان أولدين: آه، أهو رجل أم سيدة؟

- أعتقد أنها قالت إنه رجل يا سيدي.

وأومأ فان أولدين برأسه؛ لقد تحققت مخاوفه. نهض من مقعده وشرع يذرع الغرفة، وهي عادة كانت تلازمه عندما يستبد به القلق. وحين عجز عن كتمان مشاعره أكثر من ذلك انفجر قائلاً: هناك شيء واحد لا يستطيع أي رجل أن يفعله، وهو أن يقنع امرأة بأن تسمع صوت العقل! يبدو أنه ليس لديهن أي قدر من الإدراك. لنتكلم عن غريزة المرأة، إن المعروف في جميع أنحاء العالم أن المرأة هي الهدف الذي لا يخيب بالنسبة لأي أفّاق، فلا تستطيع الواحدة منهن أن تدرك أن من تلتقي به وغد، بل يمكن أن يخدعها أي رجل وسيم بكلامه المعسول. ولو كان الأمر بيدي...

وقاطعه دخول خادم يحمل برقية، ففضها فان أولدين وقرأها. ولم يلبث أن غاض الدم من وجهه واستند إلى ظهر مقعد حتى يتمالك نفسه من السقوط، ثم أشار إلى الخادم ليغادر الغرفة.

- ماذا حدث يا سيدي؟

قال فان أولدين بصوت مبحوح: روث...

- السيدة كترنج؟

- لقد ماتت!

- في حادث قطار؟

فهز فان أولدين رأسه بالنفي وقال: لا، يبدو من هذه البرقية أنها قد نُشلت أيضاً. إنهم لا يقولونها صراحة يا نايتون ولكن ابنتي المسكينة قد قتلت!

- يا إلهي! يا سيدي.

ونقر فان أولدين البرقية بسبابته وقال: هذه البرقية من الشرطة في نيس. يجب أن أستقل أول قطار إلى هناك.

وكالعادة كان نايتون الرجل الكفء. نظر إلى الساعة ثم قال: قطار الساعة الخامسة من محطة فكتوريا يا سيدي.

ثم رن جرس التليفون بحدة، ورفع السكرتير السماعة: نعم، من المتحدث؟

ثم قال للسيد فان أولدين: إنه السيد جوبي يا سيدي.

- جوبي؟ لا أستطيع أن أقابله الآن. لا، انتظر، ما زال لدينا وقت؛ ليصعد إلى هنا.

كان فان أولدين رجلاً قوياً، وفي الحال استعاد هدوءه، ولم يكن أحد ليلحظ شيئاً في تحيته للسيد جوبي: إنا مستعجل يا جوبي. ألديك شيء هام تخبرني به؟

سعل السيد جوبي وقال: لقد غادر السيد كترنج لندن يا سيدي صباح أمس في طريقه إلى الريفيرا.

هتف السيد فان أولدين: إلى الريفيرا؟!

ويبدو أن شيئاً ما في صوته قد أفزع السيد جوبي، فتخلى لأول مرة عن عادة عدم النظر إلى محدثه ورمق المليونير بنظرة سريعة. وسأله فان أولدين: وبأي قطار سافر؟

- بالقطار الأزرق يا سيدي.

وسعل السيد جوبي مرة أخرى ثم قال موجهاً حديثه إلى الساعة الموضوعة على المدفأة: وقد كانت معه في نفس القطار الآنسة ميراي، الراقصة في البارثنيون.

* * *

الفصل العاشر

– لا أستطيع أن أعبّر لك يا سيدي عن الأسى والعطف العميق الذي نشعر به من أجلك.

هكذا بدأ المسيو كاريج قاضي التحقيق حديثه مع فان أولدين، وأبدى مسيو كو مشاركته له، فرد فان أولدين على هذه المشاعر بإشارة من يده. وكان هذا المشهد كله في حجرة تحقيق في نيس، وبالإضافة إلى كاريج ومفتش المباحث وفان أولدين كان هناك شخص آخر في الغرفة، وتحدث هذا الشخص قائلاً: إن مسيو فان أولدين يريد عملاً، عملاً سريعاً.

فصاح المفتش: آه، إنني لم أقدمك بعد. مسيو فان أولدين، هذا هو مسيو هيركيول بوارو، لا شك أنك قد سمعت عنه. وبالرغم من أنه قد اعتزل العمل منذ بضع سنوات إلاّ أن اسمه ما زال ملء الأسماع كواحد من أعظم المخبرين الآن.

قال فان أولدين بطريقة آلية: يسعدني أن ألقاك يا مسيو بوارو، هل اعتزلت مهنتك؟

– هذا صحيح يا سيدي، وأنا الآن استمتع بالدنيا.

وأوضح المفتش الأمر بقوله: لقد تصادف أن السيد بوارو كان على نفس القطار، وكان لطيفاً منه أن يعرض علينا مساعدته.

ونظر المليونير إلى بوارو نظرة فاحصة ثم قال فجأة: إنني رجل ثري للغاية يا مسيو بوارو، وقد اعتاد الناس أن يقولوا إن الإنسان الغني يعمل بعقيدة واحدة وهي أنه يستطيع أن يشتري كل شيء، ولكن هذا غير صحيح. إنني رجل بارز في عملي، ويستطيع الرجل البارز في عمله أن يطلب معروفاً من رجل آخر بارز مثله.

فأومأ بوارو برأسه تعبيراً عن إعجابه وقال: لقد أحسنت قولاً يا مسيو فان أولدين، وأنا أضع نفسي في خدمتك تماماً.

فرد فان أولدين: شكراً، وإذا احتجت إليّ في أي وقت فستجدني عارفاً بالجميل. والآن هيا إلى العمل أيها السادة.

قال مسيو كاريج: أقترح أن نستجوب الوصيفة آدا ميسون، وهي موجودة هنا.

فرد فان أولدين: نعم، فقد أتينا بها من باريس عند مرورنا بها. وقد انزعجت لموت سيدتها، ولكنها تروي قصة محبوكة تماماً.

قال مسيو كاريج: فلتدخل إذن.

ودق الجرس الموضوع على مكتبه، وبعد لحظات دخلت آدا ميسون. كانت ملابسها السوداء في غاية الأناقة، وكان طرف أنفها محمراً، وكانت قد استبدلت قفازها الرمادي بآخر من الشامواه الأسود. وألقت نظرة قلقة حول الغرفة، ولكن يبدو أن حضور والد سيدتها قد بعث بالطمأنينة إلى نفسها. وكان المحقق يفخر بطريقته الودودة في الكلام فحاول جاهداً أن يهدئ من روعها، وساعده في ذلك بوارو الذي كان يقوم بدور المترجم والذي كان لطريقته الفضل في تهدئة السيدة الإنجليزية.

- اسمك آدا ميسون، أليس كذلك؟

- آدا بياتريس، كما في شهادة الميلاد يا سيدي.

- بالضبط، وقد فهمنا أن ما حدث كان محزناً بالنسبة لك.

- بالطبع يا سيدي؛ لقد عملت مع سيدات كثيرات كن راضيات عن عملي، ولكني لم أكن لأحلم أبداً بأن... يحدث ما حدث في أي مكان أعمل فيه.

قال مسيو كاريج: طبعاً.

- من الطبيعي أنني قرأت مثل هذه القصص في صحف يوم الأحد، وكنت أدرك أن هذه القطارات الأجنبية...

وأمسكت فجأة وقد تذكرت أن الرجال الذين يتحدثون معها هم أيضاً فرنسيون. وقال مسيو كاريج: والآن، لنبحث هذا الموضوع معاً. كما فهمت، لم تكن هناك أية فكرة لبقائك في باريس حين بدأت الرحلة من لندن؟

- آه، نعم يا سيدي. لقد كان علينا أن نمضي إلى نيس رأساً.

- وهل سبق أن سافرت مع سيدتك إلى الخارج؟

- لا يا سيدي. أنا لم أعمل معها إلاّ منذ شهرين فقط.

- وهل كانت في حالتها الطبيعية عندما بدأت الرحلة؟

- لقد كانت تبدو مشغولة قلقة من الصعب إرضاؤها.

فأومأ مسيو كاريج برأسه ثم قال: والآن يا آنسة ميسون، ماذا سمعت حين توقفت في باريس؟

- كان ذلك في المكان الذي يسمونه محطة ليون يا سيدي. كانت سيدتي تفكر في مغادرة القطار والسير قليلاً على الرصيف، وكانت على وشك الخروج إلى الممر حين أطلقت صيحة دهشة، ثم عادت إلى مقصورتها ومعها رجل، وأغلقت الباب بين مقصورتها

وبيني فلم أسمع ولم أر شيئاً حتى فتحته فجأة. ثم أخبرتني أنها قد غيرت خططها، وأعطتني بعض النقود وطلبت مني أن أغادر القطار وأن أذهب إلى الريتز. وكانوا يعرفونها جيداً هناك -كما قالت- وسيخصصون لي غرفة، وكان عليّ أن أنتظر هناك حتى تصلني تعليمات منها، كانت ستبرق لي بما تريدني أن أفعله. وجمعت أشيائي بسرعة وقفزت من القطار في الوقت المناسب.

- وأين كان الرجل عندما قالت لك السيدة كترنج ذلك؟

- كان يقف في المقصورة المجاورة وينظر من النافذة.

- هل تستطيعين وصفه لنا؟

- لم أتبينه تماماً يا سيدي فقد كان مولياً ظهره لنا أغلب الوقت. كل ما أستطيع أن أقوله أنه كان رجلاً طويلاً أسمر، وكان يرتدي معطفاً كحلياً وقبعة رمادية اللون.

- وهل كان واحداً من ركاب القطار؟

- لا أظن يا سيدي. لقد فهمت أنه جاء إلى المحطة ليلتقي بالسيدة كترنج عند مرور القطار بالمدينة، وبالطبع من الممكن أن يكون واحداً من ركاب القطار وإن لم تخطر الفكرة لي أبداً.

وبدا على ميسون أن هذا الخاطر قد أفزعها قليلاً. ثم انتقل كاريج إلى موضوع آخر: لقد طلبت سيدتك من المحصل فيما بعد ألا يوقظها مبكراً في الصباح، فهل كان هذا التصرف عادياً منها؟

- نعم يا سيدي، فإن سيدتي لم يكن من عادتها أن تفطر ولم تكن تنعم بالنوم ليلاً، ولذلك كانت تحب أن تتأخر قليلاً في نومها صباحاً.

ومرة أخرى انتقل مسيو كاريج إلى موضوع آخر: كان من بين

حقائب سيدتك علبة قرمزية اللون، أليس كذلك؟ هل هي علبة المجوهرات الخاصة بسيدتك؟

- نعم، يا سيدي.

- وهل أخذتها معك إلى الريتز؟

- أنا آخذ علبة مجوهرات سيدتي إلى الريتز؟ أوه، لا، أبداً يا سيدي.

وبدا الهلع في نبراتها، فسألها: إذن فقد تركتها في العربة؟

- نعم يا سيدي.

- وهل كان مع سيدتك مجوهرات كثيرة؟

- كمية لا بأس بها يا سيدي، تسببت في إحساسي بالقلق في بعض الأحيان مع الحكايات المزعجة عن سرقة الناس في بلاد غريبة. كان مؤمّناً عليها، ولكن رغم ذلك كانت مخاطرة كبيرة. لقد كانت أحجار الياقوت وحدها تقدر ببضع مئات من ألوف الجنيهات كما أخبرتني السيدة.

وفجأة صاح فان أولدين: الياقوت؟! أي ياقوت؟

فالتفتت إليه ميسون وقالت: أعتقد أنك أنت الذي أهديته لها منذ وقت قريب يا سيدي.

صاح فان أولدين: يا إلهي! أتقولين حقاً أنها أخذت أحجار الياقوت معها؟ لقد طلبت منها أن تتركها في البنك.

ومرة أخرى سعلت بخفة، وقد أفصحت بذلك عن الكثير، فقد أوضحت أكثر من أي كلمات أن سيدتها تفعل ما تريد. وتمتم فان أولدين: لا بد أن روث قد جنّت، ما الذي دفعها إلى أن تفعل هذا؟

وسعل مسيو كاريج -بدوره- بطريقة لها مغزاها لفتت نظر السيد فان أولدين. ووجّه مسيو كاريج حديثه إلى ميسون قائلاً: هذا يكفي حالياً، وعند ذهابك إلى الغرفة المجاورة سيقرؤون عليك الأسئلة والأجوبة وستوقعين عليها.

صحب الكاتب ميسون إلى الخارج، وسأل فان أولدين المحقق في التو: حسناً؟

ففتح مسيو كاريج أحد أدراج مكتبه وأخرج خطاباً أعطاه إلى فان أولدين وقال: لقد وجدنا هذا في حقيبة يد السيدة.

وكان الخطاب كما يلي:

صديقتي العزيزة،

سأفعل كما تريدين وأكون حريصاً حذراً، وكل هذه الصفات التي يكرهها المحبون. ربما كان لقاؤنا في باريس بعيداً عن الحكمة، ولكن جزر الذهب بعيدة عن العالم، ولن تتسرب الأخبار. إن هذا الرأي الثاقب مثلك تماماً، ومثل مشاركتك لي في الاهتمام بالكتاب الذي أضعه عن المجوهرات المشهورة. حقاً ستكون فرصة نادرة لي أن أرى وألمس أحجار الياقوت التاريخية هذه، ولسوف أخصص فصلاً كاملاً للياقوتة المشهورة «قلب من نار». حبيبتي، لقد اقترب اليوم الذي سأعوضك فيه عن كل هذه السنين من الحرمان والفراغ.

محبك إلى الأبد: أرمان.

* * *

قرأ فان أولدين الخطاب بصمت وقد استحال وجهه إلى لون قرمزي واستشاط غضباً، ورأى الرجال الذين كانوا ينظرون إليه

العروق تنفر من جبهته ويديه تتشنجان بلا وعي، ثم أعاد الخطاب دون أن يتفوه بكلمة واحدة.

وكان مسيو كاريج ينظر إلى مكتبه، أما عينا مسيو كو فقد ثبتتا على السقف، بينما كان مسيو بوارو يزيل ذرة من الغبار عن كمه. كانوا من اللباقة بحيث لم ينظر أي واحد منهم إليه. وحسب ما تقتضيه واجبات المهنة كان مسيو كاريج أول من طرق الموضوع، إذ قال: أتعرف من الذي كتب هذا الخطاب يا سيدي؟

فرد فان أولدين بتثاقل: نعم، أعرف.

وتساءل المحقق: ومن يكون؟

- إنه وغد يطلق على نفسه اسم الكونت دي لاروش.

تلت ذلك فترة صمت. وأخيراً مال بوارو إلى الأمام وعدّل من وضع مسطرة على حافة المكتب، ثم وجه حديثه إلى المليونير مباشرة قائلاً: مسيو فان أولدين، نحن كلنا نشعر بما يسببه طرق هذه الموضوعات من ألم دفين لك، ولكن صدقني يا سيدي، ليس الوقت وقت إخفاء الحقائق. وإذا كان للعدالة أن تأخذ مجراها فيجب أن نعرف كل شيء، ولو أنك تدبرت الأمر قليلاً لتبينت صحة كلامي هذا بنفسك.

صمت فان أولدين برهة، ثم أومأ برأسه إيجاباً وقال: أنت على حق يا مسيو بوارو. رغم ما يسببه الحديث في هذا الموضوع من ألم لي إلاّ أنه ليس من حقي أن أكتم شيئاً.

وتنهد المفتش ارتياحاً، واستند المحقق إلى كرسيه وأصلح من وضع نظارته وقال: هلا أخبرتنا بنفسك يا مسيو فان أولدين بكل ما تعلمه عن هذا الرجل؟

- لقد كانت البداية منذ أحد عشر أو اثني عشر عاماً، في باريس. كانت ابنتي وقتئذ فتاة صغيرة تسيطر عليها الأفكار الطائشة الشاعرية مثل كل الفتيات في سنها، وبلا علمي قامت علاقة بينها وبين الكونت دي لاروش... ربما تكونون قد سمعتم به؟

أومأ المفتش والسيد بوارو إيجاباً. واستطرد فان أولدين: إنه يطلق على نفسه اسم الكونت دي لاروش، وإن كنت أشك في أنه يحمل أي لقب.

فقال المحقق موافقاً إياه على رأيه: إنك لن تجد اسمه بين حملة الألقاب.

قال فان أولدين: لقد تبينت بنفسي هذا. كان الرجل وغداً وسيماً له جاذبية خاصة بالنسبة للنساء، وافتتنت به روث، ولكني سرعان ما وضعت حداً للأمر كله، إذ لم يكن الرجل بأكثر من محتال.

قال المفتش: أنت على حق، فالكونت دي لاروش معروف لنا جيداً، ولو كان بإمكاننا أن نقبض عليه لفعلنا. ولكن يا إلهي! إن الأمر ليس سهلاً، فهو غاية في الدهاء، وهو دائماً يرمي شباكه حول سيدات الطبقة الراقية، فإذا استولى منهن على المال ابتزازاً أو ادعاء فمن الطبيعي أنهن لا يقاضينه حتى لا يظهرن بمظهر الغفلة أمام العالم، وتأثيره عليهن لا يقاوم.

قال المليونير يتأمل: هذا صحيح. وكما أخبرتكم فقد وضعت حداً لعلاقتهما وأخبرت روث بحقيقته فصدقتني، وبعد نحو عام التقت بزوجها الحالي وتزوجا، وعلى قدر معرفتي كان ذلك هو نهاية الموضوع. لكن منذ أسبوع واحد فقط اكتشفت -لدهشتي البالغة- أن ابنتي قد استأنفت علاقتها بالكونت دي لاروش وأنها

قد التقت به مراراً في لندن وباريس. وقد اعترضتُ على تصرفاتها الطائشة، وأستطيع أن أخبركم أنها قد كانت -أمام إصراري- على وشك رفع قضية ضد زوجها تطلب فيها الطلاق.

تمتم بوارو بصوت رقيق وهو ينظر إلى السقف: هذا مثير.

فنظر إليه فان أولدين بحدة وقال: لقد أوضحت لها أنه من الحماقة أن تستمر في علاقتها بالكونت تحت هذه الظروف، وحسبت أنها وافقتني على رأيي.

سعل المحقق سعلة خفيفة وقال: ولكن طبقاً لهذا الخطاب...

ولم يتم جملته. وقال فان أولدين: أعلم هذا، ليس من الصواب أن نخفي الحقائق، فمهما بدت غير مقبولة يجب أن نواجهها. من الواضح أن روث قد رتبت أمورها بحيث تذهب إلى باريس فتلتقي بالكونت دي لاروش هناك، ولكن بعد تحذيري لها لا بد أنها كتبت إليه تقترح تغيير مكان اللقاء.

وفكر المحقق وقال: جزر الذهب؟ إنها تقع في مواجهة أيير وهي بقعة نائية رائعة.

أومأ فان أولدين برأسه وصاح قائلاً بمرارة: يا إلهي! كيف يتسنى لروث أن تبلغ هذه الدرجة من الحماقة وتصدق ادعاءه بأنه يضع كتاباً عن المجوهرات؟ لا بد وأنه كان يجري وراء الياقوتة منذ البداية.

قال بوارو: هناك بعض أحجار الياقوت الذائعة الصيت، كانت في الأصل جزءاً من مجوهرات التاج الروسي وهي فريدة في نوعها وقيمتها خيالية، وقد تردد أخيراً أن شخصاً أمريكياً ثرياً قد اشتراها، فهل صحيح أنك أنت الذي اشتريتها؟

قال فان أولدين: نعم، لقد اشتريتها في باريس منذ عشرة أيام.

– عفواً يا سيدي، ولكن يبدو أن المفاوضات التي تمّت من أجل شرائها قد استغرقت بعض الوقت.

– أكثر قليلاً من شهرين، ولكن لماذا؟

– لقد أصبح الأمر معروفاً، فهناك الكثيرون يتابعون أخبار مثل تلك المجوهرات.

تقلص وجه فان أولدين وقال بصوت كسير: أذكر الآن نكتة قلتها لروث حين أهديتها الياقوتة، فقد أوصيتها بألا تأخذها معها إلى الريفيرا لأني لا أتحمل صدمة قتلها من أجل سرقة المجوهرات. يا إلهي! يا للأشياء التي يقولها الإنسان دون أن يدري أنها قد تصبح حقيقة.

تلت ذلك فترة صمت، ثم تكلم بوارو: لنرتب الحقائق الموجودة لدينا ترتيباً دقيقاً منظماً. تبعاً لنظريتنا الحالية سارت الأمور كالآتي: كان الكونت دي لاروش يعلم عن شرائك المجوهرات، وبحيلة بارعة حرّض مدام كترنج على أن تحضرها معها، وبذلك يكون هو الرجل الذي رأته ميسون في القطار إلى باريس.

أومأ الثلاثة الآخرون إيجاباً، واستطرد هو يقول: لقد دهشت السيدة لرؤيته ولكنه كان مستعداً للموقف، فأبعد ميسون من الطريق وأحضر العشاء إلى المقصورة. وقد عرفنا من المحصل أنه قد أعدّ السرير في المقصورة الأولى ولكنه لم يدخل إلى الثانية، وأنه كان من الممكن أن يختفي فيها شخص دون أن يراه أحد. وحتى ذلك الحين كان الكونت مختفياً عن الأنظار تماماً ولم يكن أحد يعلم بوجوده في القطار إلاّ السيدة، وكان حريصاً على ألا ترى الوصيفة

وجهه، وكل ما استطاعت أن تقوله إنه طويل وأسمر وهذا وصف غامض للأسف. كانا وحدهما والقطار يندفع في الليل فلا صوت صراخ ولا مقاومة لأن الرجل يحبها كما تعتقد.

ثم التفت إلى فان أولدين وقال بلطف: لا بد أن الوفاة قد حدثت في الحال. ولن نقف طويلاً عند هذه النقطة، أخذ الكونت علبة المجوهرات التي كانت في متناول يده، وبعد فترة قصيرة كان القطار يقترب من ليون.

أومأ مسيو كاريج برأسه موافقاً وقال: بالضبط، وينزل المحصل من القطار فيصبح من السهل على الرجل أن يغادره دون أن يراه أحد، ويصبح من السهل عليه أيضاً أن يركب قطاراً آخر ليعود إلى باريس أو ليذهب إلى أي مكان يريده، وعندئذ تعتبر الجريمة جريمة سرقة عادية في القطار. ولولا الخطاب الذي وُجد في حقيبة السيدة لما ورد اسم الكونت إطلاقاً.

قال المفتش: لقد كان إهمالاً منه ألا يفتش الحقيبة.

- مما لا شك فيه أنه اعتقد أنها قد أعدمت هذا الخطاب، فقد كانت -عفواً يا سيدي- حماقة منها أن تحتفظ بالخطاب.

تمتم بوارو: ومع ذلك فقد كانت حماقة منه ألا يتوقع ذلك.

- ماذا تعني؟

- أعني أننا قد اتفقنا جميعاً على نقطة واحدة، وهي أن الكونت دي لاروش كان ضليعاً في موضوع واحد، وهو النساء. فكيف فاته وهو العليم بشؤونهن أن يتنبأ بأن السيدة سوف تحتفظ بالخطاب؟

قال المحقق بشيء من الشك: نعم، نعم؛ هناك بعض الصحة

فيما تقول، ولكن في مثل هذه الأوقات لا يكون المرء مالكاً زمام نفسه، فهو لا يتصرف بروية. يا إلهي! لو أن كل المجرمين احتفظوا بهدوئهم وتصرفوا بذكاء فكيف يتأتى لنا أن نقبض عليهم؟

ابتسم بوارو لنفسه وقال الآخر: إن الاتهام يبدو واضحاً ولكن من الصعب إثباته، فالكونت يجيد المراوغة، وما لم تستطع الوصيفة التعرف عليه...

قال بوارو: وهو شيء بعيد الاحتمال.

فحكّ المحقق ذقنه وهو يقول: هذا صحيح؛ إنه لأمر صعب.

وقال بوارو: إذا كان قد ارتكب الجريمة فعلاً.

فقاطعه مسيو كو: إذا؟ أتقول إذا؟!

- نعم يا سيدي المفتش؛ أقول إذا.

فنظر إليه الآخر بحدة ثم قال: أنت على صواب. لقد تعجلنا، ومن الممكن أن يستطيع الكونت إثبات وجوده في مكان آخر وقت ارتكابه الجريمة وبذلك نظهر بمظهر المغفلين.

ردّ بوارو: آه، هذا لا يهم أبداً، فمن الطبيعي إذا كان قد ارتكب الجريمة أن يحاول إثبات وجوده في مكان آخر وقت وقوعها، فإن رجلاً في مثل خبرة الكونت لن يعجز عن اتخاذ احتياطات. لا، لقد قلت «إذا» لسبب محدد تماماً.

- وما هو؟

قال بوارو وهو يشير بسبابته مؤكداً كلامه: إنه علم النفس.

قال المفتش: ماذا؟!

- علم النفس. أما أن الكونت وغد فهذا صحيح، وأما أنه

محتال فهذا أيضاً صحيح، وأما أنه ينصب الشباك حول النساء فهذا صحيح، ثم احتياله ليسرق مجوهرات السيدة... هذا أيضاً صحيح. ولكن هل هو من النوع الذي يرتكب جريمة قتل؟ ردي على هذا هو: لا؛ فإن شخصاً من نوع الكونت يكون دائماً جباناً، فهو لا يخاطر أبداً ويفضّل أسلم الطرق وربما أوضعها، ولكن القتل؟ كلا وألف كلا.

ولم يبدُ على المحقق أنه يتفق معه في هذا الرأي فقال بتعقل: ولكن يأتي يوم يفقد فيه مثل هؤلاء الناس عقولهم فيندفعون إلى أبعد مدى، ومما لا شك فيه أن هذا ما حدث في الحادثة. ودون أن أعارضك الرأي يا مسيو بوارو...

أسرع بوارو يوضح الموقف: لقد كان مجرد رأي، والقضية بالطبع بين أيديكم وستفعلون ما ترونه مناسباً.

قال مسيو كاريج: أنا مقتنع بأن الكونت دي لاروش هو الرجل الذي يجب أن نقبض عليه، هل توافقني على هذا يا سيدي المفتش؟

- تماماً.

- الرجل شرير تماماً، لا شك في هذا.

فابتسم بوارو ابتسامة مضيئة وقال: إن مهمتي هي أن أعرف الأشياء، والكونت رجل ذكي، وهو الآن يقيم في فيلا استأجرها هي فيلا مارينا في أنتيب.

* * *

الفصل الحادي عشر

نظر الجميع إلى بوارو باحترام. لا شك أن الرجل الضئيل قد أصاب الهدف. وضحك المفتش ضحكة جوفاء وصاح قائلاً: إنك تعلمنا عملنا... مسيو بوارو يعلم أكثر مما يعلمه البوليس!

نظر بوارو إلى سقف الغرفة برضا وهو يصطنع التواضع، ثم قال بصوت خفيض: إنها هوايتي، أن أعرف الأشياء؛ فلديّ بالطبع من الوقت ما يسمح لي بذلك إذ أنني لست مثقلاً بالأعباء.

قال المفتش وهو يهز رأسه: آه، أما عن نفسي... وأشار بيده معبّراً عما يحمله على كتفيه من أعباء.

التفت بوارو فجأة إلى فان أولدين وقال: هل توافق على هذا الرأي يا سيدي؟ أتشعر بأن الكونت دي لاروش هو القاتل بصفة مؤكدة؟

- إن الأمر يبدو كذلك. نعم، بالتأكيد.

ولكن شيئاً من التحفظ في الإجابة جعل المحقق ينظر إلى الأمريكي باستغراب. وبدا فان أولدين وقد أحس بذلك، فبذل مجهوداً كمن يطرد خاطراً ألح عليه وسأل: وماذا عن زوج ابنتي، هل أنبأتموه بالخبر؟ إنه في نيس على ما أظن.

تردد المفتش قليلاً وقال: بالتأكيد يا سيدي. ثم أضاف بحذر شديد: لا شك أنك تعلم يا مسيو فان أولدين أن السيد كترنج كان واحداً من ركاب القطار الأزرق في تلك الليلة؟

أومأ المليونير: قد سمعت بهذا قبل مغادرتي لندن.

قال المفتش: وقد أخبرنا بأنه لم تكن لديه فكرة عن أن زوجته كانت ضمن ركاب القطار.

قال فان أولدين: أراهن أنه لم تكن لديه فكرة، ولو أنه قابلها في القطار لكانت مفاجأة سيئة بالنسبة له.

نظر إليه الرجال الثلاثة متسائلين، فقال فان أولدين بعنف: لن أحجب الحقائق، فلا أحد يعلم ما الذي تحملته ابنتي المسكنية. ديرك كترنج لم يكن وحده بل كانت برفقته سيدة.

- ماذا؟ ومن هي؟

- ميراي الراقصة.

تبادل مسيو كاريج والمفتش النظرات وكأنهما يؤكدان محادثة سابقة دارت بينهما. ومال مسيو كاريج إلى الوراء في كرسيه وعقد يديه وثبت عينيه على السقف ثم تمتم مرة أخرى: إن الإنسان ليعجب، فقد سرت بعض الإشاعات.

وقال مسيو كو: إن السيدة موتورة للغاية.

تمتم بوارو قائلاً: وهي أيضاً تكلف الكثير.

واحمرّ وجه فان أولدين، ثم مال إلى الأمام وخبط المائدة بقبضة يده وصرخ قائلاً: اسمعوا، إن زوج ابنتي وغد تماماً. ثم قال وهو ينقل نظره بينهم: لا أعلم، ولكن هذه الوسامة وهذا السحر قد خدعاني مدة. أظن أنه تظاهر بأنه محطم القلب حين أبلغتموه

بالخبر... أعني إذا لم يكن قد عرفه فعلاً.

- لقد كانت مفاجأة له، وقد بدا منهاراً.

قال فان أولدين: يا للمخادع! أظنه تظاهر بالحزن العميق.

فرد المفتش بحذر بقوله: لا، لا أستطيع أن أجزم بهذا، أليس كذلك يا مسيو كاريج؟

أغمض المحقق عينيه وقال: لقد بان عليه أثر الصدمة والحيرة والهلع، وإن لم يبد عليه أثر الحزن.

وتكلم هيركيول بوارو مرة أخرى: اسمح لي أن أسألك يا مسيو فان أولدين، هل يستفيد السيد كترنج من وفاة زوجته؟

فرد فان أولدين: سيؤول إليه مليونان.

- دولارات؟

- مليونا جنيه؛ فقد كان المبلغ هديتي لها عند زواجها. وهي لم تكتب وصية ولم تنجب أطفالاً، ولذلك ستؤول الثروة إلى زوجها.

تمتم بوارو: الذي كانت على وشك طلب الطلاق منه... نعم، تماماً.

التفت المفتش ونظر إليه بحدة وقال: أتعني...

- أنا لا أعني شيئاً، كل ما في الأمر أنني أرتب الحقائق.

حملق فيه فان أولدين وقد بدأ عليه الاهتمام. ونهض بوارو واقفاً وقال بأدب وهو ينحني للمسيو كاريج: أعتقد أنكم لا تحتاجون إليّ الآن يا سيدي، وسوف يكون كرماً منكم لو أخبرتموني بتطورات الموقف.

- بالتأكيد، بكل تأكيد.

ونهض فان أولدين وقال: ولعكم لا تحتاجون إليّ أنا أيضاً؟

- نعم يا سيدي، فلدينا كل ما نريده من معلومات في الوقت الحالي.

- إذن سأتمشى قليلاً مع مسيو بوارو، هذا إن لم يكن لديه مانع.

فانحنى الرجل الضئيل وقال: يسعدني ذلك يا سيدي.

وعاد فان أولدين ذو الشخصية الجبارة إلى حالته الطبيعية مرة أخرى. وبعد أن سارا فترة قصيرة في صمت تكلم المليونير: أعتقد أنك لم تعد تمارس مهنتك يا سيد بوارو؟

- هذا صحيح يا سيدي، فأنا أستمتع بالدنيا.

- ورغم ذلك فأنت تساعد الشرطة في هذا الموضوع؟

- سيدي، لو أن طبيباً كان يسير في الطريق فوقعت حادثة، فهل يقول لنفسه: لقد اعتزلت عملي وسأمضي في طريقي، بينما هناك شخص ينزف حتى الموت تحت قدميه؟ فلو كنت قد وصلت إلى نيس فعلاً وأرسلت الشرطة في طلبي لرفضت، ولكن يبدو أن الله سبحانه وتعالى قد عهد بهذا الأمر إليّ.

قال فان أولدين وهو يفكر: لقد كنت في مكان الحادث، ترى هل عاينت المقصورة؟

رد بوارو بالإيجاب.

- وبلا شك وجدت أشياء أوحت إليك بفكرة معينة؟

- ربما.

- أرجو أن تدرك ما أرمي إليه. يبدو أن القضية ضد الكونت دي لاروش واضحة تماماً، ولكني لست مغفلاً، لقد ظللت أرقبك طوال الفترة الأخيرة وأدركت أنك -لسبب ما- لا توافق على هذه النظرية.

هز بوارو كتفيه وقال: ربما أكون مخطئاً.

- هنا نصل إلى المعروف الذي أطلبه منك. هل تقبل أن تبحث هذه القضية من أجلي؟

- من أجلك بصفة شخصية؟

- هذا ما عنيته.

صمت بوارو برهة ثم قال: أتدرك تماماً ما تطلب مني عمله؟

- أعتقد ذلك.

- هذا بديع، وأنا أقبل. ولكن في هذه الحالة يجب أن تجيب عن أسئلتي بصراحة.

- طبعاً، بالتأكيد، هذا مفهوم.

تغيرت لهجة بوارو، وأصبح فجأة رجل عمل: مسألة الطلاق هذه، هل كنت أنت الذي نصحت ابنتك برفع القضية؟

- نعم.

- متى؟

- منذ نحو عشرة أيام، فقد وصلني خطاب منها تشكو من تصرفات زوجها فأوضحت لها بكل قوة أن الطلاق هو الحل الوحيد.

- وممّ كانت تشكو؟

– لقد شوهد كثيراً مع سيدة سيئة السمعة، السيدة التي تحدثنا عنها... ميراي.

– الراقصة؟ آه، وهل كانت مدام كترنج تعترض على هذا؟ هل كانت هي مخلصة لزوجها؟

قال فان أولدين متردداً: لا أستطيع أن أجزم بهذا.

– إذن لم يكن الموضوع موضوع حب بل كانت مسألة كرامة، أليس كذلك؟

– بلى، أعتقد أننا نستطيع أن نصور الأمر هكذا.

– أظن أنه لم يكن زواجاً سعيداً منذ البداية؟

– إن ديرك كترنج فاسد لأقصى حد ولا يمكنه أن يسعد أية امرأة.

– لا بأس، لقد نصحت أنت السيدة بطلب الطلاق فوافقت هي، واستشرت محاميك، فمتى كنت ستبلغ السيد كترنج بهذا؟

– لقد أرسلت في طلبه بنفسي، وأوضحت له الطريق الذي سأسير فيه.

– وماذا قال؟

تجهم وجه فان أولدين وهو يتذكر ما حدث: لقد كان وقحاً للغاية.

– عفواً لسؤالي يا سيدي، ولكن هل أشار إلى موضوع الكونت دي لاروش؟

زمجر فان أولدين قائلاً رغم إرادته: لا، لم يذكر اسمه، ولكنه أبدى علمه بالأمر.

- ماذا كان موقف السيد كترنج المالي في ذلك الوقت؟

بعد فترة تردد قصيرة قال فان أولدين: وأنى لي أن أعرف؟

- من المحتمل أنك حاولت أن تعرف على ما أظن.

- نعم، هذا صحيح. وقد اكتشفت أن كترنج كان مفلساً.

- والآن آل إليه مليونان من الجنيهات... يا لغرابة ما يحدث!

فنظر فان أولدين بحدة وقال: ماذا تعني؟

- أنا أفكر في الأمر فقط، أفلسف الموضوع، أناقش المسألة من الناحية الأخلاقية. ولكن لنعد إلى الموضوع الأول: هل قبل السيد كترنج بأن يدع الأمر يمر دون أن يثير حرباً؟

تردد فان أولدين برهة، ثم قال: لا أعلم تماماً ما كان ينويه.

- وهل اتصلت به؟

ومرت فترة صمت أخرى، ثم قال فان أولدين: لا.

عندئذ وقف بوارو فجأة والتقط قبعته ومد يده قائلاً: وداعاً يا سيدي، أنا لا أستطيع أن أفعل شيئاً من أجلك.

سأله فان أولدين بغضب: ماذا تعني؟

- إذا لم تصارحني فإنني لن أستطيع أن أفعل أي شيء.

- لا أعلم ما تقصده بهذا.

- أعتقد أنك تعلم. لتطمئن يا مسيو فان أولدين إلى أنني أعرف كيف أمسك لساني.

- إذن لا بأس. أعترف أنني لم أكن أقول الحقيقة الآن، كان لي فعلاً اتصال معه.

- نعم؟

- ولأكون دقيقاً أرسلت سكرتيري، الميجور نايتون، لكي يراه ويعرض عليه مبلغ مئة ألف جنيه نقداً إذا لم يعارض في القضية.

- مبلغ كبير. وماذا كان رده؟

- أرسل يقول: فلأذهب إلى الجحيم.

- آه!

لم تبد على بوارو أية انفعالات، بل كان يرتب الحقائق منطقياً في عقله، ثم قال: لقد أخبر السيد كترنج البوليس بأنه لم يرَ ولم يتحدث إلى زوجته أثناء رحلتها من إنجلترا، فهل تميل إلى تصديق هذا الكلام يا سيدي؟

- نعم، بل أعتقد أنه حاول أن يبتعد عن طريقها بكل السبل.

- لماذا؟

- لأن المرأة كانت معه.

- ميراي؟

- نعم.

- وكيف عرفت هذه الحقيقة؟

- أخبرني بذلك رجل طلبت منه أن يراقبه، فقال إنهما كانا في ذلك القطار.

قال بوارو: لقد فهمت، وفي هذه الحالة -كما قلت أنت من قبل- لم يكن ليحاول الاتصال بمدام كترنج.

وصمت بوارو برهة فلم يقطع فان أولدين حبل أفكاره.

* * *

قال بوارو لخادمه صباح اليوم التالي: هل سبق لك أن زرت الريفيرا يا جورج؟

كان جورج رجلاً إنجليزياً بكل معاني الكلمة وكان جامد الوجه. قال: نعم يا سيدي، لقد حضرت إلى هنا منذ عامين عندما كنت في خدمة اللورد إدوارد فرامبتون.

- واليوم، ها أنت هنا مع هيركيول بوارو. يا للتقدم الذي يحرزه الإنسان!

ولم يحر جورج جواباً، وبعد فترة صمت سأل: هل أحضر لك البدلة البنية يا سيدي؟ فالجو بارد اليوم.

اعترض بوارو بقوله: هناك بقعة صغيرة في الصديري، لقد لوثتها وأنا أتناول غدائي في الريتز يوم الثلاثاء الماضي.

قال جورج معاتباً: ليست بها بقعة الآن يا سيدي، فقد أزلتها.

- لا بأس، أنا مسرور منك يا جورج.

- شكراً يا سيدي.

تلت ذلك فترة صمت قطعها بوارو متمتماً: لنفترض يا جورج أنك ولدت في نفس الطبقة الاجتماعية التي كان ينتمي إليها سيدك السابق اللورد إدوارد فرامبتون، وأنك وأنت مفلس تزوجت سيدة في غاية الثراء، ولكن هذه الزوجة طلبت الطلاق منك ولديها من الأسباب ما يدفعها إلى ذلك. فماذا يكون موقفك؟

ردّ جورج بقوله: سأحاول أن أجعلها تغير رأيها يا سيدي.

- بوسائل سلمية أم عنوة؟

بدا الذعر على وجه جورج وقال: عفواً يا سيدي، ولكن

تصرف شخص ينتمي إلى الطبقة الأرستقراطية يختلف عن تصرف شخص ينحدر من حي وايت شابل، فهو لن يقوم بأي عمل وضيع.

- أتعتقد ذلك يا جورج؟ إني لأعجب، ولكن ربما كنت على صواب.

وسُمعت طرقات على الباب فذهب جورج وفتحه، وكان حديثاً قصيراً ثم عاد إلى بوارو وهو يقول: إنها رسالة يا سيدي.

أخذها بوارو. كانت من مسيو كو مفتش البوليس وكان نصها كالآتي: «نحن على وشك أن نستجوب الكونت دي لاروش، ويرجو قاضي التحقيق أن تكون حاضراً».

هتف بوارو: أسرع يا جورج، أحضر البدلة فيجب أن أذهب سريعاً.

وبعد ربع ساعة كان بوارو يدخل مكتب التحقيق مرتدياً بدلته البنية، وكان مسيو كو هناك فحيا مسيو بوارو هو ومسيو كاريج. وقال مسيو كو: المسألة تبدو غير مشجعة، يبدو أن الكونت قد وصل إلى نيس في اليوم السابق على مصرع القتيلة.

فردّ بوارو: لو كان الأمر كذلك فإن هذا يؤيد وجهة نظري.

تنحنح مسيو كاريج وقال: يجب ألا تقبل هذه الحجة دون مناقشة.

ثم دق الجرس الموضوع على مكتبه. وبعد لحظة دخل الغرفة رجل أسمر طويل القامة يبدو عليه الترفع، وكان مظهر الكونت يوحي بنبل محتده حتى لا يكاد المرء يصدق أن أباه لم يكن إلا تاجراً صغيراً في نانت، وإذا ما نظر إليه المرء فإنه لا يشك لحظة في

أن عدداً لا حصر له من أسلافه قد لقوا حتفهم تحت حد المقصلة إبان الثورة الفرنسية! وقال الكونت بترفع: هأنذا أيها السادة، هل لي أن أسأل ماذا تريدون مني؟

فقال المحقق بأدب: أرجو أن تجلس يا سيدي الكونت. إن المسألة متعلقة بموت مدام كترنج، وهو ما نحققه الآن.

- موت مدام كترنج؟ أنا لا أفهم شيئاً.

- لقد كنت تعرف السيدة على ما أعتقد، أليس كذلك يا سيدي الكونت؟

- بالتأكيد كنت أعرفها، ولكن ما صلة هذا بالموضوع؟

وثبّت نظارة مونوكل على عينه ثم نظر حوله ببرود، واستقرت عيناه طويلاً على بوارو الذي كان ينظر إليه بإعجاب بريء أرضى غرور الكونت. واستند مسيو كاريج إلى مقعده وتنحنح ثم قال: ربما كنت لا تعلم -يا سيدي الكونت- أن مدام كترنج قد قتلت؟

- قُتلت؟! يا إلهي! إنه لأمر فظيع.

كان افتعال الدهشة والأسى محبوكاً تماماً حتى ليكاد المرء يظنهما طبيعيين. واستطرد مسيو كاريج يقول: لقد خُنقت مدام كترنج بين باريس وليون وسرقت مجوهراتها.

قال الكونت بحرارة: إنه لأمر فظيع! يجب أن تفعل الشرطة شيئاً لوقف لصوص القطارات عند حدهم، فلا أحد في أمان اليوم.

تابع المحقق حديثه قائلاً: وقد وجدنا خطاباً موجهاً منك إلى السيدة في حقيبة يدها، ويبدو أنها كانت قد رتبت لقاء معك.

هزّ الكونت كتفيه ومد يديه كمن لا حيلة له وقال بصراحة: ما فائدة الإنكار، فكلنا رجال خبرنا الحياة؟ إنني أقولها بصراحة بيني وبينكم: هذا صحيح.

- لقد التقيت بها في باريس وسافرت معها على ما أعتقد؟

- كان هذا هو الترتيب في بادئ الأمر، ولكن بناء على رغبة السيدة تغير وكنا سنلتقي في أبير.

- ألم تلتق بها في القطار في محطة ليون مساء يوم ١٤؟

- على العكس؛ لقد وصلت إلى نيس صباح ذلك اليوم. إن ما تقوله مستحيل الحدوث.

قال مسيو كاريج: تماماً، تماماً؛ ولمجرد الشكليات أرجو أن تبين لي تحركاتك في مساء وليلة يوم ١٤.

فكر الكونت لحظة ثم قال: لقد تناولت عشائي في مونتي كارلو في مقهى باريس، وبعد ذلك ذهبت إلى نادي قمار اسمه النادي الرياضي حيث كسبت بضعة ألوف من الفرنكات. وهزّ كتفيه وقال: ثم عدت إلى البيت في نحو الساعة الواحدة.

- عفواً يا سيدي، ولكن كيف عدت إلى بيتك؟

- بسيارتي الخاصة ذات المقعدين.

- وهل كان معك أحد؟

- لا.

- أيمكن أن تثبت بشهادة الشهود صحة أقوالك هذه؟

- لا شك أن كثيراً من أصدقائي قد رأوني ذلك المساء وأنا أتناول عشائي بمفردي.

- وهل فتح لك خادمك الباب عند عودتك؟

- لقد فتحت بمفتاحي الخاص.

تمتم المحقق: آه!

ومرة أخرى دق الجرس الموضوع على مكتبه ففُتح الباب، وقال للرجل الذي حضر: أدخل الوصيفة الآنسة ميسون.

- حسناً يا سيدي.

ودخلت آدا ميسون فقال لها: هل تسمحين بالنظر إلى هذا السيد وتقررين: هل كان هو الرجل الذي دخل مقصورة سيدتك في باريس؟

نظرت المرأة إلى الكونت نظرة طويلة فاحصة، ولاحظ بوارو أنه قد بدا عليه القلق نوعاً ما وهو واقع تحت هذا الفحص. وأخيراً قالت ميسون: لا أستطيع أن أقرر يا سيدي، أنا واثقة من أنني لا أستطيع. قد يكون هو وقد يكون شخصاً غيره، إذ كان كل ما رأيته منه هو ظهره، ومن الصعب عليّ أن أجزم. إنني أرجح بأنه هو الرجل.

- ولكنك لست متأكدة من هذا؟

قالت ميسون: لا، لست متأكدة.

- وهل رأيت هذا السيد في شارع كيرزون من قبل؟

فهزت ميسون رأسها وقالت: أنا لا أرى أي شخص يحضر إلى شارع كيرزون، اللهم إلاّ إذا كان يقيم هناك.

فقال المحقق بحدة: لا بأس، لا بأس، هذا يكفي.

كان من الواضح أن آماله قد خابت. وفجأة قال بوارو: لحظة

واحدة، هناك سؤال أود أن أوجهه للآنسة لو سمحتم.

- بالتأكيد يا مسيو بوارو، بكل تأكيد.

وجّه بوارو حديثه إلى الوصيفة قائلاً: ماذا حدث للتذاكر؟

- أية تذاكر يا سيدي؟

- تذاكر القطار من لندن إلى نيس. هل كانت معك أو مع سيدتك؟

- كانت مع سيدتي تذكرتها لعربة البولمان الخاصة، وكانت بقية التذاكر معي.

- وماذا حدث لها؟

- لقد أعطيتها للمحصّل في القطار الفرنسي يا سيدي، إذ قال لي أن هذا هو الإجراء المعتاد. أرجو أن أكون قد تصرفت كما يجب يا سيدي؟

- تماماً، تماماً؛ إنها مجرد تفاصيل أود أن ألم بها.

نظر إليه مسيو كو والمحقق بدهشة، ووقفت ميسون لا تدري ماذا تفعل برهة حتى أومأ إليها المحقق سامحاً لها بالخروج، فخرجت. وأخذ بوارو يكتب شيئاً على قطعة صغيرة من الورق ثم سلمها إلى كاريج، فقرأها الأخير وأشرق وجهه.

وسأل الكونت بترفع: والآن أيها السادة، هل ستحجزونني مدة أطول من هذه؟

فأسرع مسيو كاريج يقول: لا بالتأكيد، لقد اتضح موقفك في هذه المسألة الآن ومن الطبيعي أننا قد استجوبناك بسبب خطاب السيدة.

نهض الكونت وأخذ عصاه الأنيقة في يده، وانحنى انحناءة قصيرة ثم غادر الغرفة.

قال مسيو كاريج: إذن فهذا هو الموضوع؟ لقد كنت محقاً يا مسيو بوارو؛ من الأفضل أن نشعره بأننا لا نشك فيه، وسيقوم اثنان من رجالي بمراقبته كظله ليلاً ونهاراً، وفي نفس الوقت سنتحقق من مسألة غيابه عن مكان الحادث إذ تبدو لي حجة واهية نوعاً ما.

فقال بوارو مفكراً: يحتمل.

واستطرد المحقق يقول: لقد طلبت من مسيو كترنج أن يحضر إلى هنا هذا الصباح، رغم أنني أشك في أهمية استجوابه، وإن كانت هناك بعض الظروف المريبة.

ثم توقف وحكّ أنفه، فسأله بوارو: مثل ماذا؟

سعل المحقق ثم قال: السيدة التي قيل إنه كان مسافراً معها، ميراي. إنها تنزل في فندق ويقيم هو في فندق آخر، وهذا يبدو لي غريباً نوعاً ما.

فقال مسيو كو: يبدوان وكأنهما يحاولان التصرف بحذر.

وقال مسيو كاريج بلهجة انتصار: تماماً، وإلا فلماذا يتصرفان بمثل هذا الحرص؟

فقال بوارو: إن المغالاة في الحرص تدعو إلى الشك، أليس كذلك؟

- فعلاً.

واستطرد بوارو: ربما استطعنا أن نوجه إلى مسيو كترنج سؤالاً أو اثنين.

وألقى المحقق بتعليماته، وبعد برهة دخل الغرفة ديرك كترنج بشوشاً كعادته. وحياه المحقق بأدب: سعدت صباحاً يا سيدي.

فرد كترنج باقتضاب: سعدت صباحاً. لقد أرسلتم في طلبي، ترى هل جدّ جديد؟

- تفضل بالجلوس يا سيدي.

جلس ديرك على أحد المقاعد وألقى بعصاه على المائدة، ثم قال بصبر نافد: نعم؟

فقال مسيو كاريج بحذر: حتى الآن لم يجد جديد.

قال ديرك بجفاء: إنه لشيء لطيف. هل أرسلتم في طلبي لتخبروني بهذا؟

فقال المحقق محتداً: لقد ظننا أنه من الأفضل أن نطلعك على تطور القضية يا سيدي.

- حتى إذا لم يكن هناك أي تطور؟

- وقد أردنا أيضاً أن نوجه إليك بعض الأسئلة.

- فلتسأل.

- أواثق أنت من أنك لم تر زوجتك ولم تتحدث إليها في القطار؟

- لقد أجبت عن هذا السؤال من قبل، لم أفعل.

- بلا شك كانت لديك أسباب لهذا.

فنظر إليه ديرك بشك ثم قال وهو ينطق الكلمات كلمة كلمة، كأنما هو يتحدث مع شخص غبي: لم أكن... أعلم... أنها... في... القطار.

فقال مسيو كاريج: نعم، هذا ما تقوله.

عبس ديرك وقال: أود أن أعرف ما الذي ترمي إليه، هل تعلم رأيي يا مسيو كاريج؟

- ما هو رأيك يا سيدي؟

- إنني أعتقد أن البوليس الفرنسي قد أصبح مثاراً للسخرية. لا بد أن يكون لديكم بيانات عن عصابات القطارات هذه، فإنه لممّا يثير الغيظ أن يقع مثل هذا الحادث في قطار فاخر كهذا ثم يقف البوليس الفرنسي عاجزاً عن التصرف.

- ها نحن نقوم بإجراءاتنا يا سيدي، لا تخش شيئاً.

وتدخل بوارو فجأة وقد عقد أصابعه وجعل ينظر إلى سقف الغرفة: كما فهمت فإن مدام كترنج لم تكتب وصية. أليس كذلك؟

فردّ السيد كترنج بقوله: لا أظن أنها كتبت وصية، لماذا؟

قال بوارو: يا لها من ثروة صغيرة تلك التي ستؤول إليك!

ورغم أن عينيه كانتا لا تزالان متجهتين إلى السقف إلاّ أنه استطاع أن يلمح تضرج وجه ديرك كترنج: وماذا تعني بقولك هذا؟ ومن تكون؟

وبرقّة أنزل رجله عن الأخرى وسحب نظرته من السقف ليواجه الشاب قائلاً بهدوء: إنني أدعى هيركيول بوارو، وربما أكون أعظم مخبر في العالم. أواثق أنت أنك لم تر زوجتك ولم تتحدث إليها في ذلك القطار؟

- ما الذي ترمي إليه؟ أتعني... أتعني أنني أنا الذي قتلتها؟ وضحك بغتة ثم قال: يجب ألا أفقد أعصابي رغم أن الأمر مثير

للسخرية، ولو أني قتلتها لما كانت بي حاجة إلى سرقة مجوهراتها، أليس كذلك؟

تمتم بوارو: هذا صحيح، لم تخطر لي هذه الفكرة.

قال ديرك كترنج: من الواضح تماماً أن هذه الجريمة جريمة قتل مقترنة بالسرقة. مسكينة أنت يا روث! لقد كانت تلك المجوهرات اللعينة سبباً في موتها، لا بد أن وجود المجوهرات معها كان معروفاً وأعتقد أنها قد حدثت جريمة قتل من أجل هذه الجواهر نفسها من قبل.

واعتدل بوارو في جلسته فجأة والتمعت عيناه الخضراوان كعينَي قط، ثم قال: سؤال آخر يا سيد كترنج، متى كانت آخر مرة رأيت فيها زوجتك؟

فكر كترنج وهو يقول: دعني أتذكر. لا بد وأن ذلك حدث منذ... نعم، منذ ثلاثة أسابيع. أخشى ألا أستطيع تحديد التاريخ بالضبط.

فرد بوارو بجفاء: لا يهم، هذا كل ما أردت معرفته.

وتساءل السيد كترنج بصبر نافذ: أهناك أسئلة أخرى؟

ثم نظر إلى مسيو كاريج الذي نظر بدوره إلى بوارو مستلهماً رداً، وتلقاه في صورة هزة خفيفة من رأسه فرد قائلاً بأدب: لا يا سيد كترنج، لا أظن أننا سنزعجك أكثر من ذلك. سعدت صباحاً.

- سعدت صباحاً.

وخرج وهو يصفق الباب خلفه، فمال بوارو إلى الأمام وتكلم بحدة بمجرد أن خرج الشاب من الغرفة: قل لي، متى تحدثت عن أحجار الياقوت مع السيد كترنج؟

فقال المسيو كاريج: أنا لم أتحدث معه بشأنها، فنحن لم نعلم عنها شيئاً إلاّ بعد ظهر أمس من مسيو فان أولدين.

- نعم، ولكن الكونت تحدث عنها في خطابه.

وبدا الألم على وجه كاريج وقال بصوت مصدوم: أنا لم أتحدث بشأن هذا الخطاب مع السيد كترنج، ولو فعلت لكان ذلك حماقة في الوقت الحاضر.

مال بوارو إلى الأمام وجعل ينقر على المائدة، ثم تساءل برقة: إذن كيف عرف بأمرها؟ لا يمكن أن تكون السيدة قد أخبرته بذلك إذ أنه لم يرها منذ ثلاثة أسابيع، ومن غير المحتمل أن يكون مسيو فان أولدين أو سكرتيره قد أخبراه، إذ أن ما حدث بينهم من لقاءات كان الحديث فيها يتخذ مجرى آخر مغايراً تماماً، كما أن الصحف لم تشر إليها من قريب أو من بعيد.

ونهض وأخذ عصاه وتمتم قائلاً: ورغم ذلك فإنه كان يعرف عنها كل شيء! إنني لأعجب من هذا الآن، نعم؛ إني لأعجب.

* * *

الفصل الثاني عشر

ذهب ديرك كترنج من فوره إلى مطعم النجرسكو، وهو مطعم قريب من البحر، حيث جلس ينظر إلى مياه البحر بزرقتها اللامعة. كان يرقب العابرين بطريقة آلية؛ حشد من الناس لم يعجبه مظهرهم ولا ملابسهم، فالمرء لا يكاد يرى شيئاً يستحق المشاهدة في هذه الأيام. ولكن سرعان ما أعاد النظر في العبارة الأخيرة عندما جلست سيدة على منضدة قريبة منه، كانت ترتدي ثوباً رائعاً يجمع بين اللونين الأسود والبرتقالي وتضع على رأسها قبعة صغيرة ظللت وجهها. ثم عاد ينظر إلى البحر، وفجأة جفل حين تسلل إلى أنفه عطر جعله ينظر ليرى السيدة ذات الثوب الأسود وقد اقتربت منه ووقفت إلى جواره، ورأى وجهها الآن فعرفها؛ كانت ميراي، وكانت تبتسم تلك الابتسامة التي يعرفها جيداً. همست: ديرك، أنت سعيد برؤيتي، أليس كذلك؟

وألقت بنفسها إلى أحد المقاعد على الناحية الأخرى من المنضدة ثم قالت بصوت ساخر: ألا ترحب بي أيها الغبي؟

- هذه مفاجأة سعيدة، متى تركت لندن؟

هزت كتفيها وقالت: منذ يومين تقريباً.

- والبارثينون؟

- لقد تركته.

- حقاً؟

- أنت لست ودوداً يا ديرك.

- وهل تتوقعين أن أكون كذلك؟

أشعلت ميراي سيجارة وجذبت بعض أنفاسها قبل أن تقول: ربما ظننت أن من الحماقة أن نلتقي بهذه السرعة؟

فنظر ديرك إليها طويلاً، ثم هزّ رأسه وقال: هل ستتناولين غداءك هنا؟

- بالطبع، معك.

- أنا في غاية الأسف، فلدي موعد هام.

يا إلهي، إنكم معشر الرجال مثل الأطفال تماماً! نعم، أنت تتصرف كطفل مدلل، منذ ذلك اليوم في لندن حين هربت مني.

فقال ديرك: يا فتاتي العزيزة، لا أعلم عم تتحدثين. لقد اتفقنا في لندن على أن الفئران تهجر السفينة الغارقة، وهذا هو كل ما يمكن أن يقال.

ورغم كلماته التي ألقاها بإهمال بدا وجهه شاحباً متوتراً، وفجأة مالت ميراي إلى الأمام وهمست: لا تخدعني فأنا أعلم، أعلم ما فعلته من أجلي.

فنظر إليها بحدة وقد أثار انتباهَه شيءٌ ما في صوتها، فأومأت برأسها وقالت: آه، لا تخشَ شيئاً فأنا حذرة. إنك لرائع! أنت تمتاز بشجاعة فائقة. ولكن، لقد كنت أنا صاحبة الفكرة في ذلك اليوم، عندما قلت لك في لندن إن الحوادث تقع أحياناً... ألست في خطر الآن؟ ألا تشتبه بك الشرطة الآن؟

- بالله عليك!

- أنت على حق؛ كان يجب عليّ ألا أتحدث هكذا في مكان عام. لن نتحدث في هذا الموضوع مرة أخرى، ولكن لقد انتهت متاعبنا، وستكون حياتنا معاً رائعة، رائعة.

وضحك ديرك فجأة ضحكة خشنة وقال: وهكذا تعود الفئران، أليس كذلك؟ إن مبلغ مليوني جنيه يفعل الشيء الكثير بالطبع، كان يجب أن أدرك هذا. ثم ضحك مرة أخرى وقال: سوف تساعدينني في تبديد هذا المبلغ، أليس كذلك يا ميراي؟ فأنت تعرفين كيف تفعلين هذا أكثر من أية امرأة أخرى.

وضحك مرة أخرى، فقالت الراقصة: اسكت، ماذا أصابك يا ديرك. انظر، إن الناس يلتفتون إليك.

- أنا؟ سأخبرك بما أصابني؛ لقد نفضت يدي منك يا ميراي، أتسمعينني؟ لقد انتهينا.

ولم تتلقّ ميراي الأمر كما توقع، بل نظرت إليه لحظة ثم ابتسمت في رقة وقالت: يا لك من طفل! لقد غضبت مني لا لشيء إلاّ لأنني امرأة عملية. ألم أقل لك دائماً إني مفتونة بك؟

ومالت إلى الأمام قليلاً ثم قالت: ولكنني أعرفك يا ديرك. انظر إليّ، انظر، أنا ميراي التي أتحدث إليك. أنت لا تستطيع أن تحيا بدونها، أنت تعلم هذا. لقد أحببتك من قبل، وسأحبك الآن أكثر مئة مرة، سأجعل الحياة رائعة بالنسبة لك، رائعة، فلا توجد امرأة مثل ميراي.

واحتدمت نظراتها، ورأته يبدو شاحباً لاهث الأنفاس فابتسمت لنفسها في رضا؛ كانت تعرف تماماً وقع سحرها على الرجال. قالت: إذن اتفقنا؟ هل ستدعوني إلى الغداء الآن؟

- أنا آسف، لقد أخبرتك أنني مرتبط بموعد.

- هل ستتناول غداءك مع سيدة أخرى؟ إنني لا أصدق.

- سأتناول غدائي مع هذه السيدة.

ثم سار إلى حيث كانت سيدة ترتدي ثوباً أبيض قد دخلت لتوها، فتحدث إليها وهو يلهث قليلاً: آنسة جراي، أتسمحين، أتسمحين بتناول الغداء معي؟ لقد التقينا في منزل الليدي تامبلين، أتذكرين؟

فنظرت إليه كاترين برهة بعينيها الرماديتين اللتين تقولان الكثير، ثم قالت بعد برهة صمت: شكراً، يسعدني ذلك.

* * *

كان الكونت دي لاروش قد فرغ لتوه من تناول غدائه، وبعد أن مسح شاربه الأسود الرقيق بالفوطة بلطف ترك المائدة وعبر الصالون. ثم أقبل الخادم هيبوليت يقول: سيدي، هناك سيدة تود مقابلتك.

- سيدة؟

- إنها سيدة لا تعرفها يا سيدي.

بدا الكونت أشد حيرة، ثم قال لخادمه: أدخلها إلى هنا.

وبعد برهة وجيزة كانت سيدة رائعة ترتدي ملابس تجمع بين البرتقالي والأسود تخطو إلى الشرفة يسبقها عطرها النفاذ. قالت: مسيو الكونت دي لاروش؟

وانحنى الكونت قائلاً: تحت أمرك يا آنسة.

- أنا أُدعى ميراي، ربما تكون قد سمعت عني؟

– آه، فعلاً، ومن منا لم يسحره رقص الآنسة ميراي؟ تفضلي بالجلوس يا آنسة، أرجوك.

وقدم لها مقعداً. وكان يرقبها سراً؛ كان الكونت يعلم الكثير عن النساء، حقاً إن تجاربه لم تكن مع نساء على شاكلة ميراي، بل كان هو وميراي من نفس الطينة، كانت باريسية سيئة السمعة، ورغم ذلك فقد كان هناك شيء لم تخطئه عيناه حين رآه، فقد أدرك لأول وهلة أنه في حضرة امرأة غاضبة، وحين تغضب المرأة فهي تقول الكثير. كان يعلم هذا جيداً، وغالباً ما تكون فرصة بالنسبة لرجل ثاقب الفكر إذا ما احتفظ بهدوء أعصابه.

– إنه لجميل منك أن تشرفيني بالزيارة يا آنسة.

– لقد سمعت عنك من أصدقاء لنا في باريس، ولكني حضرت اليوم لسبب آخر. لقد سمعت عنك منذ حضرت إلى نيس، ولكن بطريقة مغايرة، أتفهمني؟

– عفواً؟

– قد أكون قاسية، ولكن صدقني إنني أهدف إلى مصلحتك. إنهم يقولون في نيس أنك قاتل السيدة الإنجليزية مدام كترنج.

– أنا أنا قاتل مدام كترنج؟ يا للغرابة!

كان الفتور، لا الاستنكار، يغلب على كلامه؛ إذ كان يعلم أن هذا سيكون أكثر استفزازاً لها.

– نعم، إن الأمر كما أقول لك فعلاً.

قال الكونت بلا اكتراث: إنما يحلو للناس أن يثرثروا، ولا يليق بي أن آخذ هذه الاتهامات على محمل الجد.

مالت إلى الأمام وقد التمعت عيناها وقالت: أنت لا تفهمني؛

إنها ليست ثرثرة الناس، إن الشرطة هي من يعتقد ذلك.

اعتدل الكونت في جلسته وقال: الشرطة؟

فأومأت ميراي برأسها بشدة عدة مرات: نعم، نعم، أنت تفهمني؛ فلديّ أصدقاء في كل مكان، حتى الرئيس نفسه...

وتركت العبارة لم تكملها وهزت كتفيها فكان ذلك أبلغ من أي كلام. وهمس الكونت بأدب: ومن ذا الذي يستطيع أن يتمالك نفسه أمام امرأة جميلة؟

- الشرطة تعتقد أنك أنت الذي قتل مدام كترنج، ولكنهم مخطئون.

وافقها الكونت قائلاً ببساطة: بكل تأكيد.

- أنت تقول هذا لكنك لا تعلم الحقيقة. أنا فقط التي أعلمها.

فنظر إليها الكونت بدهشة وسألها: أتعرفين من قتل مدام كترنج؟ أهذا ما تودين الإفضاء به؟

أومأت ميراي برأسها بحماس وقالت: نعم.

فسألها الكونت: من هو؟

- زوجها.

ثم مالت ناحية الكونت وتحدثت بصوت خفيض امتزج به الغضب بالانفعال، واستطردت: إن زوجها هو الذي قتلها.

استند الكونت إلى ظهر كرسيه وقد جمد وجهه، وقال: هل لي أن أسألك يا آنسة كيف عرفت هذا؟

قفزت ميراي على قدميها وقالت وهي تضحك: كيف عرفت؟ لقد تفاخر بذلك حتى قبل أن يفعلها. كان مفلساً محطماً مجروح

الكرامة ولم يكن لينقذه إلاّ موت زوجته، هكذا قال لي، وقد سافر على نفس القطار الذي كانت به ولكنها لم تكن تعلم بوجوده، فلماذا فعل هذا؟ لكي يستطيع أن يهاجمها ليلاً.

وأغمضت عينيها وقالت: إنني أتخيل ما حدث أمام عيني الآن.

وسعل الكونت ثم قال: ربما، ربما. ولكن من المؤكد يا آنسة أنه ما كان ليسرق المجوهرات في هذه الحالة.

تنهدت ميراي قائلة: المجوهرات؟ المجوهرات! آه، أحجار الياقوت!

وسرحت بعينيها، ونظر الكونت إليها مندهشاً وهو يعجب للمرة المئة بما تحدثه المجوهرات من تأثير كالسحر في نفوس النساء، ثم أعادها إلى عالم الواقع قائلاً: ماذا تريدين مني أن أفعل يا آنسة؟

فأفاقت ميراي من أحلامها وعادت إلى الواقع مرة أخرى وقالت: الأمر في غاية البساطة؛ تذهب إلى الشرطة وتخبرهم بأن مسيو كترنج هو الذي ارتكب هذه الجريمة.

- وإذا لم يصدقوني؟ إذا طلبوا مني الدليل؟

كان ينظر إليها مدققاً، فضحكت بنعومة وقالت برقة: ابعث بهم إليّ يا سيدي وسأقدم لهم الدليل الذي يريدون.

عند ذلك الحد أسرعت بالخروج كالعاصفة وقد أدّت مهمتها. ونظر الكونت خلفها وقد ارتفع حاجباه وهو يتمتم: إنها في ثورة غضب، ترى ما الذي حدث فأغضبها إلى هذا الحد؟ ولكنها تكشف عن أوراقها، فهل تؤمن فعلاً بأن السيد كترنج هو قاتل

زوجته؟ وهي تريد مني أن أصدق هذا، بل إنها تريد من الشرطة أن تصدقه!

وابتسم لنفسه، ولم يكن في نيته أبداً أن يذهب إلى الشرطة. كانت هناك عدة احتمالات أخرى جعله التفكير فيها يبتسم. ولكن سرعان ما انعقد حاجباه، فحسبما قالت ميراي كانت الشرطة تشتبه فيه، وقد يكون هذا صحيحاً وقد لا يكون، فإن امرأة غاضبة من طراز الراقصة لم تكن لتهتم بصحة ما تقول. ومن ناحية أخرى ربما تكون قد حصلت على معلومات صحيحة، وفي هذه الحالة كان عليه أن يتخذ بعض الاحتياطات.

استدعى هيبوليت فسأله عما إذا كان أي غرباء قد حضروا؟ فأكد له الخادم أن أحداً لم يجئ إطلاقاً. ثم صعد الكونت إلى غرفته فذهب إلى حيث يوجد مكتب قديم، ورفع غطاءه ثم مد يده ليبحث عن زنبرك في فتحة فيه. وانفتح درج سري كانت توجد بداخله لفافة بنية اللون، فأخذها الكونت في يده كما لو كان يزنها، ورفع يده إلى رأسه فجذب شعرة واحدة وضعها على غطاء الدرج ثم أغلقه بعناية. وكان ما زال يحتفظ باللفافة في يده وهو ينزل، ثم خرج من البيت إلى الكاراج حيث كانت تقف سيارة قرمزية ذات مقعدين. وبعد عشر دقائق كان في طريقه إلى مونتي كارلو.

ونظر خلفه فابتسم. كانت السيارة الرمادية في إثره، وأخذت سيارته تقفز في الطريق المترب منطلقة بسرعة خطيرة، ثم أبطأ من سرعته حتى توقف تماماً أمام مكتب بريد، فقفز خارجاً وأخرج اللفافة البنية الصغيرة، ثم دخل بسرعة إلى المكتب. وبعد دقيقتين أخريين كان يتجه في طريق منتون مرة أخرى، وعندما وصلت السيارة الرمادية إلى هناك كان الكونت يشرب شاي الساعة الخامسة في شرفة أحد الفنادق.

بعد ذلك عاد إلى مونتي كارلو فوصل بيته في نحو الساعة الحادية عشرة تقريباً، وأقبل هيبوليت قائلاً: ألم تطلبني تليفونياً يا سيدي الكونت؟

وهزّ الكونت رأسه نفياً، فقال الخادم: لقد تلقيت استدعاء منك في الساعة الثالثة بأن أذهب إلى نيس وأقدم نفسي في مطعم النجرسكو.

- حقاً؟! وهل ذهبت؟

- بالتأكيد يا سيدي. ولكن هناك في النجرسكو لم يكونوا يعلمون شيئاً عن سيدي الكونت، لم يكن قد ذهب إلى هناك أصلاً.

- وبالطبع -في هذا الوقت- كانت ماري في السوق؟

- تماماً يا سيدي.

- لا بأس، لا أهمية لما حدث؛ مجرد غلطة.

وصعد إلى الدور العلوي وهو يبتسم. وعندما وصل إلى غرفته أغلقها بالمزلاج وجعل ينظر حوله بإمعان. بدا كل شيء كالمعتاد. وفتح الخزائن والأدراج، ثم أومأ برأسه. لقد أعيدت الأشياء إلى مكانها كما تركها، ولكن ليس تماماً. كان من الواضح أن الغرفة قد فُتّشت تفتيشاً دقيقاً.

وذهب إلى المكتب فضغط على الزنبرك المختفي، وفتح الدرج، ولكن الشعرة لم تكن حيث تركها. فأومأ برأسه عدة مرات وهمس قائلاً: إن البوليس الفرنسي ممتاز، ممتاز، لا يفوته شيء.

* * *

الفصل الثالث عشر

في الصباح التالي كانت كاترين ولينوكس تجلسان في شرفة فيلا مارجريت. وكان شعور ما بالصداقة ينمو بينهما رغم فارق العمر، فلولا لينوكس لوجدت كاترين الحياة في فيلا مارجريت لا تُحتمل. كانت قضية كترنج هي موضوع الساعة، واستغلت الليدي تامبلين صلة كاترين بالموضوع إلى أقصى حد، ولم تفلح أية محاولات من كاترين لإثناء الليدي تامبلين عن عزمها. أما لينوكس فكان موقفها مزدوجاً؛ كانت تجد تسلية في موقف أمها وفي نفس الوقت كانت تعطف على مشاعر كاترين. ولم يتدخل تشابي في الموقف، بل كان يجد متعة لا تبارى في تقديم كاترين إلى الجميع هكذا: هذه الآنسة جراي، أتذكرون جريمة القطار الأزرق؟ لقد عاشت الآنسة جراي كل ظروفها وكان لها حديث طويل مع روث كترنج قبل أن تقتل ببضع ساعات، إنها محظوظة فعلاً.

وقد أثارت بعض هذه الملاحظات كاترين في ذلك الصباح. وعندما كانت هي ولينوكس معاً همست الأخيرة في أذنها قائلة: أنت لم تعتادي أن يستغلك الآخرون، أليس كذلك؟ هناك أشياء كثيرة يجب أن تتعلميها يا كاترين.

- يؤسفني أنني قد فقدت أعصابي، هذا لا يحدث لي عادة.

- لقد حان الوقت لكي تتعلمي مواجهة هذه المواقف. إن تشابي مغفل ولا ضرر منه، أما أمي فهي تحاول استغلالك بالطبع، ولكن أمام قدرتك لن يسعها أن تفعل شيئاً بل ستكتفي بالنظر إليك بعينين زرقاوين حزينتين.

ولم تجب كاترين، فاستطردت لينوكس قائلة: أما أنا فأكاد أكون مثل تشابي، أجد متعة في حادثة قتل مثيرة، وإلى جانب ذلك فإن معرفتي بديرك تجعل الأمر مختلفاً.

وأومأت كاترين برأسها فعادت لينوكس تسألها وهي تفكر: لقد تناولت الغداء معه أمس. ترى أيعجبك يا كاترين؟

فكرت كاترين برهة ثم قالت بحذر شديد: لا أدري.

- إنه جذاب تماماً.

- نعم، هو كذلك.

- وما الذي لا يعجبك فيه؟

لم تجب كاترين عن السؤال، أو على الأقل لم تجب عنه مباشرة، بل قالت: لقد تحدث عن موت زوجته؛ قال إنه ضربة حظ بالنسبة له ولن يتظاهر بغير ذلك.

- وقد صدمك قوله هذا على ما أعتقد، أليس كذلك؟

وتوقفت عن الكلام برهة، ثم استطردت تقول بنبرة غريبة: إنه معجب بك يا كاترين.

فابتسمت كاترين وقالت: لقد دعاني إلى غداء شهي فاخر.

ولكن لينوكس لم تكن لتخدع. قالت وهي ساهمة: لقد رأيت ذلك يوم أن حضر إلى هنا... الطريقة التي كان ينظر إليك بها. أنت لست من طرازه بل أنت على نقيضه تماماً.

وهنا لاحت ماري عند شرفة الصالون وقالت: تليفون للآنسة، من مسيو بوارو.

- مزيد من الدماء والعنف! هيا يا كاترين، اذهبي واقطعي الوقت مع مخبرك المشهور.

وعبر سماعة التليفون وصلها صوت بوارو، أنيقاً دقيقاً: الآنسة جراي؟ اسمعي يا آنستي، إنني أحمل لك رسالة من مسيو فان أولدين، والد مدام كترنج، إذ يرغب في التحدث إليك إما في فيلا مارجريت وإما في الفندق حيث يقيم، حيثما شئت.

فكرت كاترين لحظة ثم قررت أن حضور فان أولدين إلى الفيلا سيثير أشجانه وستجدها الليدي تامبلين فرصة لتكوّن صداقة جديدة مع أحد أصحاب الملايين، ولذلك أخبرت بوارو بأنها تفضل الذهاب إلى نيس.

- جميل، سأمر عليك بالسيارة بعد نحو ثلاثة أرباع الساعة.

في الموعد المحدد تماماً حضر بوارو، وكانت كاترين في انتظاره فاستقلّت السيارة معه وانطلقا إلى نيس في الحال. نظرت كاترين إلى عينيه اللامعتين وتأكد شعورها بأن بوارو ممتع بجاذبية خاصة، وقال بوارو: هذه هي قصتنا البوليسية، لقد وعدتك بأن ندرسها معاً وأنا أفي بوعودي دائماً.

همست كاترين: أنت في غاية اللطف.

- والآن، أتريدين سماع تطورات القضية؟

صرحت كاترين بأنها تود ذلك فعلاً، فراح بوارو يرسم لها صورة دقيقة للكونت دي لاروش. وسألته كاترين وهي مستغرقة في التفكير: أتعتقد أنه هو الذي قتلها؟

فرد بوارو بتحفظ: هذه هي النظرية.

- ولكن، هل تؤمن أنت بها؟

- لم أقل هذا. وأنت يا آنسة، ما رأيك؟

هزّت كاترين رأسها وقالت: وأنى لي أن أعرف؟ أنا لا أعلم شيئاً عن هذه الأمور، ولكن أستطيع أن أقول...

قال بوارو مشجّعاً: نعم؟

- من كلامك عن الكونت يبدو أنه ليس بالرجل الذي يقتل أي إنسان.

هتف بوارو: جميل جداً؛ إذن فنحن متفقان في الرأي، هذا هو ما قلته أنا نفسي. ثم نظر إليها بحدة وقال: ولكن أخبريني، هل التقيت بديرك كترنج؟

- لقد التقيت به في منزل الليدي تامبلين ثم تناولت الغداء معه أمس.

فهزّ بواور رأسه وقال: هذا أمر سيء. يا للنساء! تستهويهن هذه الأشياء، أليس كذلك؟

والتمعت عيناه وهو ينظر إلى كاترين، فضحكت.

قال بوارو: إنه من ذلك النوع من الرجال الذي يلفت النظر في أي مكان يكون فيه. لا شك أنكِ لاحظت وجوده في القطار؟

- نعم، لقد رأيته.

- في عربة الأكل؟

- لا، لم أره أثناء الطعام أبداً، ولكني رأيته مرة واحدة وهو يدخل مقصورة زوجته.

فأومأ بوارو برأسه وهمس: هذا غريب! وفكر قليلاً ثم قال: لقد قلتِ يا آنسة إنك استيقظت ونظرت من النافذة عند بلدة ليون، ألم تري رجلاً أسمر يشبه الكونت دي لاروش ينزل من القطار؟

فهزّت كاترين رأسها وقالت: لا أعتقد أنني رأيت أي شخص أبداً إلاّ صبياً كان يضع كاباً على رأسه ويرتدي معطفاً ثقيلاً، نزل من القطار وأخذ يتمشى على الرصيف قليلاً، وكان هناك أيضاً رجل فرنسي ضخم ذو لحية يرتدي بيجاما وعليها معطف، وقد طلب قدحاً من القهوة. وفيما عدا هذين الشخصين لم أر إلاّ عمال القطار.

فأومأ بوارو برأسه عدة مرات، ثم قال: الكونت دي لاروش يقول إنه كان في مكان آخر وقت ارتكاب الجريمة، ومثل هذا القول يدعو دائماً إلى الشك. ولكن ماذا يفعل؟

عند ذلك وصلت السيارة إلى مقصدها، فصعدا إلى جناح فان أولدين مباشرة حيث وجدا نايتون، فقدمه بوارو إلى كاترين. وبعد تبادل عبارات التحية المعتادة قال: سأخبر السيد فان أولدين بوجود الآنسة جراي.

دخل إلى غرفة مجاورة، وبعد تبادل بعض الهمس الخفيف دخل فان أولدين إلى الغرفة فتقدم ناحية كاترين ماداً يده وهو ينظر إليها نظرة فاحصة. وقال ببساطة: أنا مسرور لرؤيتك يا آنسة جراي. لقد كنت في أشد الحاجة لأن أسمع منك كل شيء عن روث.

أعجبت كاترين ببساطة المليونير أشد الإعجاب، وأحست بحزنه العميق رغم أنه لم يبدُ عليه ما يعبّر عن مشاعره الدفينة.

قدم لها كرسياً وهو يقول: هلا جلست؟ أرجو أن تحدثيني بكل شيء.

انسحب بوارو ونايتون بلباقة إلى الغرفة الأخرى وبقيت كاترين مع فان أولدين وحدهما، ولم تجد أية صعوبة في مهمتها بل راحت تروي له تفاصيل حديثها مع روث ببساطة وبطريقة طبيعية، كلمة كلمة، على قدر ما وعته ذاكرتها. وحين انتهت من سرد ما حدث قال بهدوء: شكراً يا عزيزتي.

وجلسا صامتين بضع دقائق، وأحست كاترين بأن أية كلمة عزاء تقولها لن يكون لها مكان. وحين تحدث المليونير كانت نبرته قد تغيرت: إنني أشعر بالامتنان لك يا آنسة؛ لقد فعلت شيئاً لتخففي بعض ما كان يعتمل في نفس المسكينة روث في ساعاتها الأخيرة. والآن أود أن أسألك: إنك تعرفين الوغد الذي تورطت معه ابنتي، إذ لا بد أن السيد بوارو قد حدثك عنه؛ الرجل الذي كانت ذاهبة للقائه. أتظنين أنها قد غيرت رأيها بعد الحديث الذي دار بينكما؟ أتعتقدين أنها تراجعت؟

- بصراحة لا أستطيع أن أقرر. لا شك أنها قد توصلت إلى قرار بدت أكثر مرحاً بعد أن اتخذته.

- ألم تقل لك عن المكان الذي كانت تزمع مقابلة ذلك الوغد فيه؟ أفي باريس أم في أيير؟

فهزت كاترين رأسها وقالت: لا، لم تشر إلى هذا الموضوع أبداً.

قال فان أولدين وهو مستغرق في أفكاره: هذه هي النقطة المهمة. لا بأس، سيتضح كل شيء مع الوقت.

ونهض وفتح باب الغرفة المجاورة فدخل بوارو ونايتون. واعتذرت كاترين عن دعوة المليونير لها إلى الغداء، ونزل معها نايتون فرافقها حتى السيارة التي كانت تنتظر، ثم عاد ليجد بوارو

وفان أولدين مستغرقين في الحديث.

قال المليونير وهو يفكر: فقط لو عرفنا ماذا كان القرار الذي اتخذته روث. ربما كانت قد قررت أن تغادر القطار في باريس وتبرق إليّ، وربما كانت قد قررت المضي في رحلتها إلى جنوب فرنسا لتبحث الأمر مع الكونت هناك. إننا لا نعرف أبداً ما الذي عزمت عليه، ولكن الوصيفة تؤكد أنها عندما رأت الكونت في محطة باريس ارتسمت على وجهها علامات الحزن والدهشة معاً، إذ لم يكن هذا اللقاء جزءاً من الخطة الموضوعة. أتوافقني يا نايتون؟

بوغت نايتون وقال: عفواً يا سيد فان أولدين، لم أكن منصتاً.

فقال فان أولدين: كنت شارداً، أليس كذلك؟ إن الشرود ليس من صفاتك، وأغلب الظن أن الفتاة قد أسرتك.

احمرّ وجه نايتون فقال فان أولدين: إنها لطيفة بشكل ملحوظ، لطيفة جداً، ألاحظت عينيها؟

فردّ نايتون بقوله: ما من رجل يراها إلاّ وتأسره هاتان العينان.

* * *

مرت بضعة أيام. وكانت كاترين تتمشى بمفردها ذات صباح، ثم عادت لتجد لينوكس في انتظارها تبتسم، فبادرتها بقولها: لقد ظل صديقك يتصل بك تليفونياً كل يوم.

- ومن هو هذا الذي تسمينه صديقي؟

- صديق جديد؛ سكرتير روفوس فان أولدين. يبدو أنك قد تركت في نفسه تأثيراً كبيراً. لقد أصبحتِ محطِّمة قلوب يا كاترين! أولاً ديرك كترنج، والآن نايتون. والغريب أنني أذكره جيداً، إذ

رأيته في المستشفى العسكري الذي كانت تديره أمي، وكنت حينذاك صبية في الثامنة.

- وهل كانت إصابته خطيرة؟

- إذا لم تخني الذاكرة فقد كانت مصاباً برصاصة في ساقه.

- وأغلب الظن أن الأمر اختلط على الأطباء، إذ قالوا إن الإصابة لن تتسبب في إحداث أي عرج أو غيره، ولكن عندما غادر المستشفى كان ما زال يعرج.

خرجت الليدي تامبلين وانضمت إليهما، وتساءلت: هل أخبرت كاترين عن الميجور نايتون؟ يا للعزيز! لم أستطع أن أتذكره أولاً فقد كان المستشفى يعج بعدد كبير من الجرحى، ولكني الآن أتذكر كل شيء.

قالت لينوكس: لم يكن شخصاً مهماً حتى تتذكريه، أما الآن وقد أصبح سكرتيراً لمليونير أمريكي فالأمر مختلف تماماً.

فقالت لها الليدي تامبلين بلهجة عتاب: عزيزتي!

- ولماذا اتصل تليفونياً؟

قالت لينوكس: كان يسأل ما إذا كنت تستطيعين الذهاب إلى ملعب التنس بعد ظهر اليوم، فإذا استطعت سيمر عليك بالسيارة. وقد قبلنا الدعوة نيابة عنك، فحين تقضين وقتك مع سكرتير المليونير تتركين لي فرصة مع المليونير نفسه! أعتقد أنه في نحو الستين، ولذا فهو يتطلع إلى فتاة حلوة صغيرة مثلي.

وقالت الليدي تامبلين بلهفة: لكم أود أن ألتقي بالسيد فان أولدين؛ لقد سمعت عنه الكثير. إنهم مدهشون هؤلاء الأمريكيين.

وقالت لينوكس: لقد كان الميجور نايتون حريصاً على أن يقول إن الدعوة من قبل السيد فان أولدين، وقد كرر هذا الأمر كثيراً لدرجة جعلت الشك يتبادر إلى ذهني. ليباركهما الله يا أطفالي!

ضحكت كاترين وصعدت إلى الدور العلوي لتستبدل ملابسها. وأقبل نايتون بعد الغداء مباشرة فأمطرته ليدي تامبلين بعبارات الترحيب. وبينما هما منطلقان إلى كان. قال لكاترين: إن الليدي تامبلين لم تتغير إلاّ تغيراً طفيفاً جداً.

- في السلوك أم في المظهر؟

- في الاثنين. وأعتقد أنها قد تجاوزت الأربعين، ولكنها جميلة فعلاً بالنسبة لسنها.

قالت كاترين: هذا صحيح.

واستطرد نايتون يقول: أنا في غاية السعادة لحضورك اليوم، وسيكون السيد بوارو موجوداً أيضاً. يا له من شخصية غير عادية! أتعرفينه جيداً يا آنسة جراي؟

- لقد التقينا في القطار في الطريق إلى هنا؛ إذ كنت أقرأ رواية بوليسية وأبديت عدم تصديقي لحدوث مثل هذه الأشياء في الواقع، ولكني لم أكن أعلم من هو بالطبع.

قال نايتون وهو يتحدث ببطء: إنه شخص مرموق وقد قام بأعمال مجيدة، ولديه موهبة التوصل إلى جذور الحقيقة. لا أحد يعلم أبداً ما الذي يدور بفكره حتى النهاية. أذكر أنني كنت أقيم بمنزل في يوركشير حين سُرقت مجوهرات الليدي كلانرافون، وبدا الحادث في البداية جريمة سرقة عادية، ولكنها حيرّت الشرطة المحلية، وقد نصحتهم باستدعاء بوارو ليبحث الأمر وقلت إنه الشخص الوحيد الذي يمكنه مساعدتهم. ولكنهم كانوا يعلّقون

الآمال على سكوتلانديارد.

تساءلت كارتين بدهشة: وماذا حدث؟

فرد نايتون بلهجة جافة: لم تعد المجوهرات أبداً.

- وهل تؤمن به حقاً؟

- نعم، فالكونت دي لاروش محتال عنيد استطاع أن ينفذ بجلده في أغلب الأحيان، ولكني أعتقد أنه قد وجد في هيركيول بوارو نداً له.

قالت كاترين وهي مستغرقة في التفكير: أتعتقد أن الكونت دي لاروش هو الذي فعلها؟

فنظر إليها نايتون بدهشة وقال: طبعاً، ألا تعتقدين أنت هذا؟

أسرعت كاترين تقول: نعم، أعني لو أن الأمر كان مجرد حادث سرقة عادي.

- ربما كان الأمر كذلك، ولكن يبدو لي أن الكونت دي لاروش هو الفاعل الحقيقي لهذا الحادث.

- ربما، لكنه أثبت وجوده في غير مكان الجريمة.

ضحك نايتون وارتسمت على وجهه ابتسامة جذابة وهو يقول: أتقولين إنك تقرئين الروايات البوليسية يا آنسة جراي؟ فلا بد إذن أنك تعرفين أن الشخص الذي يثبت بعده تماماً عن مكان الجريمة يكون عرضة دائماً للاشتباه في أمره.

تساءلت كاترين وهي تبتسم: أتظن أن مثل هذه الأشياء تحدث في الواقع؟

- ولمَ لا؟ إن الخيال دائماً مبني على الواقع.

- ولكنه يفوقه أحياناً.

- ربما، على أية حال لو أنني مجرم فلن أود أبداً أن يتعقبني هيركيول بوارو.

فضحكت كاترين وقالت: ولا أنا أيضاً.

* * *

استقبلهم بوارو، ولما كان الجو حاراً فقد كان يرتدي بذلة بيضاء، وقد وضع في عروة سترته زهرة من زهور الكاميليا البيضاء. وقال: يوم سعيد يا آنسة، إنني أبدو إنجليزياً تماماً، أليس كذلك؟

فقالت كاترين بلباقة: إنك تبدو رائعاً.

قال بوارو: أنت تتسلين على حسابي، ولكن لا بأس، بابا بوارو هو الذي يضحك أخيراً.

سأل نايتون: أين السيد فان أولدين؟

سنقابله حيث نجلس. أقول لك الحق يا صديقي: إنه ليس راضياً عني تمام الرضا. يا لهؤلاء الأمريكيين! إنهم لا يعرفون الراحة ولا الهدوء. لكم يتمنى السيد فان أولدين أن أطير متعقباً المجرمين في جميع أنحاء نيس.

فقال نايتون: أعتقد أنها فكرة لا بأس بها.

فرد بوارو: إنك مخطئ، ففي هذه الأمور لا يحتاج المرء إلى النشاط بقدر ما يحتاج إلى المهارة، وفي ملعب التنس يلتقي المرء بكل الناس، وهذا له أهمية كبرى. آه، ها هو السيد كترنج.

أقبل ديرك نحوهم، وكان يبدو منفعلاً غاضباً كما لو كان قد أثاره شيء. وتبادل مع نايتون تحية يشوبها البرود، وظل بوارو

وحده غير شاعر بأي توتر، وجعل يثرثر بمرح عله يهدّئ من أعصاب الجميع. وظل ينثر مجاملاته الرقيقة فقال: من المدهش يا سيد كترنج أنك تتحدث الفرنسية بطلاقة كأهلها تماماً، وهو شيء نادراً ما يتوفر في شخص إنجليزي الأصل.

فقالت كاترين: لكم أتمنى أن أكون كذلك، فأنا أدرك تماماً أنني أتحدث الفرنسية بلكنة إنجليزية.

كانوا قد وصلوا إلى مقاعدهم فجلسوا، ولاحظ نايتون أن فان أولدين يشير إليه من الناحية الأخرى للملعب فذهب ليتحدث معه، وقال بوارو وهو يبتسم ويتبع السكرتير بنظراته: إنني معجب بهذا الشاب، وأنت يا آنسة؟

- أنا معجبة به جداً.

- وأنت يا كترنج؟

كان على وشك أن يبتسم، ولكن شيئاً ما في عيني البلجيكي القصير اللامعتين جعله يتوقف فجأة ويتكلم بحذر وهو يتخير كلماته: إن نايتون شخص لطيف جداً.

وخيل لكاترين أن بوارو قد ظهرت عليه خيبة الأمل لحظة وقالت: إنه شديد الإعجاب بك يا سيد بوارو.

قصّت عليه بعض ما حدّثها به نايتون، وأعجبها أن الرجل القصير بدا منتفخ الأوداج متظاهراً بالتواضع، وقال فجأة: هذا يذكّرني بشيء يا آنسة؛ فهناك سؤال أريد أن أستوضحه منك. عندما كنت تتحدثين مع السيدة المسكينة في القطار أعتقد أن علبة سجائرك قد سقطت منك؟

لاحت الدهشة على وجه كاترين وقالت: لا أعتقد ذلك.

فأخرج بوارو من جيبه علبة سجائر من الجلد الأزرق الفاتح عليها حرف «ك» بالذهب، فقالت كاترين: لا، إنها ليست لي.

- أنا آسف، لا بد أنها تخص السيدة، فحرف «ك» أول حرف من اسمها، ولكن وجود علبة سجائر أخرى في حقيبتها جعلنا نشك في الأمر وبدا غريباً أن تحمل علبتين.

ثم التفت إلى ديرك فجأة وقال: هل تعلم ما إذا كانت العلبة تخص زوجتك أم لا؟

وبدا على ديرك أنه قد فوجئ بالسؤال، فتلعثم قليلاً في الإجابة وهو يقول: لا أدري، ربما كانت كذلك.

- ولكنها ليست علبتك بأي حال من الأحوال؟

- بكل تأكيد، فلو كانت تخصني لما وجدتها مع زوجتي.

بدا بوارو أكثر بساطة عن ذي قبل، وقال ببراءة: ظننت أنها ربما تكون قد سقطت منك عندما كنت في مقصورة زوجتك.

- ولكني لم أذهب إلى هناك أبداً، وقد قلت ذلك للشرطة مئة مرة.

فقال بوارو بلهجة اعتذار: أنا في غاية الأسف، فإن الآنسة هي التي قالت إنها رأتك تدخل المقصورة.

توقف عن الكلام وقد لاح عليه الارتباك، ونظرت كاترين إلى ديرك فبدا وجهه شاحباً، أو ربما كان هذا هو ما تخيلته، ولكن عندما ضحك كانت ضحكته طبيعية وقال ببساطة: لقد أخطأت يا آنسة جراي، فمما أخبرني به الشرطة أستطيع أن أستنتج أن مقصورتي كانت تبعد بواحدة أو اثنتين عن مقصورة زوجتي، بالرغم من أني لم أعلم بهذا الأمر وقتئذ، ولا شك أنك رأيتني

أدخل مقصورتي.

ثم نهض بسرعة عندما رأى فان أولدين ونايتون قادمين، وقال: سأترككما الآن، فإنني لا أستطيع أن أتحمل حماي مهما كان الثمن.

وحيّا فان أولدين بأدب شديد، ولكنه كان يبدو منحرف المزاج.

قال فان أولدين: يبدو أنك مغرم بمشاهدة مباريات التنس يا سيد بوارو؟

- إنها متعة بالنسبة لي.

قال فان أولدين: من حسن الحظ أنك تعيش في فرنسا، ففي الولايات المتحدة يأتي العمل أولاً، يبدو أننا أصلب عوداً.

لم يتضايق بوارو لهذا الكلام بل ابتسم للمليونير وقال: لا تزعج نفسك أرجوك، فلكل طريقته. أما عن نفسي فأجد أن مزج العمل باللهو فكرة ممتعة.

ونظر إلى نايتون وكاترين فوجدهما مستغرقين في الحديث، فأومأ برأسه في رضا، ثم مال ناحية المليونير وقال له بصوت خفيض: أنا لست هنا لمجرد المتعة يا سيد فان أولدين. انظر هناك في الجانب الآخر، ذلك الرجل الطويل المتقدم في السن ذي الوجه الأصفر والذقن الطويلة.

- وماذا عنه؟

- إنه السيد بابوبولوس.

- أهو يوناني؟

- تماماً كما تقول؛ يوناني، وهو يتاجر في العاديات ذات

الشهرة العالمية. إنه يملك متجراً صغيراً في باريس لكن الشرطة تشتبه في أن يكون له نشاط آخر.

- ماذا يظنون؟

- يعتقدون أنه يتاجر بالبضائع المسروقة، وبصفة خاصة في المجوهرات، فهو لا يُبارى في إعادة صياغة المجوهرات.

راح فان أولدين ينظر إلى بوارو وقد أثار هذا الكلام اهتمامه، وسأله بنبرة متغيرة: نعم؟

فقال بوارو: إنني لأسأل نفسي، أنا هيركيول بوارو...

وأشار بإصبعه إلى صدره بطريقة مسرحية وقال: أسأل نفسي: ما الذي أتى بالسيد بابوبولوس إلى نيس فجأة؟

وبان تأثير هذا الكلام على فان أولدين. كان قد شك في بوارو وفي أنه لم يعد يمارس عمله الآن كما مضى، ولكن في تلك اللحظة عاد إلى رأيه السابق فيه فنظر إليه نظرة مباشرة وقال: يجب أن أعتذر إليك يا سيد بوارو.

فلوح بوارو بإشارة من يده كمن يلقي بالاعتذار بعيداً وصاح: كل هذا لا يهم، والآن اسمع يا سيد فان أولدين، فلديّ أخبار لك.

فنظر إليه المليونير وقد تزايد اهتمامه، وأومأ بوارو برأسه: إن الأمر كما سأقول لك. كما تعلم كان الكونت دي لاروش مراقَباً منذ لقائه مع قاضي التحقيق، وفي اليوم التالي لذلك وأثناء غيابه أجرت الشرطة تفتيشاً لفيلا مارينا.

سأله فان أولدين: وهل وجدوا شيئاً؟ أراهن أنهم لم يجدوا أي شيء.

- لست مخطئاً في استنتاجك يا سيدي، فهم لم يجدوا شيئاً يدينه. ولم يكن من المتوقع أن يجدوا شيئاً، فالكونت دي لاروش ليس حديث عهد بهذا العمل بل هو رجل ذو خبرة عريضة.

قال فان أولدين: استمر.

- ربما لم يكن لدى الكونت شيء يستحق أن يخفيه، ولكن يجب ألا يُطرح الاحتمال الآخر جانباً، فلو كان لديه ما يخفيه فأين هو؟ ليس في المنزل بالطبع، فقد فُتّش تفتيشاً دقيقاً، وليس في ثيابه فهو يعلم تماماً بأنه من المحتمل القبض عليه في أية لحظة. تبقى السيارة إذن، وكما قلت لقد كان مراقَباً، وقد تتبعوه في ذلك اليوم إلى مونتي كارلو التي ذهب منها إلى منتون وهو يقود السيارة بنفسه، ولما كانت سيارته قوية جداً فقد سبق مطارديه واختفى عن الأنظار تماماً لمدة ربع ساعة تقريباً.

وهنا سأله فان أولدين باهتمام شديد: وفي هذه الأثناء، أتعتقد أنه أخفى شيئاً إلى جانب الطريق؟

- لا، ليس إلى جانب الطريق فليس هذا بالحل العملي. لذلك اقترحت على مسيو كاريج اقتراحاً بسيطاً وافق عليه، ففي كل مكتب بريد في المنطقة تأكدنا من أن هناك من يعرف الكونت دي لاروش شخصياً، وذلك لأن أحسن وسيلة لإخفاء شيء هي إرساله بالبريد.

سأله فان أولدين ووجهه يضيء اهتماماً وانتظاراً: وبعد؟

- وبعد ذلك، ها هي.

وبحركة مسرحية أخرج من جيبه لفافة بنية اللون أزيلت من حولها الخيوط التي كانت تلفها وقال: في أثناء تلك الربع ساعة أرسل الرجل هذه اللفافة بالبريد.

- والعنوان؟

- كان من الممكن أن يدلنا على شيء، ولكنه لسوء الحظ لم يوصلنا إلى ما كنا نريد؛ فالرسالة معنونة باسم أحد المكاتب التي تحتفظ بالخطابات والطرود حتى يتسلمها أصحابها بعد دفع رسم بسيط.

سأله فان أولدين بصبر نافد: نعم، ولكن ما الذي في داخل اللفافة؟

فضّ بوارو الغلاف البني وأخرج علبة مربعة، ثم نظر حوله وقال: الآن الوقت مناسب لتراها، انظر يا سيدي.

ورفع غطاء العلبة جزءاً من الثانية فانطلقت من المليونير صيحة دهشة بالغة، وابيض وجهه وقال: إلهي! أحجار الياقوت؟

وجلس لحظة مذهولاً فيما أعاد بوارو الصندوق إلى جيبه بهدوء وقد أضاء وجهه، وفجأة أفاق المليونير من ذهوله فمال ناحية بوارو وضغط يده بحرارة حتى آلمه، وقال: هذا عظيم، عظيم. إنك رائع، رائع!

قال بوارو بتواضع: عفواً، إن الموضوع يتلخص في الترتيب والأسلوب والاستعداد لأية مفاجآت قبل أن أتحدث، هذا كل ما في الأمر.

- والآن أعتقد أنه قد ألقي القبض على الكونت دي لاروش؟

- لا.

بدت الدهشة البالغة على وجه فان أولدين: ولكن لماذا؟ ماذا تريد أكثر من هذا؟

- الدليل على تغيب الكونت عن مكان الجريمة لم يتزعزع.

- ولكن هذا كلام فارغ.

- نعم، أعتقد أنه كذلك، ولكن لسوء الحظ يجب أن يكون لدينا الدليل لدحضه.

- وفي هذه الأثناء يتسلل هو من بين أصابعكم؟

هزّ بوارو رأسه بشدة وقال: كلا، لن يفعل هذا، فالشيء الوحيد الذي لا يستطيع الكونت أن يضحي به هو مركزه الاجتماعي، ومهما كان الثمن فسيبقى ليدافع عنه.

بدا فان أولدين غير مقتنع وقال: ولكني لا أرى...

فرفع بوارو يده وقال: امنحني بعض الوقت يا سيدي فلديّ فكرة صغيرة. ولكم سخر بعض الناس من أفكار بوارو الصغيرة، ولكن ثبت خطؤهم.

- حسناً، استمر في طريقك. ما هي هذه الفكرة الصغيرة؟

صمت بوارو برهة ثم قال: سأحضر لزيارتك غداً صباحاً في الفندق الذي تقيم فيه، في الحادية عشرة تماماً. فحتى نلتقي لا تفتح فمك بكلمة واحدة.

* * *

الفصل الرابع عشر

كان بابوبولوس يتناول طعام الإفطار وقد جلست ابنته زيا على المقعد المقابل. وسُمعت دقات على باب الحجرة، ثم دخل خادم يحمل في يده بطاقة أعطاها للسيد بابوبولوس، فقرأها وقد رفع حاجبيه ثم سلمها إلى ابنته.

حكّ بابوبولوس أذنه اليسرى بيده وقال وهو يفكر: هيركيول بوارو؟ إني لأعجب للأمر.

وتبادل الأب والابنة النظرات، ثم قال بابوبولوس: لقد رأيته أمس في ملعب التنس. زيا، إنني لا أشعر بالارتياح لهذه الزيارة.

فقالت له ابنته تذكّره: لقد كان نافعاً لك ذات مرة.

أجاب بابوبولوس بقوله: نعم، وقد سمعت أنه اعتزل عمله.

دار هذا الحديث بين الأب وابنته باليونانية، ثم التفت بابوبولوس إلى الخادم وقال: دعه يتفضل.

وبعد بضع دقائق دخل بوارو إلى الغرفة مرتدياً ملابس فخمة وهو يلوح بعصا في يده، وقال: أهلاً يا عزيزي بابوبولوس، أهلاً بالآنسة زيا.

- أهلاً عزيزي بوارو. لا بد أن الذي جاء بك أمر مهم؟

- نعم، جئت بسبب قضية مصرع مدام كترنج.

فرفع بابوبولوس رأسه وقال ببراءة: دعني أتذكر، أليست هذه هي السيدة التي توفيت في القطار الأزرق؟ لقد قرأت عنها في الصحف ولكن لم يكن هناك ما يوحي بوجود جريمة في الموضوع.

- كان من الضروري إخفاء حقيقة الأمر ضماناً لسير العدالة.

تلت ذلك فترة صمت، ثم سأل بوارو التاجر في أدب: سأصل بك إلى النقطة المهمة.

ثم أخرج من جيبه الصندوق الصغير الذي عرضه من قبل على فان أولدين ففتحه، ثم أخرج الياقوتة منه ودفعها إلى بابوبولوس عبر المنضدة. كان بوارو يرقب الرجل العجوز وهو يفحص المجوهرات، ثم قال: كم تقدّر ثمناً لها؟

قال بابوبولوس وهو يعيد المجوهرات إلى بوارو: إنها تقليد رائع. أيكون حمقاً مني أن أسألك كيف عثرت عليها؟

- لا، أبداً؛ ليس لديّ اعتراض على أن أخبر صديقاً قديماً مثلك. لقد كانت في حوزة الكونت دي لاروش.

رفع بابوبولوس حاجبيه قائلاً: حقاً؟

مال بوارو إلى الأمام وبدت عليه البراءة وهو يقول: سيد بابوبولوس، سأكشف لك أوراقي. لقد سُرقت المجوهرات الأصلية من مدام كترنج في القطار الأزرق، والآن أقول لك: لا يهمني استعادة هذه المجوهرات فهذا من شأن الشرطة، وأنا لا أعمل لحساب الشرطة بل أعمل لحساب السيد فان أولدين وأريد أن أضع يدي على قاتل مدام كترنج، واهتمامي بالمجوهرات يقف

عند هذا الحد، أتفهمني؟

كان للكلمة الأخيرة وقع له مغزاه، فقال بابوبولوس دون أن يهتز: استمر.

- من المحتمل أن المجوهرات ستباع في نيس، إذا لم تكمن قد بيعت فعلاً.

- آه!

ورشف قهوته وهو مستغرق في التفكير، واستطرد بوارو قائلاً: لقد قلت لنفسي: يا للحظ السعيد! إن صديقي القديم السيد بابوبولوس هنا، وسوف يقدم لي يد المساعدة.

فتساءل بابوبولوس ببرود: وكيف أستطيع مساعدتك؟

- لقد قلت لنفسي: لا شك أن السيد بابوبولوس في نيس في مهمة.

فرد بابوبولوس بقوله: لا، أبداً؛ أنا هنا لأسباب صحية.

والتقت عيون الرجلين. واستمر بوارو في حديثه ببطء شديد، وكان واضحاً أنه ينتقي ألفاظه: لقد قلت لنفسي: لو أن الجواهر عرضت للبيع هنا فلا بد أن يعلم السيد بابوبولوس بذلك. ثم أضاف بعد قليل: الشرطة لا دخل لها بالموضوع، فهو موضوع شخصي بحت.

قال بابوبولوس بحذر: إن الإشاعات سريعاً ما تنتشر.

- مثل ماذا؟

- أمن الضروري أن أقول؟

- نعم، ولعلك تذكر يا سيد بابوبولوس أنه، منذ سبعة عشر

عاماً، كان «شيء ما» قد تُرك لديك أمانة من طرف شخصية هامة جداً، كان في حوزتك ثم اختفى، فصرتَ في موقف لا تحسد عليه. وكنتُ في باريس في ذلك الوقت، فأرسلت بطلبي وعهدت إليّ بالأمر وقلت إنني لو رددت لك ذلك الشيء فلن تنسى لي ذلك الجميل أبداً. حسناً، لقد استعدته لك.

زفر بابوبولوس زفرة طويلة وهمس قائلاً: لقد كانت أسوأ لحظة في حياتي كلها.

- إن سبعة عشر عاماً فترة زمنية طويلة، ولكني أعتقد أنك تنحدر من جنس لا ينسى شيئاً.

تمتم بابوبولوس بابتسامة ساخرة: أنت على حق يا مسيو بوارو، وكما تقول فإننا لا ننسى.

- إذن فستساعدني؟

- فيما يختص بالمجوهرات لا أستطيع أن أفعل شيئاً.

كان العجوز ينتقي كلماته، تماماً مثل بوارو، وقال: أنا لا أعلم شيئاً، ولكني ربما استطعت أن أسدي إليك معروفاً، إذا كنت مهتماً بسباق الخيل؟ هناك جواد يجري في لونشان، يدفع كثيراً. لست متأكداً تماماً، أتفهمني؟ لقد تردد هذا الكلام.

وتوقف، ورمق بوارو بعينيه كما لو كان يتأكد من أنه قد فهم ما يقصده. قال بوارو: تماماً، تماماً.

ومال العجوز إلى الخلف وعقد أطراف أصابعه، ثم قال: إن اسم الجواد هو «الماركيز»، وأعتقد -وإن كنت غير واثق- أنه جواد إنجليزي. أليس كذلك يا زيا؟

ردّت الفتاة: وأنا أيضاً أعتقد ذلك.

فرفع بوارو رأسه بسرعة وقال: شكراً يا سيدي، إنه لعظيم أن يحصل المرء على المعلومات من مصادرها الموثوق بها. وداعاً وشكراً جزيلاً.

وسار بوارو في الشارع يدندن لنفسه ويلوح بعصاه، ثم اتجه إلى أول مكتب بريد ليرسل برقية، وقد استغرق وقتاً في كتابتها، إذ كان يكتبها بالشيفرة وكان عليه أن يحاول التذكر، وقد وجهها إلى المفتش جاب في سكوتلانديارد.

وحين حُلّت الرموز كانت البرقية قصيرة وكما يلي: «أبرقوا بكل المعلومات عن رجل يرمز لنفسه باسم الماركيز».

* * *

كانت الساعة الحادية عشرة تماماً حين وصل بوارو إلى الفندق الذي ينزل فيه السيد فان أولدين. وجد المليونير وحيداً وقد استقبله بابتسامة ونهض يحييه: أنت دقيق في مواعيدك يا سيد بوارو.

- أنا أحافظ على مواعيدي دائماً؛ فالدقة يجب أن تراعى. حسناً، فلننتقل الآن إلى موضوع زيارتنا.

- فكرتك الصغيرة؟

ابتسم بوارو وقال: نعم، فكرتي الصغيرة. وأولاً وقبل كل شيء أريد أن أتحث مع الوصيفة آدا ميسون، فهل هي هنا؟

- نعم.

- حسناً.

نظر إليه فان أولدين باستغراب، ثم دق الجرس وأرسل في طلب ميسون. وحيّاها بوارو بأدبه المعهود الذي كان له تأثيره على

هذه الطبقة. قال: أهلاً يا آنسة، تفضلي بالجلوس بعد إذن السيد.

فقال فان أولدين: نعم، نعم، اجلسي يا ابنتي.

قالت ميسون: شكراً يا سيدي. وجلست على حافة المقعد، وكانت تبدو أكثر نحولاً من ذي قبل.

قال بوارو: لقد حضرت لكي أوجه إليك بعض الأسئلة مرة أخرى. يجب أن نصل إلى حقيقة الأمر، وأجدني دائماً أعود إلى السؤال عن الرجل الذي كان بالقطار، وقد رأيتِ الكونت دي لاروش وقلتِ إنه من الممكن أن يكون هو، ولكنك لست واثقة.

- أنا لم أرَ وجه الرجل كما أخبرتك يا سيدي، وهذا ما يجعل الأمر بهذه الصعوبة.

أضاء وجه بوارو وأومأ برأسه: تماماً، بالضبط؛ إنني أقدّر صعوبة الموقف. والآن يا آنسة، لقد أمضيت في خدمة مدام كترنج شهرين كما تقولين، وفي خلال هذه المدة كم مرة رأيت سيدك؟

فكرت ميسون برهة ثم قالت: رأيته مرتين فقط يا سيدي.

- وهل كان ذلك عن قرب أو من بعيد؟

- لقد حضر مرة إلى المنزل بشارع كيرزون، وكنت أنا في الطابق العلوي فنظرت من أعلى الدرج ورأيته في الردهة السفلى. وقد دفعني الفضول، خاصة وقد كنت أعلم أن الأمور تسير بهذه الطريقة... لعلك تفهمني.

وأنهت ميسون حديثها بأن سعلت كما كانت عادتها.

- والمرة الثانية؟

- كنت في المنتزه يا سيدي مع آني، إحدى الخادمات التي

أشارت إلى السيد وكان يسير مع سيدة أجنبية.

ومرة أخرى أومأ بوارو برأسه: والآن اسمعيني يا ميسون، هذا الرجل الذي رأيتِه في عربة القطار يتحدث إلى سيدتك في محطة ليون، ما أدراك أنه ليس سيدك؟

- سيدي؟! لا أظن أن من الممكن أن يكون هو.

فقال بوارو مصراً على رأيه: ولكنك لست واثقة؟

- لم يخطر ذلك ببالي أبداً.

كان من الواضح أن الفكرة قد أزعجت ميسون.

- لقد سمعت أن سيدك كان أيضاً في نفس القطار. أليس من الطبيعي أن يكون هو الذي سار في الممر؟

- ولكن الرجل الذي كان يتحدث مع سيدتي لا بد وأن يكون قد أتى من خارج القطار، فقد كان يرتدي ملابس الخروج، معطفاً ثقيلاً وقبعة.

- تماماً يا آنسة. ولكن فكري قليلاً، كان القطار قد وصل لتوه إلى محطة ليون حيث كثير من الركاب يتمشون قليلاً على الرصيف، وكانت سيدتك على وشك أن تفعل هذا، ولذلك لا شك أنها ارتدت معطفها المصنوع من الفراء، أليس كذلك؟

فقالت ميسون: نعم يا سيدي.

- إذن فسيدك قد فعل نفس الشيء. ففي داخل القطار الجو دافئ، ولكن في الخارج، في المحطة، الجو بارد. ولذلك ارتدى معطفه الثقيل وقبعته، وفجأة رأى مدام كترنج، وحتى ذلك الوقت لم تكن لديه أية فكرة عن وجودها بالقطار، فمن الطبيعي أن يصعد إلى العربة ويذهب إلى مقصورتها فتطلق هي صيحة دهشة لرؤيته،

وبسرعة تغلق الباب بين المقصورتين حيث إن ما يدور بينهما من حديث سيكون حديثاً خاصاً.

ومال إلى الخف في مقعده وجعل يرقب تأثير اقتراحه، وبعد ثلاث دقائق كاملة قالت ميسون: بالطبع يا سيدي يمكن أن يكون الأمر قد حدث بهذه الطريقة، ولكن تفكيري لم يتجه إلى هذه الناحية؛ فالسيد طويل وأسمر وله نفس التكوين، ولكن ما جعلني أقول إن الرجل حضر من الخارج هو منظر القبعة والمعطف. نعم، قد يكون هو السيد، ولا أحب أن أؤيد أياً من الرأيين.

- شكراً جزيلاً يا آنسة، ولن أثقل عليك أكثر من هذا. آه، شيء واحد فقط. ثم أخرج من جيبه علبة السجائر التي أظهرها لكاترين من قبل وسأل ميسون: أهذه علبة سجائر سيدتك؟

- لا يا سيدي، على الأقل...

وفجأة بدا على وجهها أن فكرة معينة تدور في رأسها، فقال لها بوارو مشجعاً: نعم؟

- أظن يا سيدي، وإن لم أكن واثقة ولكنه مجرد ظن، أن السيدة قد اشترت هذه العلبة لتهديها إلى السيد.

فرد بوارو: آه!

- ولكن هل قدمتها له أو لم تفعل، أنا لا أستطيع أن أقرر بالطبع.

قال بوارو: تماماً، تماماً. هذا يكفي يا آنسة.

انسحبت آدا ميسون وهي تغلق الباب خلفها بهدوء. ونظر بوارو إلى فان أولدين وعلى وجهه ابتسامة، وبدا المليونير كالمصعوق وتساءل: أتعتقد أنه ديرك؟ ولكن كل شيء يشير إلى ناحية أخرى!

كيف؟ لقد أمسكت بالكونت متلبساً بحيازة المجوهرات.

- لا.

- ولكنك أخبرتني.

- بماذا أخبرتك؟

- تلك القصة عن المجوهرات، لقد أريتني إياها.

- كلا.

حدق فيه فان أولدين: أتعني أنك لم ترني إياها؟

- نعم.

- أمس، في ملعب التنس؟

- أبداً.

- هل جننت يا سيد بوارو أم هل جننت أنا؟

- كلانا لم يجن؛ فأنت تسألني سؤالاً وأنا أجيب عليه. أنت تسألني ما إذا كنت قد أريتك المجوهرات أمس، وأنا أقول كلا. إن ما أريته لك -يا سيد فان أولدين- كان تقليداً من الدرجة الأولى لا يمكن أن يفرقه عن المجوهرات الحقيقية إلاّ خبير.

* * *

مرت بضع دقائق قبل أن يستطيع المليونير أن يستوعب ما قاله بوارو. كان ينظر إلى بوارو كما لو كان قد فقد القدرة على الكلام، فأومأ الرجل الضئيل برأسه بلطف وقال: نعم. هذا يغير الموقف، أليس كذلك؟

- مقلدة؟!

ثم مال إلى الأمام وقال: وكنتَ تعلم ذلك يا سيد بوارو، طول الوقت؟ ما الذي كنت ترمي إليه؟ ألم تعتقد أبداً أن الكونت دي لاروش هو القاتل؟

- لقد كنت أشك في الأمر فأفضيت إليك بذلك، أما السرقة المصحوبة بالقتل...

وهزّ رأسه بشدة ثم استطرد: لا، من الصعب تصور الأمر؛ فهو لا يتفق مع شخصية الكونت دي لاروش.

- ولكنك تعتقد أنه كان ينوي سرقة المجوهرات؟

- بالتأكيد، لا شك في هذا أبداً. اسمع، سأروي لك الأمر حسب رأيي: كان الكونت يعلم بأمر أحجار الياقوت فوضع خططه على هذا الأساس، وابتكر حكاية الكتاب الذي كان يقوم بتأليفه ليغري ابنتك بإحضارها معها، ثم أحضر هذه المجوهرات المقلدة، وكان من الواضح أنه كان ينوي استبدالها بالمجوهرات الحقيقية. ولما كانت السيدة غير خبيرة بالمجوهرات فإنها لم تكن لتكتشف الأمر قبل مضي وقت طويل، وعندما تفعل لا أعتقد أنها كانت ستبلغ الشرطة إذ سيترتب على ذلك الكثير، فقد كان في حوزته الكثير من خطاباتها. نعم، إنها خطة محكمة مأمونة العواقب من وجهة نظر الكونت. ولا شك أنه نفذها من قبل.

قال فان أولدين وهو مستغرق في التفكير: نعم، من الواضح أنها كذلك.

- وهي تتفق مع شخصية الكونت دي لاروش.

قال فان أولدين وهو ينظر إليه متفحصاً: نعم، ولكن الآن، ما الذي حدث فعلاً؟ فلتخبرني بهذا يا سيد بوارو.

فهزّ بوارو كتفيه وقال: إن الأمر في غاية البساطة؛ فقد سبقه أحدهم.

تلت ذلك فترة صمت طويلة. كان يبدو على فان أولدين أنه يقلب الأمر من جميع وجوهه، وعندما تحدث كان كلامه واضحاً: منذ متى وأنت تشكّ في زوج ابنتي يا سيد بوارو؟

- منذ البداية. كان لديه الدافع إلى الجريمة والفرصة لأن ينفذها. لقد اعتقد الجميع أن الرجل الذي كان في مقصورة السيدة هو الكونت دي لاروش، ولكن حدث أن ذكرتَ أنك حسبت الكونت هو زوج ابنتك ذات مرة إذا اختلط عليك الأمر، فأدركت من ذلك أنهما متشابهان في الطول والجسم واللون. وكان من أثر ذلك أن أفكاراً غريبة انتابتني، فالوصيفة لم تدخل في خدمة ابنتك إلاّ منذ وقت قصير ومن المحتمل أنها لم تكن تعرف شكل السيد كترنج جيداً، حيث إنه لم يكن يعيش في منزل شارع كيرزون، كما أن الرجل كان حريصاً على إخفاء وجهه.

سأل فان أولدين بصوت أجش: أتعتقد أنه قتلها؟

رفع بوارو يده بسرعة وقال: لا، لا، لم أقل هذا ولكنه احتمال قوي جداً. لقد كان في مأزق عنيف ومهدد بالإفلاس، وكان هذا هو المخرج الوحيد أمامه.

- ولكن لماذا أخذ المجوهرات؟

- لكي يجعل الجريمة تبدو وكأنها حادثة سرقة عادية في القطار، وإلاّ فإن الشبهة كانت ستتجه إليه هو مباشرة.

- ولو كان الأمر كذلك فما الذي فعله بالمجوهرات؟

- ما زالت هذه النقطة موضع نظر، فهناك عدة احتمالات،

وفي نيس الآن رجل يمكن أن يساعده في هذا الشأن وهو الرجل الذي أشرت إليه أمس في ملعب التنس.

نهض فان أولدين ووضع يده على كتف الرجل القصير الذي وقف بدوره، وحين تحدث كان صوته مشحوناً بالانفعال، وقال: إن كل ما أطلبه هو معرفة قاتل روث.

فشد بوارو قامته وقال باعتزاز: دع الأمر لهيركيول بوارو ولا تخشَ شيئاً، وسأكشف لك عن الحقيقة.

ونفض ذرة من الغبار عالقة بقبعته، وابتسم مطمئناً المليونير ثم ترك الغرفة، إلاّ أنه عندما كان ينزل الدرج تلاشت من وجهه بعض علامات الثقة وشرع يحدث نفسه: كل هذا جميل، إلاّ أن هناك بعض الصعوبات. نعم، هناك صعوبات كبيرة.

وبينما كان يغادر الفندق توقف فجأة، إذ رأى سيارة تقف أمام الباب. كانت بداخلها كاترين جراي بينما وقف ديرك كترنج إلى جانب السيارة يتحدث مع كاترين بشغف. وبعد برهة انطلقت السيارة بينما ظل ديرك واقفاً على الرصيف يتابعها بعينيه وقد ارتسم على وجهه تعبير غريب، ثم هزّ كتفه وتنهد طويلاً والتفت ليجد هيركيول بوارو واقفاً أمامه. وارتسمت على وجهه علامات الدهشة بالرغم منه، وتبادل الرجلان النظرات، كانت نظرة بوارو ثاقبة وكانت نظرت ديرك يشوبها شيء من التحدي المتزن، وعندما تحدث كانت نبرته مزيجاً من السخرية والاستخفاف، فقد رفع حاجبيه وقال: يا لها من امرأة لطيفة، أليس كذلك؟

كانت طريقته طبيعية تماماً، فقال بوارو وهو مستغرق في التفكير: نعم، هذا ينطبق تماماً على الآنسة كاترين. وصف إنجليزي تماماً، وهي أيضاً إنجليزية الطابع.

وأومأ بوارو برأسه إيماءة ذات مغزى، ثم مال ناحية ديرك وتحدث بنبرة مخالفة تماماً. كانت نبرة هادئة جادة لم يألفها ديرك كترنج: أرجو أن تعذرني يا سيدي إذا قلت لك شيئاً قد تعتبره وقاحة. هناك مثل إنجليزي يقول: قبل أن تقع في حب جديد من الأفضل أن تتخلص من حبك القديم.

التفت إليه كترنج غاضباً وقال: ماذا تعني؟!

فرد بوارو بهدوء: لا تصب جام غضبك عليّ، انظر، هناك سيدة أخرى تنتظرك.

والتفت ديرك فتجهم وجهه غضباً وتمتم: ميراي، عليها اللعنة. إنني سوف...

كان ديرك على وشك القيام بحركة منعه منها بوارو، وسأله محذراً: أمن الحكمة أن تتصرف هكذا؟

والتمعت عيناه الخضراوان، ولكن ديرك لم يتنبه إلى هذا التحذير فقد تخلى عنه كل حذره في لحظة الغضب وصرخ قائلاً: لقد نفضت يدي منها تماماً، وهي تعلم هذا.

- نعم، نفضت يدك منها، ولكن هل نفضت هي يدها منك؟

ضحك ديرك ضحكة مفاجئة ثم قال بخشونة: إنها لن تنفض يدها من مبلغ مليونين من الجنيهات، فهذه هي ميراي. ولاحت على وجهه ابتسامة واسعة ثم استطرد: لقد خبرت الحياة طويلاً يا سيد بوارو وأعرف أن كل النساء سواء. ثم لانت قسمات وجهه وهو يقول: كلهن إلاّ واحدة. إنني أعلم ما تريد أن تقوله، تقصد نوع الحياة التي عشتها وأنني لست جديراً بها، وقد تقول بأنه ليس من حقي مجرد التفكير فيها. وأعلم أنه ليس من الحكمة أن أتحدث هكذا ولم يمض على وفاة زوجتي إلاّ بضعة أيام.

وسكت ليلتقط أنفاسه، فانتهز بوارو الفرصة ليقول بصوت هادئ: لكني لم أتفوه بأية كلمة.

- ولكنك ستفعل.

- ماذا؟

- ستقول إنه ليست أمامي أية فرصة للزواج من كاترين.

فقال بوارو: لا، لن أقول هذا. صحيح أن سمعتك سيئة، ولكن النساء لا يلقين بالاً إلى هذا، ولو أنك رجل ممتاز على خلق قويم لم تفعل في حياتك شيئاً غير لائق لراودتني شكوك كثيرة في بلوغ مرادك، فالقيم الخلقية لا تتسم بالشاعرية.

حملق به ديرك كترنج ثم استدار على عقبيه ومضى إلى السيارة التي كانت في انتظاره، وتابعه بوارو بعينيه مسروراً فرأى السيدة الجميلة تخرج رأسها من سيارتها وتتحدث إليه، ولكن ديرك كترنج لم يتوقف بل اكتفى برفع قبعته ومضى.

وقال بوارو لنفسه: لقد حان الوقت لكي أعود إلى البيت.

وهناك وجد جورج يكوي بنطلونه فقال: لقد كان يوماً لطيفاً، متعباً نوعاً ما ولكنه ممتع.

وتلقى جورج هذه الملاحظات بطريقته الجامدة المعتادة: حقاً يا سيدي؟

- إن شخصية المجرم تثير الاهتمام، فكثير من القتلة يتميزون بجاذبية خاصة.

- لقد سمعت يا سيدي أن الدكتور كريبين كان عذب الحديث، ورغم ذلك فقد قتل زوجته وقطعها قطعاً صغيرة كاللحم المفروم.

- إن أمثلتك غريبة يا جورج.

ولم يحر الخادم جواباً، وفي هذه اللحظة دق جرس التليفون فالتقط بوارو السماعة: هالو، نعم، أنا هيركيول بوارو.

- أنا نايتون، انتظر لحظة من فضلك فإن السيد فان أولدين يود أن يتحدث إليك.

تلت ذلك فترة صمت ثم جاءه صوت المليونير: هذا أنت يا سيد بوارو؟ أود أن أخبرك بأن ميسون حضرت إليّ من تلقاء نفسها وقالت إنها ظلت تفكر في الأمر حتى أصبحت مقتنعة بأن الرجل الذي رأته في باريس هو ديرك كترنج.

- شكراً يا سيد فان أولدين، إن هذا يجعلنا نتقدم كثيراً.

ثم وضع السماعة وقد لاحت على وجهه ابتسامة غريبة. وأعاد جورج سؤاله مرتين قبل أن يتلقى رداً، قال بوارو: ماذا؟ ماذا كنت تقول؟

- هل ستتناول غداءك هنا يا سيدي أو ستخرج؟

فرد بوارو بقوله: لا هذا ولا ذاك؛ بل سآوي إلى سريري فقد حدث ما كنت أتوقعه.

* * *

الفصل الخامس عشر

عندما مر ديرك أمام السيارة أخرجت ميراي رأسها وصاحت: ديرك، يجب أن أتحدث إليك، دقيقة واحدة.

ولكنه رفع قبعته محيياً ومضى في طريقه. وعندما عاد إلى الفندق بادره البواب بقوله: هناك رجل في انتظارك يا سيدي.

فسأله ديرك: من يكون؟

- إنه لم يذكر اسمه يا سيدي، ولكنه قال إنه حضر من أجل شيء هام وإنه سينتظر عودتك.

- وأين هو؟

- في الصالون الصغير يا سيدي، لقد فضله على الردهة قائلاً إنه أكثر هدوءاً.

ولم يجد في الصالون إلاّ زائراً واحداً، ما إن رآه حتى نهض واقفاً وانحنى برشاقة. ولم يكن ديرك كترنج قد رأى الكونت دي لاروش إلاّ مرة واحدة من قبل ولكنه لم يجد أي صعوبة في التعرف عليه الآن، فعبس غاضباً وقال: الكونت دي لاروش، أليس كذلك؟ أخشى أن تكون قد أضعت وقتك بالحضور إلى هنا.

فرد الكونت: أرجو ألا يكون الأمر كذلك.

ولكن يبدو أن جاذبية الكونت لم يكن لها أي تأثير على الرجال، فكلهم -بلا استثناء- كانوا يكرهونه من أعماق قلوبهم، وخالج ديرك كترنج إحساس غامر بأن يركل الكونت خارج الغرفة، ولم يمنعه من تنفيذ ذلك إلاّ خوفه من إثارة فضيحة في الوقت الحاضر. وأدهشه أن تهتم روث بهذا الشخص المبتذل، وقال الكونت: لقد حضرت من أجل مهمة صغيرة وأعتقد أنه من الأفضل أن تستمع إليّ.

ومرة أخرى راودت ديرك الرغبة في أن يركله إلى الخارج، ولكنه عاد فكبح جماح نفسه. وأحس بنبرة التهديد التي شابت كلام الكونت ولكنه فسرها بطريقة أخرى، كانت هناك أسباب كثيرة تدفعه لأن يستمع إلى ما يريد الكونت أن يقول. وجلس وجعل ينقر بصبر نافذ على المنضدة، ثم سأله بحدة: ماذا هناك؟

ولكن الكونت لم يكن بالرجل الذي يكشف عن أوراقه في الحال، بل قال: اسمح لي يا سيدي أن أقدم لك عزائي.

فرد ديرك بهدوء: إذا تماديت في وقاحتك فسألقي بك من هذه النافذة.

وأشار برأسه تجاه النافذة الملاصقة للكونت، فتململ الزائر في جلسته ثم قال بترفع: سوف أرسل لك أصدقائي يا سيدي، إذا كان هذا هو ما تريده.

وضحك ديرك قائلاً: مبارزة، أليس كذلك؟ لن أوليك اهتماماً إلى هذا الحد، ولكن سيسعدني أن ألقي بك في الطريق.

أخذ الكونت الأمر ببساطة واكتفى برفع حاجبيه وهمس: إن الإنجليز برابرة!

وعاد ديرك يقول: هات ما عندك.

فقال الكونت: سأكون صريحاً وأدخل في الموضوع، فهذا أنسب لكلينا، أليس كذلك؟ لقد ورثت مبلغاً كبيراً يا سيدي.

- وما شأنك أنت؟

شد الكونت قامته وقال: سيدي، لقد تلوثت سمعتي واتجهت الشبهات إليّ واتهمت بجريمة مشينة.

فرد ديرك ببرود: لست أنا الذي وجهت إليك الاتهام، وكشخص يهمه الأمر لم أبد رأيي فيه.

قال الكونت: أنا بريء، أقسم أمام الله أني بريء.

فرد ديرك بأدب: أعتقد أن مسيو كاريج هو المسؤول عن تحقيق هذه القضية.

- إنني متهم بجريمة لم أرتكبها، وأكثر من هذا فأنا في حاجة ماسة إلى المال.

وسعل سعلة خفيفة لها مغزى، فنهض ديرك واقفاً وقال: لقد كنت متوقعاً كلامك هذا، أيها الوحش المبتز! لن أعطيك بنساً واحداً. لقد ماتت زوجتي ولم تعد تؤثر فيها أية فضائح تثيرها. أنا واثق من أنك تحتفظ بخطاب أو اثنين، اسمع يا سيد دي لاروش، إن ابتزاز الأموال يعد جريمة في إنجلترا كما هو في فرنسا. هذا هو ردي عليك، وداعاً.

مد الكونت يده إلى ديرك الذي استدار ليترك الغرفة وقال: لحظة واحدة، لقد أسأت فهمي يا سيدي، لقد أسأت فهمي تماماً. إنني جنتلمان، وأي خطاب تكتبه سيدة إليّ في الحفظ والصون.

وشمخ برأسه بكبرياء وقال: الأمر الذي أردت أن أشرحه لك مختلف تماماً عما تبادر إلى ذهنك، وكما قلت لك إنني أعاني

ضائقة مالية، وربما دفعني ضميري إلى التوجه إلى الشرطة للإدلاء بأقوال معينة.

عاد ديرك بخطى وئيدة إلى الغرفة وقال: ماذا تعني؟

- ليس من الضروري أن ندخل في التفاصيل، وكما يقولون: ابحث عمن يستفيد من الجريمة، أليس كذلك؟ وكما قلت لك الآن، لقد ورثتَ مبلغاً كبيراً.

ضحك ديرك وقال باحتقار: إذا كان هذا هو كل...

ولكن الكونت هز رأسه قائلاً: ولكن ليس هذا هو كل شيء، ولم أكن لأحضر إليك إلاّ إذا كانت لديّ معلومات محددة مفصلة أكثر من هذا، ولن تحب أن يقبض عليك وتحاكم بتهمة القتل.

اقترب منه ديرك وعلى وجهه غضب هائل جعل الكونت يتراجع خطوتين رغماً عنه، وسأله بغضب: أتهددني؟

طمأنه الكونت: لن أحدثك عن الموضوع بأكثر مما قلت.

- يا للوهم الكبير!

رفع الكونت يده: لا، إنه ليس وهماً، ولكي تقتنع أقول لك بأني قد استقيت معلوماتي من سيدة معينة، وهي التي تملك الدليل الذي لا يرد على أنك قد ارتكبت جريمة القتل.

- من هي؟

- الآنسة ميراي.

وتراجع ديرك إلى الخلف كالمصعوق وهمس قائلاً: ميراي؟!

وأسرع الكونت يقول منتهزاً الفرصة: إنه مبلغ زهيد، مئة ألف فرنك لا أكثر.

قال ديرك بشرود: ماذا؟

- كنت أقول يا سيدي إن مبلغاً زهيداً، كمبلغ مئة ألف فرنك، سيكفي لإرضاء ضميري.

بدا على ديرك أنه استعاد سيطرته على نفسه، فنظر باهتمام إلى الكونت وقال: أتريد معرفة جوابي الآن؟

- لو سمحت يا سيدي.

- إليك الرد: فلتذهب إلى الشيطان، أسمعت؟

واستدار ديرك واندفع خارج الغرفة تاركاً الكونت مذهولاً عاجزاً عن الكلام.

* * *

عندما خرج ديرك من الفندق استدعى سيارة تاكسي ومضى إلى الفندق الذي تنزل به ميراي، وعندما سأل عنها علم أنها قد عادت لتوها من الخارج، فأعطى بطاقته للبواب وقال له: خذ هذه البطاقة إلى الآنسة وقل لها إنني أريد مقابلتها.

وبعد فترة قصيرة كان ديرك في طريقه إلى جناح ميراي، وعندما وصل إلى مدخل شقتها نفذ إلى أنفه عطرها الأخّاذ، وكانت ميراي تقف وسط الغرفة ترتدي ثوباً من الدانتيل. وأقبلت نحوه وقد مدت ذراعيها: ديرك، لقد عدت إليّ، كنت أعلم أنك ستعود.

ولكنه نحى ذراعيها جانباً ونظر إليها بصرامة قائلاً: لماذا أرسلت الكونت دي لاروش إليّ؟

فنظرت إليه بدهشة وقالت: أنا؟! أنا أرسلت إليك الكونت دي لاروش؟ لماذا؟

فقال متجهماً: من الواضح أنه قد جاء ليبتز أموالي.

ومرة أخرى حدقت فيه، وفجأة ابتسمت وأشارت برأسها قائلة: بالطبع كان يجب أن أتوقع ذلك من شخص مثله فهو من هذا الطراز. أنا بالتأكيد لم أرسله إليك يا ديرك.

نظر إليها نظرة فاحصة كما لو كان يقرأ أفكارها. وقالت ميراي: سأخبرك بكل شيء. في ذلك اليوم كان الغضب قد أعماني، فأردت أن أنتقم منك، ولذلك ذهبت إلى الكونت دي لاروش وطلبت منه أن يذهب إلى الشرطة ويقول كذا وكذا، ولكن لا تخشَ شيئاً يا ديرك فأنا لم أفقد عقلي تماماً وما زلت أحتفظ بالدليل ضدك، ولن تفعل الشرطة شيئاً دون كلمة مني. والآن...

واقتربت منه ورفعت عينيها إليه بنظرة والهة، ولكنه أبعدها عنه بجفاء، فوقفت بعيداً وصدرها يعلو ويهبط. وقال ديرك بثبات: لن أعود إليك أبداً.

بدت كالقطة وقد ارتعش جفناها وقالت: إذن فهناك امرأة أخرى؟ كنت تتناول معها غداءك ذلك اليوم، أليس كذلك؟

- إنني أنوي الزواج من هذه السيدة، فلتعلمي ذلك جيداً.

- تلك المرأة الإنجليزية؟ أتظن أنني سأتحمل هذا الوضع لحظة واحدة؟ كلا. اسمع يا ديرك، أتذكر ذلك الحديث الذي دار بيننا في لندن؟ لقد قلت إن الشيء الوحيد الذي سينقذك من ورطتك هو وفاة زوجتك وأبديت أسفك لأنها كانت تتمتع بصحة جيدة، وبعد ذلك خطرت ببالك فكرة وقوع حادث.

فقال ديرك باحتقار: أعتقد أن هذا هو الحديث الذي رددته للكونت دي لاروش.

ضحكت ميراي: وهل تظنني مغفلة؟ وهل تستطيع الشرطة أن تفعل شيئاً برواية مثل هذه؟ اسمع، سأمنحك فرصة أخيرة؛ فلتترك هذه المرأة الإنجليزية وتعود إليّ، وعند ذلك لن أتفوه أبداً يا حبيبي.

- تتفوهين بماذا؟

ضحكت برقة وقالت: أتظن أن أحداً لم يرك؟

- ماذا تعنين؟

- أعني ما أقوله. أنت تعتقد أن أحداً لم يرك ولكني رأيتك يا ديرك، رأيتك تخرج من المقصورة التي كانت فيها زوجتك قبل أن يدخل القطار محطة ليون تلك الليلة، بل أعلم أكثر من هذا، أعلم أنها كانت ميتة عندما خرجتَ من مقصورتها.

حملق فيها، ثم استدار خارجاً من الغرفة ببطء شديد كمن يسير في حلم وهو يترنح قليلاً.

* * *

كان بوارو وكاترين يجلسان في حدائق مونتي كارلو. وكانت كاترين قد حضرت مع أصدقائها فالتقوا مصادفة بنايتون وبوارو بمجرد وصولهم. وما إن رأت الليدي تامبلين نايتون حتى انقضّت عليه تستعيد ذكرياتها، وإن شكّت كاترين في صحة الكثير مما روته. وابتعدا وقد وضعت الليدي تامبلين يدها على ذراع الشاب، فيما بقيت كاترين مع بوارو.

قال بوارو يخاطب كاترين: ما رأيك في الميجور نايتون؟

ردت كاترين بحرارة: أنا معجبة به تماماً، فهو شخص في غاية الظرف.

رد بوارو بقوله: أرجو ألا تجديني وقحاً يا آنسة... إنني رجل عجوز، ولكني أحياناً ألتقي بشخص يهمني أمره. نحن أصدقاء يا آنسة، أنت قلت هذا، وكل ما أريده هو أن أراك سعيدة.

نظرت كاترين أمامها، وكانت تحمل في يدها مظلة من الكريتون فراحت ترسم بها خطوطاً على الحصى تحت قدميها. وعاد بوارو يقول: لقد سألتك عن الميجور نايتون، والآن سأوجه لك سؤالاً آخر: أيعجبك السيد ديرك كترنج؟

- أنا أكاد لا أعرفه.

- هذا ليس برد.

- أعتقد أنه كاف.

نظر إليها؛ شيء ما في نبرتها أدهشه. ثم أومأ برأسه بجدية وقال: ربما كنت على حق يا آنسة. اسمعي، لقد مارست الحياة وخرجت من تجاربي الكثيرة بحقيقتين: إن الرجل الطيب قد يهلكه حبه لامرأة سيئة، والعكس أيضاً صحيح؛ فالرجل الشرير قد يهلكه حبه لامرأة طيبة.

فقالت كاترين بصوت خفيض: إنك تحاول أن تحذرني، ولكن ممّن؟

- أنا لا أستطيع أن أرى ما بقلبك يا آنسة، ولن تسمحي لي بهذا لو أردت. ولكني أكتفي بأن أقول لك هذا: هناك صنف من الرجال يجتذب النساء.

وابتسمت كاترين وقالت: الكونت دي لاروش؟

- هناك من هم أشد خطورة من الكونت دي لاروش؛ فهم يملكون صفات تفتن النساء: الشجاعة والجرأة... إنك مفتونة يا

آنسة، أستطيع أن أرى هذا واضحاً، ولكني أيضاً أعتقد أن الأمر لا يزيد على افتتان. أرجو ألا يكون أكثر من هذا، فالعاطفة التي يحملها الرجل الذي أعنيه عاطفة حقيقية، ولكن رغم ذلك...

- نعم؟

نهض واقفاً ينظر إليها، ثم قال بصوت هادئ واضح: قد تحبين لصاً يا آنسة، أما أن تحبي قاتلاً...

ثم استدار على عقبيه ومضى تاركاً كاترين حيث هي. وتناهت إلى سمعه صيحة الدهشة التي أطلقتها كاترين ولكنه لم يعرها التفاتاً، فقد قال ما كان يريد أن يقوله، ومضى تاركاً إياها حيث كانت تستوعب عبارته الأخيرة.

وكان ديرك كترنج خارجاً من الكازينو ليستمتع بحرارة الشمس حين رآها تجلس وحدها، فلحق بها وقال وهو يضحك ضحكة خفيفة: لقد كنت أقامر، ولكني لم أكسب فقد خسرت كل شيء، أعني كل ما كان معي.

ونظرت إليه كاترين بوجه مضطرب، وأحست لأول وهلة بشيء جديد يشوب سلوكه، شيء من الانفعال الخفي كان يبدو واضحاً رغماً عنه. وسألته: كان رأيي دائماً أنك مقامر، فروح المقامرة تستهويك.

- ترى هل أنا مقامر في كل شيء؟ لعلك على حق، ألا تجدين شيئاً مثيراً في المقامرة؟ فلا شيء يعدل أن يخاطر الإنسان بكل ما معه مرة واحدة.

ورغم أن كاترين تتوسم في نفسها الهدوء إلاّ أن حديثه أثارها. واستطرد ديرك يقول: أريد أن أتحدث إليك، فمن يدري متى تتاح

لي فرصة أخرى؟ لقد تردد الحديث عن أنني قد قتلت زوجتي، لا تقاطعيني أرجوك، إنه اتهام يبعث على السخرية.

وتوقف قليلاً ثم عاود الحديث بروية: لقد تظاهرت بمظهر التعقل حين تحدّثت مع الشرطة والسلطات المحلية هنا، ولكني أفضل أن أكون صريحاً معك. لقد تزوجت من أجل المال، كنت أبحث عنه حين التقيت بروث فان أولدين، وكانت تبدو رقيقة ولكني خُدعت، إذ كانت زوجتي تحب رجلاً آخر عندما تزوجتني ولم تحفل بي أبداً. آه، إنني لا أشكو؛ فقد كان الزواج صفقة لكلينا. كانت هي تسعى من أجل اللقب وكنت أنا أسعى من أجل المال، ولكن المشاكل بدأت تدب بيننا، فهي لم تحفل بمشاعري وكانت تود أن تراني دائماً تابعاً لها، كانت تكاد تقول إنها قد اشترتني بمالها وإنني أحد ممتلكاتها، وكانت النتيجة أن سلوكي نحوها كان مزرياً، وسيخبرك حماي بهذا، وهو محق. وعندما ماتت روث واجهتني كارثة.

وضحك فجأة ثم قال: إن الإنسان تصيبه كارثة عندما يجد نفسه خصماً لرجل مثل فان أولدين.

وقالت كاترين بصوت خفيض: ثم ماذا؟

فهز ديرك كتفيه وقال: لقد قتلت روث في جريمة محكمة التدبير.

وضحك، أجفلت كاترين لضحكته، فقال ديرك: نعم، ليس من المناسب أن أقول هذا، ولكنه صحيح. والآن سأخبرك بشيء آخر، منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها عرفت أنك المرأة الوحيدة في العالم التي خلقت لي، ولكني كنت خائفاً منك، ظننت أنك قد تجلبين لي حظاً سيئاً.

فردت كاترين بحدة: حظاً سيئاً؟!

والتقت عيناه بنظرتها المضطربة، واستطرد يقول: حقاً، لقد كذبت في ذلك اليوم؛ لقد دخلت فعلاً مقصورة زوجتي.

قالت كاترين: آه!

- من الصعب أن أشرح لماذا دخلت، ولكني سأحاول. فقد خطر لي ذلك فجأة، تستطيعين أن تقولي إنني كنت أتجسس عليها. وبقيت بعيداً عن الأنظار في القطار، فقد أخبرتني ميراي أن زوجتي ذاهبة للقاء الكونت دي لاروش في باريس، وحسب ما رأيت لم يكن هذا صحيحاً. وانتابني إحساس بالخجل من نفسي وأحسست فجأة أنه من المستحسن أن نناقش الأمر معاً وتنتهي منه، فدفعت الباب ودخلت.

وتوقف عن الكلام، فقالت كاترين برقة: وبعد؟

- كانت روث ترقد نائمة على السرير وقد استدار وجهها بعيداً عني، فلم أر إلاّ مؤخرة رأسها. وكان من الممكن أن أوقظها طبعاً ولكن انتابني رد فعل مفاجئ، فما الذي بقي لنا لنتحدث فيه بعد أن تحدثنا مئات المرات؟ وكانت تبدو نائمة في هدوء فتركت المقصورة كما دخلتها.

- ولماذا كذبت على الشرطة؟

- لأني لست مجنوناً، فقد أدركت منذ البداية أنني سأكون القاتل في نظرهم إذ لديّ الدافع إلى الجريمة، ولو أني صرحت بأنني دخلت مقصورتها قبل أن تقتل لكنت قد قضيت على نفسي.

- فهمت.

ولكن هل فهمت حقاً! إنها لم تكن واثقة. كانت تشعر بما في

شخصية ديرك من جاذبية ولكن شيئاً في داخلها كان يجعلها تقاوم. وألقت بنظرة يائسة حولها كما لو كانت تبحث عن شيء ينقذها، وتضرّج وجهها وهي ترى شاباً طويلاً أشقر يسرع نحوهما وهو يعرج قليلاً؛ إنه الميجور نايتون. ووقف ديرك وقد تجهم وجهه، وقال ببساطة: سأذهب الآن.

مشى مبتعداً وتركهما معاً. وجلست كاترين مرة أخرى واستعادت هدوءها وهي تتحدث مع الشاب الهادئ الخجول، وانتابتها صدمة حين أدركت أن نايتون هو الآخر يفتح قلبه لها كما فعل ديرك من قبل، ولكن بطريقة أخرى تماماً. كان خجولاً متلعثماً، فجاءت كلماته مترددة:

– منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها... لم يكن من الواجب أن أتحدث إليك هكذا بسرعة ولكن السيد فان أولدين قد يسافر في أي وقت، وربما لن تتاح لي فرصة أخرى. أعلم أنك لا يمكن أن توليني اهتماماً بهذه السرعة فهذا مستحيل، وأعتقد أنها جرأة مني. إن لديّ بعض الموارد المالية وإن لم تكن كثيرة. لا، أرجوك لا تردي على طلبي الآن فأنا أعلم الرد سلفاً، ولكن في حالة ما إذا سافرت فجأة فقد أردت أن تعرفي بأني مهتم بك.

وتأثرت كثيراً، فقد كان سلوكه كله رقة.

– هناك شيء آخر، أود أن أقول: إذا ما حدث وصادفتك بعض المتاعب فإنني على استعداد لأن...

وتناول يدها في يده وأمسك بها لحظة، ثم تركها ومضى بعيداً دون أن ينظر خلفه.

* * *

الفصل السادس عشر

عندما ترك نايتون كاترين مضى يبحث عن هيركيول بوارو، فوجده في طرف الحديقة جالساً على كرسي منفرد يتأمل. فرمقه نايتون بنظرة سريعة وبان الاضطراب على وجهه وقال متردداً: أتراك مشغولاً يا سيد بوارو؟ هناك شيء أود أن أسألك عنه.

- أنا تحت أمرك. فلنذهب إلى الخارج فالجو ممتع في الشمس.

وخرجا سوياً، ومضيا في طريقهما صامتين بعض الوقت حتى قطع بوارو الصمت بقوله: أهناك ما يشغل بالك؟

فنظر إليه نايتون بدهشة وقال: هذا صحيح، ولو أني لا أدري كيف عرفت ذلك.

فقال بوارو: كان يبدو هذا واضحاً على وجهك.

- لم أكن أعلم بأن مشاعري تبدو بهذا الوضوح.

فرد الرجل القصير بكبرياء: إن مهمتي أن ألاحظ ما يطرأ على الوجوه من تغيير.

- سأخبرك يا سيد بوارو. هل سمعت بهذه الراقصة المدعوة ميراي؟

- أليست هذه صديقة السيد ديرك كترنج؟

- بلى، إنها هي. وما دمت تعلم هذا فأنت بالطبع تدرك أن السيد فان أولدين يكرهها. وقد كتبت إليه تطلب تحديد موعد للقائه فطلب مني أن أكتب رداً قصيراً يرفض فيه، وبالطبع فعلت ذلك، وفي هذا الصباح حضرت إلى الفندق وطلبت لقاء السيد فان أولدين في الحال لأمر عاجل وهام.

فقال بوارو: إنك تثير اهتمامي.

- وغضب السيد فان أولدين أشد الغضب وأبلغني الرد الذي يريد إرساله إليها، ولكني تجاسرت وأبديت رأياً مخالفاً لرأيه. يبدو أن خلف هذه المرأة ميراي معلومات قيمة، فقد كانت في القطار الأزرق وربما رأت أو سمعت شيئاً ذا بال، ألا تتفق معي في الرأي يا سيد بوارو؟

فرد بوارو بقوله: نعم، وأعتقد أن السيد فان أولدين قد تصرف بحماقة كبيرة.

فقال السكرتير: يسرني أنك تشاركني الرأي. والآن سأقول لك شيئاً يا سيد بوارو؛ لقد كان إحساسي بأن موقف السيد فان أولدين بعيد عن الحكمة قوياً لدرجة جعلتني ألقى السيدة وأتحدث معها.

- وبعد؟

- كانت الصعوبة في إصرارها على أن ترى السيد فان أولدين شخصياً، فخففت من حدة رسالته قد استطاعتي. ولأكن صريحاً معك، لقد أبلغتها لها بطريقة مخالفة تماماً، فقد أخبرتها بأن السيد فان أولدين مشغول ولا يستطيع أن يراها في الوقت الحاضر وأنها تستطيع أن تخبرني بما تريد، ولكنها رفضت وخرجت دون أن تدلي بأي شيء. لكن لديّ إحساساً قوياً بأن هذه المرأة تعرف شيئاً.

فقال بوارو بهدوء: هذا أمر بالغ الأهمية، أتعلم أين تقيم؟

- نعم.

وذكر له اسم الفندق، فقال بوارو: حسناً، لنذهب إلى هناك في الحال.

بدا الشك على نايتون وتساءل: وماذا عن السيد فان أولدين؟

- إن السيد فان أولدين رجل عنيد، وأنا لا أحب الجدل مع أي شخص عنيد بل أتصرف رغماً عنه، وسنذهب الآن ونرى الآنسة فوراً، وسأخبرها بأنك مفوض من قبل السيد فان أولدين فحذار أن تعارضني.

كان نايتون ما زال يبدو متردداً، ولكن بوارو لم يعبأ بذلك. وعندما وصلا إلى الفندق علم أن الآنسة موجودة، فأرسل بوارو بطاقته وبطاقة نايتون وقد كتب عليهما بالقلم الرصاص: من طرف السيد فان أولدين. وأتاهما الرد بأن الآنسة ميراي في انتظارهما. وحين دخلا جناح الراقصة أخذ بوارو بزمام الموقف وبادرها بقوله: يا آنسة، لقد حضرنا من طرف مسيو فان أولدين.

- آه، ولماذا لم يحضر هو شخصياً؟

- إنه متوعك قليلاً من تأثير جو الريفيرا. ولكني مفوض من قبله ومعي السيد نايتون، سكرتيره، إلاّ إذا كانت الآنسة تريد الانتظار أسبوعين تقريباً؟

كان بوارو واثقاً من تأثير كلمة «الانتظار» على واحدة في مثل طبع ميراي. فصاحت: إذن سأتكلم، لقد صبرت طويلاً وامتنعت عن الكلام، ولكن لماذا؟ لأتلقى الإهانات! نعم، إهانات! أيظن أنه يستطيع أن يعامل ميراي بهذه الطريقة؟ أن يلقيها بعيداً كما لو

كانت قفازاً قديماً؟ لم يحدث لي هذا أبداً، لم يلقِ بي أي رجل أبداً، بل كنت أنا التي ألقي بهم!

وأخذت تذرع الغرفة جيئةً وذهاباً وهي ترتجف غضباً، ثم صاحت: هذا ما سأفعله به... والتقطت إناء زجاجياً مليئاً بالزهور فألقته بعيداً فتهشم.

وكان نايتون ينظر إليها ببرود إنجليزي غير راضٍ عن تصرفاتها وبدا مرتبكاً قلقاً، أما بوارو فكان ينظر إلى ما يحدث بعينين لامعتين وهو مستمتع تماماً بما يراه، وصاح قائلاً: هذا رائع! واضح أن الآنسة حادة المزاج.

فردت ميراي بقولها: إنني فنانة، وكل فنانة لها مزاجها. لقد نصحت ديرك بأن يأخذ حذره ولكنه لم يستمع إليّ.

وفجأة وقالت: أصحيح أنه يريد أن يتزوج آنسة إنجليزية؟

سعل بوارو وهمس: لقد قيل لي إنه يعشقها تماماً.

فأقبلت ميراي نحوهما وهي تصيح: لقد قتل زوجته، هذه هي الحقيقة! وقد قال لي قبل أن يفعلها إنه سيقتلها... كان في محنة فاتبع أقصر الطرق.

- أتقولين إن السيد كترنج قتل زوجته؟

- نعم، نعم، نعم... ألم أقل لك هذا؟

قال بوارو: إن الشرطة ستطلب دليلاً على هذه الأقوال.

- قلت لك إني رأيته يخرج من مقصورتها في تلك الليلة.

فسألها بوارو بحدة: متى؟

- قبل أن يصل القطار إلى ليون مباشرة.

- أتقسمين على هذا يا آنسة؟

قال لها ذلك بلهجة مختلفة، قاطعة، فردت بقولها: نعم.

تلت ذلك فترة صمت كانت ميراي خلالها تنقل عينيها من واحد إلى الآخر، ثم قال بوارو: هذا أمر خطير يا آنسة، أتدركين مدى خطورته؟

- بكل تأكيد.

فقال بوارو: إذن فأنت تعلمين أننا يجب ألا نضيع الوقت؟ فلتأتي معنا فوراً إلى مكتب التحقيق.

بوغتت ميراي وترددت، ولكن كما توقع بوارو لم يكن أمامها وقت للتراجع، فهمست قائلة: سآتي بمعطفي.

وإذ بقيا وحدهما تبادل بوارو ونايتون النظرات، وقال بوارو: ماذا يقول المثل؟ من الضروري أن تضرب والحديد ساخن. إنها متقلبة المزاج وربما ندمت بعد ساعة فتراجعت عن موقفها، ويجب أن نمنعها من هذا مهما كان الثمن.

* * *

وجدوا المسيو كو والمحقق معاً، وقدمها بوارو بكلمات قليلة، وسرعان ما طلبوا منها أن تروي القصة فكررت عليهم ما سردته أمام نايتون وبوارو ولكن بأعصاب أكثر هدوءاً. وقال مسيو كاريج: هذه قصة غريبة يا آنسة.

ومال إلى الخلف في مقعده وأصلح وضع نظارته ورمقها بنظرة فاحصة: أنفهم من كلامك أن مسيو كترنج قد تحدث أمامك عن الجريمة قبل وقوعها؟

– نعم، نعم؛ وقد كانت في صحة جيدة كما قال، لكن لو قُدّر لها أن تموت فلن يكون هذا إلاّ في حادث يتولى هو إعداد ترتيباته.

– أتقولين يا آنسة إنك كنت على علم بالموضوع قبل أن يحدث؟

– أنا؟ أبداً، فأنا لم آخذ كلامه على محمل الجد. كلا بالتأكيد، فأنا أدرى بالرجال يا سيدي، فما أكثر ما يقولون. ولو نفّذ كل رجل كلامه حرفياً لخربت الدنيا!

فرفع المحقق حاجبيه وقال: أنفهم من ذلك أنك اعتبرت تهديدات مسيو كترنج مجرد كلام فارغ؟ إذن أود أن أسألك يا آنسة، ما الذي جعلك تلغين جميع ارتباطاتك في لندن وتحضرين إلى الريفيرا؟

فنظرت إليه ميراي بعينيها السوداوين وقالت ببساطة: لقد أردت أن أكون بجانب الرجل الذي أحبه، أترى هذا غريباً؟

– ومتى اقتنعت لأول مرة بأن مسيو كترنج قد قتل زوجته؟

– كما أخبرتك يا سيدي من قبل، لقد رأيته خارجاً من مقصورة زوجته قبل أن يصل القطار إلى ليون مباشرة، وكانت على وجهه نظرة لم أستطع أن أدرك كنهها عندئذٍ، نظرة فظيعة لن أنساها أبداً.

كان صوتها يعلو وهي تشير بذراعيها بحركة مبالغ فيها، وقال مسيو كاريج: نعم؟

– وبعد ذلك، عندما وجدت مدام كترنج ميتة عندما غادر القطار محطة ليون عرفت بالأمر.

قال المفتش برقة: ورغم ذلك فإنك لم تبلغي الشرطة يا آنسة.

فنظرت إليه ميراي نظرة متعالية. كان من الواضح أنها منتشية للدور الذي كانت تلعبه، وعادت تسأل: وهل أخون حبيبي؟ كلا، لا تطلب من امرأة أن تفعل هذا.

ألمح لها مسيو كو بقوله: ولكنك الآن...

- الآن الأمر مختلف؛ لقد خانني، فهل أتعذب في صمت؟

فقال المحقق يطيب خاطرها: تماماً، تماماً. والآن يا آنسة هلا قرأت الشهادة التي أدليت بها إلينا ووقعت عليها؟

ولم تضيع ميراي وقتها في القراءة بل قالت: نعم، نعم، إنها صحيحة.

ثم نهضت واقفة وقالت: أهناك شيء آخر؟

- حالياً لا.

- وهل سيلقى القبض على ديرك؟

- في الحال يا آنسة.

ضحكت ميراي ضحكة قاسية وجذبت الفراء، وقالت: كان يجب أن يفكر في هذا قبل أن يهيننني.

قال بوارو بلهجة اعتذار: هناك شيء واحد فقط.

- نعم؟

- ما الذي جعلك تعتقدين أن مدام كترنج كانت قد ماتت عندما غادر القطار محطة ليون؟

فحدقت ميراي بدهشة وقالت: ولكنها فعلاً كانت ميتة.

- حقاً؟

- نعم، بالطبع، أنا...

وتوقفت فجأة عن الكلام. كان بوارو يرمقها بنظرة فاحصة ورأى الحذر يتجلى في عينيها: لقد قيل لي هذا، كل إنسان يقول هذا.

قال بوارو: آه، لم أكن أظن أن هذه الحقيقة قد ذُكرت خارج غرفة التحقيق.

بدا الارتباك على ميراي وقالت: إن المرء يسمع هذا الكلام، فقد أخبرني أحدهم به وإن كنت لا أستطيع أن أتذكر من هو.

واتجهت ناحية الباب وذهب مسيو كو ليفتحه لها، وبينما هو يفعل ارتفع صوت بوارو مرة أخرى يسأل: وماذا عن المجوهرات؟ عفواً يا آنسة، أيمكن أن تخبريني عنها؟

- المجوهرات؟ أية مجوهرات؟!

- أحجار الياقوت التي كانت تملكها القيصرة كاترين يوماً. ما دمت تسمعين الكثير فربما تناهى إلى سمعك شيء عنها.

فردت ميراي بحدة: أنا لا أعلم شيئاً عن أية مجوهرات.

وخرجت وأغلقت الباب وراءها، وعاد مسيو كو إلى مقعده، وتنهد المحقق وقال: يا لها من ثورة! ترى أهي صادقة في كلامها؟ أظن هذا.

فقال بوارو: لا شك أن في كلامها بعض الحقيقة، فكلام الآنسة جراي يؤيده، إذ قررت أنها عندما نظرت إلى الممر قبل أن يصل القطار إلى ليون بوقت قصير رأت السيد كترنج يدخل إلى مقصورة زوجته.

قال المحقق وهو يتنهد: من الواضح أن الاتهام الموجه إليه

قوي، وهو أمر يؤسف له.

فسأله بوارو: ماذا تعني؟

- لقد كان أمل حياتي كلها أن ألقي القبض على الكونت دي لاروش، وقد ظننت أنه وقع في أيدينا هذه المرة، أما الآن فإن الأدلة ضده لم تعد بالقوة الكافية.

وحكّ مسيو كاريج أنفه وقال بحذر: لو أخطأنا فسيكون موقفنا في غاية الحرج، فمسيو كترنج من الطبقة الأرستقراطية وسينشر الموضوع في الصحف، لو أخطأنا...

وهزّ كتفيه متوجساً، وقال المفتش: والمجوهرات؟ ماذا تظنه قد فعل بها؟

قال مسيو كاريج: بالطبع حاول أن يخفيها، ولا بد أنها قد سببت له المتاعب فمن الصعب أن يتخلص منها.

ابتسم بوارو وقال: لي رأي فيما يتعلق بموضوع المجوهرات. ماذا تعرفون عن رجل يدعى الماركيز؟

مال المفتش إلى الأمام بانفعال وقال: الماركيز؟ الماركيز؟! أتعتقد أن له دخلاً في هذا الموضوع يا مسيو بوارو؟

- لقد سألتك عما تعرفه عنه.

فرد المفتش بأسف: ليس بالقدر الذي نود أن نعرفه، فهو يعمل من وراء الستار ولديه من يقومون بالأعمال القذرة نيابة عنه، ولكنه شخص ذو مركز، نحن واثقون من هذا، فهو لا ينحدر من طبقة المجرمين.

- أهو فرنسي؟

- نعم، أو على الأقل هذا ما نعتقده، وإن كنا غير واثقين. لقد عمل في فرنسا وإنجلترا وأمريكا، وقد حدثت في سويسرا في الخريف الماضي سلسلة من السرقات نسبت إليه، ولكنه على أي حال شخصية كبيرة، وهو يتحدث الفرنسية والإنجليزية بطلاقة ولكن أصله ما زال لغزاً.

فأومأ بوارو برأسه ونهض مستأذناً بالانصراف، وسأله المفتش: أيمكن أن تضيف جديداً إلى معلوماتنا يا مسيو بوارو؟

- في الوقت الحالي لا، ولكن قد أجد بعض المعلومات في انتظاري بالفندق.

بدا عدم الارتياح على وجه مسيو كاريج وقال: لو كان للماركيز دخل بهذه القضية...

ثم سكت، وقال مسيو كو: إن هذا يقلب أفكارنا رأساً على عقب.

فرد بوارو: ولكنه لا يقلب أفكاري أنا، بل بالعكس فهو يتفق معها تمام الاتفاق. إلى اللقاء أيها السادة، وإذا وصلتني بعض المعلومات فسأنقلها لكم في الحال.

وسار عائداً إلى فندقه فوجد أن برقية قد وصلته في أثناء غيابه، ففضها، وكانت برقية طويلة قرأها مرتين قبل أن يضعها في جيبه. وعندما صعد إلى أعلى وجد جورج في انتظاره فقال له: إنني متعب يا جورج، في غاية التعب، فهلا طلبت لي كوباً من الشاي؟

ووصل الشاي، فوضع جورج الكوب على المنضدة الصغيرة قريباً من سيده، وإذ هو يستعد للانصراف قال بوارو: أعتقد يا جورج أنك تعلم الكثير عن الطبقة الأرستقراطية الإنجليزية، فهل

ترى أن المجرمين ينحدرون من الطبقات الدنيا؟

- ليس دائماً يا سيدي؛ فقد سبب ابن دوق ديفايز الكثير من المتاعب، وهناك أيضاً ابنة الليدي ماري فوكس التي كانت تحتال على التجار. وهناك كثير من مثل هذا الحالات الغريبة.

قال بوارو: إن لك تجارب واسعة يا جورج، وكثيراً ما سألت نفسي: ما دمت قد عشت زمناً طويلاً وسط هذه العائلات العريقة فكيف رضيت بأن تحط من قدرك وتعمل معي؟ إنني أُرجع هذا إلى حبك للمغامرات.

- ليس تماماً يا سيدي، فقد حدث أن قرأت خبراً في صفحة المجتمع بأنك قد استُقبلت رسمياً في قصر بكنغهام وأن جلالة الملك قد عّبر عن تقديره لمواهبك، وقد حدث هذا في وقت كنت أبحث فيه عن عمل جديد.

ظل بوارو مستغرقاً في التفكير فترة، ثم قال: هل اتصلت تليفونياً بالآنسة بابوبولوس؟

- نعم يا سيدي، ويسعدها هي ووالدها أن يتناولا العشاء معك الليلة.

همس بوارو لنفسه: إن السنجاب يجمع البندق ويخزنه في الخريف عله ينتفع به فيما بعد، وقد قمت بدور السنجاب فاختزنت حقيقة من هنا وأخرى من هناك، والآن أعود إلى مخزني فالتقط بندقة بعينها، بندقة اختزنتها سبعة عشر عاماً.

* * *

الفصل السابع عشر

خرج بوارو قبل موعد العشاء بثلاثة أرباع الساعة، وكان له هدف معين. لم تحمله السيارة إلى مونتي كارلو مباشرة بل عرج على منزل الليدي تامبين في كاب مارتان حيث سأل عن الآنسة جراي. ودخل بوارو إلى صالون صغير ينتظر، وبعد نحو ثلاث دقائق أقبلت لينوكس تامبلين فقالت: إن كاترين لم تفرغ من ارتداء ملابسها بعد، هل أحمل لها رسالة أم تفضل أن تنتظرها حتى تحضر؟

نظر إليها بوارو وهو يفكر ملياً، وصمت دقيقة أو اثنتين قل أن يجيب، وأخيراً قال: لا، لا أظن أن من الضروري أن أنتظر لأرى الآنسة كاترين. أظن أنه من الأفضل ألا أنتظر، فمثل هذه الأمور صعبة.

وانتظرت لينوكس بأدب وقد ارتفع حاجباها قليلاً، فاستطرد بوارو: لديّ خبر ربما تكرمت بنقله إلى صديقتك. لقد قُبض على السيد كترنج الليلة بتهمة قتل زوجته.

سألته لينوكس: أتريدني أن أخبر كاترين بهذا؟

راحت تلهث كما لو كانت قد جرت مسافة طويلة، وبدا وجهها شاحباً بشكل ملحوظ.

- لو سمحت يا آنسة.

- لماذا؟ هل تعتقد أن كاترين ستحزن لهذا الخبر؟ أتعتقد أنها تهتم به؟

- لا أدري يا آنسة. إنني أعترف بصراحة، أنا الذي أعرف كل شيء عادة، أنني لا أعلم هذا. ربما كنت تعرفين عن هذا الموضوع أكثر مما أعرف.

- نعم، أعرف؛ ولكني لن أقول لك شيئاً.

وأمسكت عن الكلام برهة وقد عقدت حاجبيها، ثم سألته فجأة: أتظن أنه قتلها؟

هزّ بوارو كتفيه وقال: هكذا تقول الشرطة.

- أراك تتهرب من الإجابة. إذن فهناك ما يحملك على هذا.

ومرة أخرى صمتت وقد عبست، فقال بوارو برقة: لقد عرفتِ ديرك كترنج منذ فترة طويلة، أليس كذلك؟

فردت قائلة بخشونة: منذ أن كنت صغيرة.

فأومأ برأسه عدة مرات دون أن يتكلم. وبحركة مفاجئة جذبت لينوكس مقعداً وجلست عليه وقد وضعت مرفقيها على المنضدة وأسندت وجهها إلى كفيها، ثم نظرت إلى بوارو وقالت: وما الذي يستندون إليه؟ الدافع على ما أظن، من المحتمل أنه قد ورث مبلغاً كبيراً بوفاتها.

- لقد ورث مليوني جنيه.

- ولو أنها لم تمت لكان قد أفلس؟

- نعم.

قالت لينوكس بإصرار: ولكن يجب أن يكون في الأمر أكثر من هذا. لقد سافر بنفس القطار، ولكن هذا وحده ليس كافياً.

- هناك شخصان رأياه يدخل إلى مقصورة زوجته ويخرج منها قبل أن يصل القطار إلى محطة ليون مباشرة.

- من هما؟

- كانت صديقتك الآنسة جراي إحداهما، وكانت الأخرى الآنسة ميراي، الراقصة.

- وهو، ماذا قال؟

- لقد أنكر أنه دخل مقصورة زوجته أصلاً.

فردّت لينوكس بحدة وهي متجهمة: مغفل! أتقول قبل أن يصل القطار إلى ليون مباشرة؟ وهل يعرف أحد متى حدثت الوفاة؟

- إن شهادة الأطباء ليست محددة تماماً، فهم يميلون إلى الاعتقاد بأن الوفاة حدثت بعد أن غادر القطار محطة ليون. ونحن نعرف أن السيدة كترنج كانت ميتة بعد بضع دقائق من مغادرة القطار لمحطة ليون.

- وكيف عرفت هذا؟

- لقد دخل أحدهم المقصورة فوجدها ميتة.

- ولم يقيموا الدنيا ويقعدوها؟

- لا.

- ولماذا؟

- لا شك أنه كانت لديهم الأسباب لهذا التصرف.

فنظرت إليه لينوكس بحدة وقالت: وهل تعرف السبب؟

- نعم.

جلست لينوكس وهي تتدبر الأمر كله في رأسها وأخذ بوارو يراقبها في صمت، وأخيراً رفعت رأسها وعاد الدم إلى وجهها وقالت: أنت تعتقد أن أحد ركاب القطار هو الذي قتلها، ولكن هذا ليس ضرورياً أبداً. فما الذي يمنع من أن يتسلل أي شخص إلى القطار عندما توقف في ليون فيذهب مباشرة إلى مقصورتها ويخنقها، ويأخذ المجوهرات ثم يغادر القطار دون أن يلحظ أحد شيئاً؟ وعندئذ يكون الأمر هكذا: حين دخل ديرك كانت ما زالت حية، وحين دخل الشخص الآخر كانت قد فارقت الحياة.

استند بوارو إلى كرسيه وسحب نفساً طويلاً، ونظر إلى الفتاة وأومأ برأسه ثلاث مرات، ثم زفر وقال: يا آنسة، إن ما قلته الآن صحيح تماماً. لقد كنت أتخبط في الظلام فبعثتِ بصيصاً من الضوء ليهديني! لقد كانت هذه المسألة تحيرني ولكنك أوضحتها تماماً.

ونهض واقفاً فسألت لينوكس: وماذا عن ديرك؟

فقال بوارو وهو يهز كتفه: من يدري؟ ولكني سأقول لك شيئاً: إنني لست راضياً، أنا هيركيول بوارو لست راضياً بعد، وربما عرفت شيئاً جديداً هذه الليلة، أو على الأقل هذا ما سأمضي من أجله.

- هل ستقابل شخصاً؟

- نعم.

- شخصاً يعرف شيئاً؟

- شخصاً قد يعرف شيئاً؛ ففي مثل هذه الظروف لا بد ألا يهمل الإنسان صغيرة أو كبيرة. وداعاً يا آنسة.

رافقته لينوكس إلى الباب ثم سألته: ترى هل ساعدتك؟

لانت قسمات وجه بوارو وهو ينظر إليها وقد وقفت على عتبة الباب: نعم يا آنسة، لقد ساعدتني.

وعندما انطلقت السيارة استغرق في التفكير وقد شع من عينيه ذلك الضوء الغريب الذي يسبق كل انتصار يحققه.

* * *

وصل متأخراً عن موعده قليلاً فوجد بابوبولوس وابنته قد وصلا قبله، فاعتذر، وكان كالعهد به دائماً مهذباً لطيفاً. وكانت تبدو على الرجل اليوناني ملامح الطيبة والنبل وكانت زيا تبدو جميلة مرحة، كما كان العشاء جيداً، وبدا بوارو في أحسن حالاته فجعل يروي النكت ويجامل زيا ويروي الكثير من طرائف مهنته، وفي نهاية العشاء قال بابوبولوس بأدب: وماذا عن المعلومات التي قلتها لك؟ هل استفسرت عن الحصان؟

فرد بوارو: إنني أجري اتصالات مع مكتب المراهنات.

والتقت عينا الرجلين فقال بابوبولوس: أهو حصان معروف؟

- لا، إنه كما يقول أصدقاؤنا الإنجليز «حصان غامض».

بعد العشاء لازم بوارو زيا بينما انسلّ بابوبولوس بعيداً. ودار بوارو ببصره حول القاعة ثم قال بلا اكتراث: إنني لا أرى والدك هنا. سأذهب لأحضر معطفك يا آنسة حتى نخرج إلى الحديقة.

ولكنه لم يذهب مباشرة إلى غرفة الملابس، فقد كان يريد أن يعرف أين ذهب اليوناني الماكر. ورآه في القاعة الكبيرة قرب المدخل، كان واقفاً بجوار أحد الأعمدة يتحدث مع سيدة وصلت لتوها، وكانت السيدة هي ميراي. ودار بوارو دون أن يلحظ أحد

حول القاعة حتى وصل إلى الناحية الأخرى من العمود دون أن يلحظه الاثنان اللذان كانا يتحدثان بانفعال. كانت الراقصة تقول: يجب أن تمنحني الوقت الكافي، ولو فعلت فسأحصل على المال. فقال اليوناني وهو يهز كتفه: الانتظار سيجعل الموقف حرجاً. فتوسلت بقولها: فقط لفترة قصيرة، ولكن يجب أن ننتظر أسبوعاً أو عشرة أيام. هذا هو كل ما أطلبه، ولتطمئن إلى أن المال سيأتي.

نظر بابوبولوس حوله بقلق ليجد بوارو على مقربة منه وقال: أين أنت يا سيد بابوبولوس؟ لقد كنت أبحث عنك. سوف أصحب الآنسة زيا بجولة في الحديقة إن كنت لا تمانع.

ثم انحنى لميراي وقال: مساء الخير يا آنسة.

وتلقت الراقصة تحيته بصبر نافذ. كان من الواضح أنها قد استاءت لقطع حديثها مع بابوبولوس، ولاحظ بوارو ذلك فانسحب بعد أن أذن له بابوبولوس بما أراد. وذهب فأحضر معطف زيا فخرجا يتمشيان في الحديقة.

قالت زيا: لقد مر سبعة عشر عاماً منذ قدمتَ لنا يد المساعدة في باريس تلك المرة.

فقال بوارو بشهامة: حينما أنظر إليك يبدو وكأنها لم تمض على ذلك إلاّ فترة بسيطة. كنت عندئذ كما أنت الآن، إلاّ أنك كنت أنحف قليلاً. كنت في السادسة عشرة، وقد انتهيت من دراستك.

فقالت زيا: في السادسة عشرة تكون الفتاة بسيطة وطائشة.

- ربما كان هذا صحيحاً، ففي هذه السن يكون المرء سريع التصديق لكل ما يقال، أليس كذلك؟

وإذا كان بوارو قد رأى النظرة التي رمقته بها الفتاة فإنه قد

تظاهر بغير ذلك، واستطرد بلهجة حالمة: لقد كانت مسألة غريبة تلك التي حدثت، ولم يقدّر لوالدك أن يعرف ما حدث تماماً.

- أصحيح ما تقول؟

- حين سألني عن التفاصيل قلت له: بلا إثارة أية فضائح، لقد أعدت لك ما فقدته فلا تسأل أي سؤال. أتعرفين لماذا قلت ذلك؟

ردت الفتاة بهدوء: ليست لديّ أدنى فكرة.

- لأنني كنت أحمل في قلبي شيئاً لفتاة شاحبة نحيلة.

صاحت زيا بغضب: لا أفهم عم تتحدث.

- حقاً يا آنسة؟ هل نسيت أنتونيو بيريزيو؟

سمع شهقتها واستطرد يقول: لقد حضر ليعمل مساعداً في محل والدك، ولكن هذا الوضع لم يكن ليتيح له الفرصة ليأخذ ما يريد. إذن فليتطلع إلى ابنة صاحب العمل، أليس كذلك؟ خاصة إذا كان شاباً وسيماً طلق اللسان. وكانا يتحدثان عن اهتماماتهما المشتركة، مثل ذلك الشيء الرائع الذي كان في حوزة السيد بابوبولوس في تلك الفترة. ولما كان الشباب -كما تقولين يا آنسة- يتميز بالطيش وسرعة التصديق كان من السهل تصديقه وإعطاؤه الفرصة ليلقي نظرة على ذلك الشيء وإخباره بالمكان الذي يحفظ فيه. وبعد ذلك حين اختفى، وحين وقعت الكارثة التي يصعب تصديقها كانت الفتاة الصغيرة المسكينة في مأزق عصيب. كانت خائفة؛ أتتكلم أم تسكت؟ وبعدئذ حضر ذلك الشخص الرائع المدعو هيركيول بوارو. لا بد أن الأمر كان معجزة، وعاد الشيء المفقود دون أية أسئلة محرجة.

استدارت زيا نحوه قائلة بشراسة: إذن فقد كنت تعرف طول

الوقت! من الذي أخبرك؟ أهو أنتونيو؟

فهزّ بوارو رأسه نفياً ورد بهدوء: لم يقل لي أحد شيئاً. لقد خمنت وصدق حدسي، أليس كذلك يا آنسة؟ فكما ترين، ما لم يكن الشخص صادقاً في تخمينه فلا فائدة من عمله كمخبر.

سارت الفتاة إلى جانبه فترة وهي صامتة، ثم قالت بجفاء: حسناً، ماذا تنوي أن تفعل؟ أتزمع إطلاع والدي على الأمر؟

لكن بوارو رد بحدة: كلا، بكل تأكيد.

ونظرت إليه بدهشة: إذن فأنت تريد مني شيئاً؟

- أريد مساعدتك يا آنسة.

- ولماذا تعتقد أنني سأساعدك؟

- أنا لا أعتقد شيئاً، إنني آمل فقط.

- وإذا لم أساعدك، ترى هل ستخبر والدي؟

- كلا، كلا؛ انزعي من رأسك هذه الفكرة يا آنسة فأنا لست مبتزاً أسلط سرك على رأسك فأهددك به.

- وإذا رفضت أن أساعدك؟

- إذا رفضت؟ فليكن.

- إذن لماذا...

وسكتت، فقال: اسمعي، سأقول لك لماذا. إن النساء يا آنسة كريمات، فإذا كان في مقدورهن أن يؤدين خدمة إلى شخص سبق أن أدى لهن خدمة فسيفعلن. وقد كنت كريماً معك يا آنسة ذات مرة، وحين كان في إمكاني أن أتكلم أمسكت لساني.

تلت ذلك فترة صمت، ثم قالت الفتاة: لقد أخبرك والدي ببعض المعلومات في ذلك اليوم.

- لقد كان كرماً منه أن يفعل.

قالت زيا متمهلة: وأنا أود أن أساعدك إذا كان باستطاعتي.

- إنه لكرم منك أن تفعلي يا آنسة، كرم عظيم.

تلت ذلك فترة صمت أخرى، ولم يتعجلها بوارو في الحديث، كان راضياً بالانتظار وبمنحها حرية اختيار الوقت الذي تتكلم فيه. وأخيراً قالت زيا: لماذا لا أخبرك؟ إن والدي شديد الحذر، دائماً شديد الحذر، ولكني أعلم أن هذا ليس ضرورياً معك، فقد أخبرتنا بأنك تبحث عن القاتل وأن أمر المجوهرات لا يعنيك، وأنا أصدقك. لقد أصبت حين خمّنت أننا جئنا إلى نيس من أجل أحجار الياقوت، فقد سُلّمت هنا طبقاً لخطة سابقة وهي الآن في حوزة أبي، وقد ألمح لك من قبل عن شخصية العميل الغامض.

فسأل بوارو هامساً: الماركيز؟

- نعم، الماركيز.

- هل سبق لك أن رأيت الماركيز يا آنسة؟

فردت الفتاة: مرة واحدة. ولكني لم أره جيداً، إذ كان ذلك من خلال ثقب المفتاح.

فقال بوارو: إن هذا يبدو صعباً، ولكنك رأيته على أية حال. أتستطيعين التعرف عليه؟

فهزت رأسها نفياً وقالت: لقد كان يرتدي قناعاً.

- أشاب هو أم متقدم في السن؟

– كان شعره أبيض. قد يكون ذلك شعراً مستعاراً وقد لا يكون، ولكنه كان يناسبه تماماً. وإن كنت أظن أنه ليس عجوزاً، فقد كانت مشيته تدل على شبابه وكذلك كان صوته.

– صوته؟ أتستطيعين التعرف عليه مرة أخرى يا آنسة؟

– ربما.

– هل كنت مهتمة به فكان هذا الاهتمام هو ما حملك على النظر من خلال ثقب المفتاح؟

أومأت زيا برأسها قائلة: نعم، نعم؛ كنت أشعر بالفضول، فقد سمعت عنه الكثير. لم يكن لصاً عادياً بل كان يبدو كشخصية تاريخية أو خيالية.

قال بوارو وهو مستغرق في أفكاره: نعم، نعم، ربما كان كذلك.

– ولكن ليس هذا كل ما أردت أن أفضي إليك به، إنما أردت أن أخبرك بحقيقة أخرى أعتقد أنها قد تساعدك.

فقال لها بوارو مشجعاً: نعم؟

– لقد سُلّمت أحجار الياقوت إلى أبي هنا في نيس، ولم أر الشخص الذي سلمها ولكنه...

– نعم؟

– شيء واحد عرفته، لقد كانت امرأة.

* * *

الفصل الثامن عشر

قالت لينوكس: هالو كاترين، ما بالك؟

ردت كاترين بشرود: لا شيء.

فقالت لينوكس: لقد كان شكلك يبدو غريباً. أقول وأرجو ألا يزعجك كلامي هذا: إني قد اتصلت بصديقك المخبر وطلبت منه أن يقبل دعوتنا له على الغداء في نيس. وقلت له إنك تودين رؤيته، إذ ظننت أنه لن يحضر من أجلي فقط.

فسألتها كاترين: وهل أردت رؤيته؟

كانت تتحدث وهي شاردة، فقد كانت الأيام القليلة الماضية بمثابة اختبار لقوة تحملها، وكان إلقاء القبض على ديرك كترنج موضوع الساعة كما كانت جريمة القطار الأزرق مثار كل حديث.

وقالت لينوكس: لقد طلبت السيارة وكذبت على أمي، وإن كنت لا أذكر للأسف ماذا قلت لها بالضبط. ولكن هذا لا يهم فهي لا تتذكر أي شيء، ولو أنها عرفت بهدفنا لأرادت الذهاب معنا لتستقبل مسيو بوارو.

ووصلت الفتاتان إلى النجرسكو لتجدا بوارو في انتظارهما. وكان مهذباً كعادته فأخذ يمطرهما بالمجاملات حتى استغرقتا في الضحك، ورغم هذا كله فإن الغداء لم يمض في جو مرح،

إذ كانت كاترين شاردة مشتتة وكانت لينوكس تتفجر في الحديث ثم تتوقف. وبينما كانوا يجلسون في الشرفة يشربون القهوة سألت بوارو فجأة: كيف تسير الأمور؟

فهز كتفيه وقال: إن كل شيء يأخذ مجراه.

ودار حديث طويل حول آخر تطورات القضية، وبعد ذلك استعد بوارو للانصراف وقال: شكراً على كرمكما يا آنستين، فقد كان غداء رائعاً وكنت في أشد الحاجة إليه. ثم نفخ صدره وأشار إليه بإبهامه: أشعر الآن كما لو كنت أسداً عملاقاً. آه يا آنسة كاترين! إنك لم تريني كما يجب. لقد رأيت هيركيول بوارو الرقيق الهادئ ولكن هناك هيركيول بوارو آخر، سأذهب الآن لأرغي وأزبد وأهدر وأتوعد وأبعث بالرعب في قلوب أولئك الذين سأتحدث إليهم.

ونظر إليهما باعتداد ليرى وقع كلامه عليهما. كانت لينوكس تعض شفتها السفلى ولاح بعض الشك على وجه كاترين. وقال بوارو بجدية: سأفعل، نعم، وسأنجح.

ثم تركها وعلى شفتيه ابتسامة فركب سيارة ومضى إلى أنتيب.

* * *

كان هيبوليت خادم الكونت دي لاروش ذو الوجه الجامد مشغولاً بتلميع طقم الكريستال في فيلا مارينا، وكان الكونت دي لاروش نفسه قد ذهب إلى مونتي كارلو ليقضي اليوم. وحدث أن نظر هيبوليت من النافذة فاكتشف زائراً غريباً يسير بسرعة متجهاً إلى باب الردهة، فنادى زوجته ماري التي كانت مشغولة في المطبخ ولفت نظرها إلى الزائر الغريب، فتساءلت ماري بقلق: أتكون الشرطة مرة أخرى؟

ودق جرس الباب فمضى هيبوليت ليفتحه وقال: إن سيدي الكونت ليس موجوداً للأسف.

فقال الرجل القصير ذو الشارب الكبير بهدوء: أعلم ذلك. أنت هيبوليت فلافيل، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي، هذا هو اسمي.

- وزوجتك تدعى ماري فلافيل؟

- نعم يا سيدي، ولكن...

- إنني أرغب في أن أراكما.

وخطا الغريب إلى داخل الردهة، وقال: لا شك أن زوجتك موجودة في المطبخ، سأذهب إلى هناك.

وقبل أن يفيق هيبوليت من دهشته كان بوارو قد دخل من الباب المؤدي إلى المطبخ حيث وقفت ماري في دهشة بالغة. وقال الغريب وهو يجلس على مقعد خشبي: أنا هيركيول بوارو.

- من؟

- ألا تعرف من هو هيركيول بوارو؟

فقال هيبوليت: لم أسمع به إطلاقاً.

- اسمح لي أن أقول إنهم لم يحسنوا تعليمك. إنه اسم واحد من أعظم الرجال في هذا العالم.

وتنهد وعقد ذراعيه على صدره. وكان هيبوليت وماري ينظران إليه بقلق، وكانا لا يدريان ما يمكن أن يفعلاه مع مثل هذا الزائر غير المتوقع الغريب الأطوار. ثم تمتم هيبوليت بطريقة آلية: هل يرغب سيدي...

- أرغب أن أعرف لماذا كذبت على الشرطة؟

فصاح هيبوليت: أنا كذبت على الشرطة؟ لم أفعل هذا أبداً.

هز بوارو رأسه وقال: أنت مخطئ، لقد فعلتها في مناسبات عدة. ثم أخرج مفكرة صغيرة من جيبه ورجع إليها وقال: نعم، لقد كذبت على الشرطة في سبع مناسبات على الأقل، سأعددها لك.

وبصوت هادئ وبلا انفعال ذكر المناسبات السبع. وبوغت هيبوليت، واستطرد بوارو يقول: أنا لا أرغب في الحديث عما مضى، ولكن لا تظن يا صديقي العزيز أنك ذكي. وأصل الآن إلى كذبة معينة يهمني أمرها، عندما قررت أن الكونت دي لاروش قد عاد إلى هذه الفيلا صباح يوم ١٤ يناير.

- ولكن هذا لم يكن كذباً، لقد كانت الحقيقة إذ عاد سيدي إلى هنا صباح الثلاثاء الرابع عشر، أليس كذلك يا ماري؟

رددت ماري بلهفة: نعم، نعم، هذا صحيح، أذكره تماماً.

قال بوارو: وماذا قدمت له من إفطار في ذلك اليوم؟

- أنا؟

سكتت ماري في محاولة لتجمع شتات فكرها، فقال بوارو: شيء غريب أن يذكر المرء شيئاً وينسى شيئاً آخر! ثم مال إلى الأمام فضرب المنضدة بقبضة يده وقد استشاطت عيناه غضباً: نعم، نعم؛ إنك تكذب وتظن أن أحداً لا يعلم.

- أؤكد لك يا سيدي أنك مخطئ تماماً، فإن سيدي الكونت قد غادر باريس مساء الاثنين.

فقال بوارو: هذا صحيح، بالقطار السريع. ولا أعلم أين قطع رحلته، وربما كنت أنت أيضاً لا تعلم هذا، ولكن ما أعلمه تماماً

هو أنه عاد إلى هنا صباح الأربعاء لا صباح الثلاثاء.

قالت ماري ببلاهة: لقد أخطأت يا سيدي.

فنهض بوارو واقفاً وقال: إذن يجب أن تأخذ العدالة مجراها، هذا مؤسف.

تساءلت ماري بحدة: ماذا تعني يا سيدي؟

- سيلقى عليكما القبض بتهمة الاشتراك في قتل السيدة كترنج، السيدة الإنجليزية التي لقيت مصرعها.

- قتل؟!

غاض الدم من وجه هيبوليت وارتعشت ركبتاه، بينما انفجرت ماري في البكاء: ولكن هذا مستحيل، مستحيل، كنت أظن...

- ما دمت مصمماً على قصتك فليس لدي ما أقوله، وأعتقد أنكما في غاية الغباء.

وكان قد استدار ليتجه ناحية الباب حين سمع صوتاً مرتعشاً يقول: سيدي، سيدي، لحظة واحدة. لم تكن لديّ فكرة عن الموضوع إذ كنت أعتقد أن الأمر متعلق بسيدة، فقد لاقينا بعض المتاعب من الشرطة بسبب سيدات من قبل، ولكن أن يكون في الأمر جريمة قتل فهذا مختلف تماماً.

فصاح بوارو: لقد نفد صبري.

ثم استدار نحوهما وهو يلوح بقبعته أمام وجه هيبوليت ويقول: هل سأبقى هنا طول اليوم أجادل زوجاً من البلهاء؟ إنني أريد الحقيقة فإذا لم تقلها لي فحذار، وللمرة الأخيرة أسألك: عندما عاد الكونت إلى فيلا مارينا هل كان ذلك صباح الثلاثاء أم صباح الأربعاء؟

فقال الرجل وهو يلهث: الأربعاء. ووقفت خلفه ماري وهي تومئ برأسها مؤيدة كلامه.

فقال بوارو بهدوء: إنكما عاقلان؛ لقد كنتما على وشك مواجهة مشكلات خطيرة.

وغادر فيلا مارينا وهو يبتسم لنفسه ويقول: ها قد تأكد حدسي الأول، لنرَ الثاني.

* * *

كانت الساعة السادسة حين وصلت ميراي بطاقة تحمل اسم هيركيول بوارو. وحدقت فيها لحظة ثم أومأت برأسها، وعندما دخل بوارو وجدها تذرع الغرفة جيئة وذهاباً وهي كالمحمومة، ثم استدارت إليه بغضب وصاحت: حسناً، ماذا تريد الآن؟ ألم تعذبوني بما يكفي؟ كلكم، ألم تدفعوا بي إلى خيانة ديرك المسكين؟ ماذا تريد أكثر من هذا؟

- سؤال واحد صغير يا آنسة. بعد أن غادر القطار محطة ليون ودخلتِ مقصورة السيدة كترنج...

- ماذا تقول؟

فنظر إليها بوارو نظرة عتاب وبدأ العبارة مرة أخرى: أقول عندما دخلت مقصورة السيدة كترنج...

- لم أفعل أبداً.

- وجدتها...

- لم أفعل أبداً.

- قد ماتت؟

واستدار نحوها في غضب هائل وأخذ يصيح بطريقة جعلتها تجفل: هل ستكذبين عليّ؟ إنني أقول لك إني أعلم ما حدث تماماً كما لو كنت موجوداً. لقد دخلت المقصورة ووجدتها ميتة، أقول لك إني أعلم هذا، أما أن تكذبي عليّ فهذا أمر خطير، حذار يا آنسة ميراي.

ارتعشت تحت وقع نظرته وأخذت تقول: إنني، إنني لم...

وسكتت، فمضى بوارو يسأل: هناك شيء واحد فقط أريد معرفته؛ ترى هل وجدت ما كنت تبحثين عنه أم...

- أم ماذا؟

- أم سبقك إليه شخص آخر؟

صاحت الراقصة: لن أجيب عن أي أسئلة أخرى.

وانتزعت نفسها بعيداً عن قبضته وأخذت تبكي وتصيح، ودخلت الخادمة مذعورة. ولكن هيركيول بوارو هز كتفيه ورفع حاجبيه ثم غادر الغرفة بهدوء. كان يبدو راضياً.

* * *

أخذ السيد جوزيف آرونز يتناول غداءه بشهية كبيرة، وابتسم وهو ينظر إلى مضيفه السيد هيركيول بوارو ثم قال: لقد تحدثت عن مهمة صغيرة يا سيد بوارو، ويسعدني أن أقدم لك أي مساعدة ما دام ذلك في استطاعتي.

فقال بوارو: كم هو لطيف منك هذا! لقد قلت لنفسي: إذا كنت تريد أن تعرف أي شيء عن عالم التمثيل فهناك شخص واحد فقط يعرف عنه كل شيء، وهو صديقي القديم السيد جوزيف آرونز.

فرد السيد آرونز بارتياح: لم يخب ظنك؛ فسواء كان الأمر يتعلق بالماضي أم الحاضر أم المستقبل فإن جو آرونز يعرف كل ما تريد.

- تماماً. والآن أريد أن أسألك يا سيد آرونز، ما الذي تعرفه عن شابة تدعى كيد؟

- كيد؟ كيتي كيد؟

- نعم، كيتي كيد.

- لقد كانت مغنية وراقصة. كانت أنيقة جداً، وكانت تكسب كثيراً ولم تتعطل عن العمل أبداً. وكان أغلب ما تقوم به أدوار الرجال وكانت تجيد التمثيل.

فقال بوارو: هذا ما سمعته، ولكنها لم تظهر كثيراً في الفترة الأخيرة، أليس كذلك؟

- بلى، فقد اختفت فجأة وذهبت إلى فرنسا فصادقت رجلاً ثرياً هناك وتركت المسرح إلى الأبد على ما أظن.

- ومتى حدث ذلك؟

- دعني أتذكر. منذ ثلاث سنوات، وقد كان اختفاؤها خسارة حقيقية.

- ألا تعرف اسم الرجل الذي صادقته في باريس؟

- كان رجلاً ثرياً، وأظن أنه كان ماركيزاً.

- ألم تسمع عنها شيئاً بعد ذلك؟

- لا، ولم أرها حتى ولو بالصدفة. وأغلب الظن أنها الآن تقوم بجولة في بلاد العالم ما دامت قد أصبحت ماركيزة.

قال بوارو وهو مستغرق بالتفكير: نعم، فهمت.

- يؤسفني ألا أستطيع أن أخبرك بأكثر من هذا يا سيد بوارو.

- لقد التقيت بإحدى الراقصات في الريفيرا، الآنسة ميراي. هل تعرفها؟

- ميراي؟ إنها تجيد الرقص، ورغم أني لم أحتك بها أبداً إلا أنني أسمع أنها متقلبة الأحوال حادة المزاج. وقد سمعت الآن أنها صديقة لرئيس وزراء اليونان السابق، فهذا النوع من الناس هم الذين يدفعون كثيراً.

- هذه أخبار جديدة بالنسبة لي.

- إنها ليست من النوع الذي يحتمل الحياة الخشنة، ويقولون إنها تتحلى بياقوتة في حجم بيضة الحمامة، وإن كنت لم أر في حياتي بيضة حمامة!

قال بوارو: ياقوتة في حجم بيضة الحمامة؟!

والتمعت عيناه الخضراوان كعيني القط وقال: إنه لشيء ممتع.

فرد السيد آرونز: لقد سمعت ذلك من صديق، ولكن حسب معلوماتي ربما كانت زجاجاً ملوناً. إنني أراهن بعشرة إلى واحد أنها قطعة من الزجاج الملون.

فقال بوارو برقة: لا، لا؛ يخيل إليّ أنها ليست قطعة من الزجاج الملون.

* * *

الفصل التاسع عشر

قال بوارو فجأة: لقد تغيرت يا آنسة.

كان يجلس هو وكاترين متقابلين على مائدة صغيرة في فندق سافوي في لندن، واستطرد يقول: نعم، لقد تغيرت.

- في أي شيء؟

- يا آنسة، هذه الأشياء يصعب التعبير عنها. عندما رأيتك أول مرة كنت تقفين متفرجة على الحياة وكنت تبدين هادئة مستمتعة كمن يرقب رواية تقدم أمامه.

- والآن؟

- الآن أنت ترقبين المشاهد، وقد يكون ما سأقوله مضحكاً، ولكن تبدو عليك نظرة الحرص التي تبدو على وجه مقاتل يقوم بلعبة صعبة. هل سمعتني أتحدث عن صديقي هاستنجز من قبل؟ ذلك الذي قال عني أنني قوقعة آدمية؟ حسناً يا آنستي، لقد وجدت نداً لي في شخصك، فأنت أكثر وحدة مني.

فقالت كاترين ببساطة: كلام فارغ.

- إن هيركيول بوارو لا يتكلم كلاماً فارغاً أبداً؛ الأمر كما قلت.

وتلت ذلك فترة صمت قطعها بوارو بقوله: هل رأيت أياً من أصدقائنا في الريفييرا منذ عودتك إلى لندن يا آنسة؟

- لقد رأيت الميجور نايتون.

- آه، حقاً؟

شيء ما في عيني بوارو المتألقتين جعل كاترين تغض بصرها. وقال: إذن فالسيد فان أولدين في لندن؟

- نعم.

- إذن يجب أن أراه غداً أو بعد غد.

- ألديك أخبار له؟

- ما الذي يجعلك تظنين ذلك؟

- فقط كنت أسأل، هذا كل ما في الأمر.

ونظر بوارو إليها بعينيه اللتين كانتا تلمعان: والآن يا آنسة، أشعر أن لديك ما تريدين الاستفسار عنه. ولمَ لا؟ أليست جريمة القطار الأزرق هي قصتنا البوليسية؟

- نعم، هناك بعض الأشياء أود أن أسألك عنها.

- حسناً؟

رفعت كاترين رأسها فجأة وسألته بحزم: ما الذي كنت تفعله في باريس يا سيد بوارو؟

فابتسم بوارو ابتسامة خفيفة وقال: لقد قمت بزيارة للسفارة الروسية.

- آه!

– هذا لا يضيف إلى معلوماتك جديداً، ولكني لن أكون قوقعة بشرية؛ سأكشف لك عن أوراقي وهو ما لا تفعله القواقع أبداً. أنت تشكّين في أني لست مقتنعاً تماماً بالاتهام الموجه ضد ديرك كترنج، أليس كذلك؟

– هذا ما كنت أعجب له، فقد اعتقدت ونحن في نيس أنك قد انتهيت من هذه القضية.

– لقد كنت أنا، أو على الأصح تصريحاتي، هي التي وضعت ديرك كترنج حيث هو الآن، ولولاي لكان المحقق يحاول إلصاق التهمة بالكونت دي لاروش بلا فائدة. حسناً يا آنسة، إنني لست نادماً على ما فعلت فقد كان عليّ واجب واحد فقط هو أن أكتشف الحقيقة. لقد قادني هذا الطريق مباشرة إلى ديرك كترنج، ولكن هل انتهى هناك؟ الشرطة تقول نعم، ولكن هيركيول بوارو ليس مقتنعاً.

وتوقف فجأة عن الكلام ثم قال: يا آنسة، أشعر الآن أنني أقترب من موضوع حساس، ولكني أخاف؛ فهناك سيدة تحب السيد كترنج... رديني إلى الصواب إذا أخطأت... ومن أجلها، نعم من أجلها أتمنى أن أكون أنا على صواب وتكون الشرطة هي المخطئة. أتعلمين من هي هذه السيدة؟

وتلت ذلك فترة صمت أخرى، ثم قالت كاترين: نعم، أعتقد أنني أعلم.

ومال بوارو إليها وقال: أنا لست مقتنعاً يا آنسة، نعم، لست مقتنعاً. لقد قادتنا الحقائق مباشرة إلى السيد كترنج، ولكن هناك شيئاً واحداً لم يؤخذ في الاعتبار.

– ما هو؟

- إنه وجه الضحية المشوه. وقد ساءلت نفسي مئة مرة: هل كان ديرك كترنج من ذلك النوع الذي يصوب إلى زوجته الضربة الساحقة بعد أن قتلها، ولأي هدف يفعل ذلك؟ وكان الرد على هذه الأسئلة غير مقنع تماماً يا آنسة، وأجدني أعود المرة تلو الأخرى إلى هذه النقطة وأتساءل: لماذا؟ وكل ما أتوصل إليه كحل لهذه المشكلة كالآتي.

وأخرج مفكرته فالتقط منها شيئاً وضعه بين أصابعه: أتذكرين يا آنسة؟ لقد رأيتني آخذ هذه الشعرات عن البطانية في عربة القطار.

انحنت كاترين إلى الأمام وهي تحدق في الشعرات، فأومأ بوارو برأسه عدة مرات ثم قال: قد لا توحي هذه الشعرات إليك بشيء كما أرى، ولكن أظن أنك ترين فيها الكثير.

فقالت كاترين ببطء: لقد راودتني أفكار غريبة، ولهذا السبب سألتك: ما الذي كنت تفعله في باريس يا سيد بوارو؟

- عندما كتبت إليك...

- من الريتز؟

وتلاعبت ابتسامة على وجه بوارو وقال: نعم، كما تقولين، من الريتز. فأنا رجل أحب الترف أحياناً حين يقوم مليونير بدفع الحساب.

قالت كاترين وهي تعبس: والسفارة الروسية؟ لا أستطيع أن أرى لها دخلاً في الموضوع.

- ليس لها دخل مباشر يا آنسة، ولكني ذهبت إلى هناك لأحصل على معلومات معينة، وقابلت شخصاً معيناً وهددته، نعم يا آنسة، أنا هيركيول بوارو هددته.

- هددته بالشرطة؟

- لا، بل بالصحافة، وهي سلاح أمضى من الشرطة كثيراً.

ونظر إلى كاترين فابتسمت له وهي تهز رأسها: ألا ترى أنك عدت إلى طبيعة القواقع يا سيد بوارو؟

- لا، لا؛ فأنا لا أريد ألغازاً. اسمعي، سأقول لك كل شيء. كنت أشكّ في ذلك الرجل وفي قيامه بدور فعّال في صفقة المجوهرات التي اشتراها السيد فان أولدين، وفي النهاية عرفت منه الحقيقة كلها، وعرفت أين سلمت المجوهرات، وعرفت أيضاً من هو الرجل الذي كان يذرع الطريق ذهاباً وإياباً في تلك الليلة... رجل ذو شعر أشيب وقور، ولكنه يسير بخطى خفيفة سريعة، خطوات شاب. ولقد أطلق على هذا الرجل اسم «الماركيز».

- والآن حضرت إلى لندن لترى السيد فان أولدين؟

- ليس تماماً لهذا السبب، فلديّ عمل آخر أقوم به. منذ حضرت إلى لندن التقيت بشخصين آخرين، وكيل مسرحي وطبيب في شارع هارلي، ومن كل منهما حصلت على بعض المعلومات. فاجمعي كل هذه المعلومات معاً يا آنسة لنرى هل تستطيعين الخروج منها بما خرجت به أنا.

- أنا؟

- نعم، أنت. وسأخبرك بشيء واحد: لقد كنت دائماً أشك فيما إذا كانت جريمة السرقة وجريمة القتل قد ارتكبهما شخص واحد، وبقيت فترة طويلة غير واثق.

- والآن؟

- والآن أنا أعرف.

وتلت ذلك فترة صمت، ثم رفعت كاترين رأسها وقد التمعت عيناها وقالت: أنا لست ذكية مثلك يا سيد بوارو. إن أفكاري تبدو مثيرة للضحك وقد تختلف تماماً عن أفكارك، ولكن...

- نعم؟

- أخبرني، هل تساعدك هذه القصاصة في شيء؟

أخذ قصاصة صحيفة من يدها التي مدتها إليه، وقرأها ثم رفع رأسه وأومأ بجدية وقال: يا آنسة، كل فرد يقف في زاوية مختلفة لينظر إلى المرآة، ولكنها نفس المرآة ونفس الحقائق تنعكس عليها في النهاية.

ثم نهضت كاترين وقالت: يجب أن أسرع لألحق بالقطار. سيد بوارو...

- نعم يا آنسة؟

- يجب ألا يتأخر الأمر كثيراً، أتفهمني؟ فأنا لا أستطيع أن أستمر هكذا.

ربّت بوارو على يدها مطمئناً وهو يقول: تشجعي يا آنسة، فالنهاية قد أصبحت وشيكة جداً.

* * *

- السيد بوارو يريد أن يتحدث إليك يا سيدي.

صاح فان أولدين: عليه اللعنة!

وبقي نايتون صامتاً، ثم نهض فان أولدين من مقعده وجعل يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، ثم قال: أظن أنك قد رأيت الصحف اللعينة اليوم؟

- لقد ألقيت عليها نظرة يا سيدي.

- أما زالت تطنطن بالأخبار؟

- أظن ذلك يا سيدي.

وجلس المليونير مرة أخرى وقد أخذ يضغط على جبهته: لو كانت لديّ أدنى فكرة عما سيحدث لتمنيت على الله ألا يصل هذا البلجيكي القصير إلى لب الحقيقة، لقد كان كل همي أن يكتشف قاتل روث.

- أكنت تريد أن يبقى زوج ابنتك حراً طليقاً؟

- لا عليك. أواثق أنت من أن بوارو يريد أن يراني؟

- نعم يا سيدي، إنه متلهف على لقائك.

- إذن ليكن له ما أراد، دعه يحضر.

دخل بوارو وهو يتألق بشراً وسعادة. ولم يبدُ عليه أنه لاحظ فتوراً في استقبال المليونير له فأخذ يثرثر في موضوعات شتى، وقال إنه قد ذهب إلى لندن ليستشير طبيبه، وذكر اسم أحد أكبر الجراحين. ثم قال موجهاً حديثه إلى السكرتير ببراءة: هل رأيت الآنسة جراي؟

- أنا؟ نعم، رأيتها مرة أو مرتين.

وتصاعد الدم إلى وجهه فصاح فان أولدين بدهشة: غريب، أنت لم تذكر ذلك أمامي أبداً يا نايتون.

- ظننت أن الأمر لا يهمك.

قال بوارو وعيناه تلمعان قليلاً: والآن هيا إلى العمل أيها السادة.

فنظر إليه الرجلان بشيء من الدهشة، واستطرد يقول: يجب ألا تنزعجا لما سأقول. لنفرض يا سيد فان أولدين أن السيد ديرك لم يقتل زوجته؟

- ماذا تقول؟

وحدق فيه الرجلان بدهشة بالغة، فقال: أقول، لنفرض أن ديرك كترنج لم يقتل زوجته.

- هل جننت يا سيد بوارو؟

كان ذلك هو فان أولدين. ورد بوارو: لا، لست مجنوناً. قد أكون شخصاً غريب الأطوار... أو هذا ما يظنه بعض الناس... ولكن فيما يختص بعملي فأنا أعيش فيه بكياني كله كما يقول المثل. والآن، أوجّه إليك هذا السؤال يا سيد فان أولدين: هل سيسعدك هذا أم سيزعجك؟

حملق فيه فان أولدين دهشاً، ثم قال أخيراً: سأسر طبعاً، ولكن يا سيد بوارو، أهذا اختبار ذكاء أم أن هناك حقائق تؤيده؟

نظر بوارو إلى السقف ثم قال بهدوء: هناك احتمال بعيد بأن الفاعل قد يكون الكونت دي لاروش، فقد نجحت في زعزعة ادّعائه بأنه كان بعيداً عن مكان الجريمة.

- وكيف تأتى لك هذا؟

فهز بوارو كتفيه بتواضع وقال: لدي وسائلي الخاصة، بشيء من اللباقة والذكاء وصلت إلى ما أردته.

قال فان أولدين: ولكن ماذا عن المجوهرات؟ إن تلك التي كانت في حوزته مقلدة.

- ومن الواضح أنه لم يكن ليفعلها إلا من أجل الياقوت،

ولكنك تغفل شيئاً واحداً يا سيد فان أولدين فيما يتعلق بالياقوت، قد يكون شخص آخر قد سبقه إليه.

ثم قال بوارو بهدوء: إن الدليل لم يقم بعد على أي شيء، فهي مجرد نظرية. ولكني أقول لك شيئاً: إن الأمر جدير بالبحث، ويجب أن تذهب معي إلى جنوب فرنسا لنفحص الحادث في مكان حدوثه.

كان صوته يحمل نبرة عتاب لم تخف على الآخر، فقال: نعم، نعم، بالطبع. متى تريد أن نبدأ يا سيد بوارو؟

فرد بوارو وهو يبتسم: أعتقد أننا سنذهب بالقطار الأزرق في أول رحلة له.

* * *

اندفع القطار الأزرق عبر منحنى في الطريق بسرعة جنونية، وكان فان أولدين ونايتون وبوارو يجلسون في صمت، وكان نايتون وفان أولدين يحتلان مقصورتين يفصل بينهما باب كما كان الحال عندما قامت روث كترنج ووصيفتها بتلك الرحلة المشئومة، وكانت مقصورة بوارو بعيدة عنهما.

كانت رحلة مثيرة لأشجان فان أولدين أيقظت في نفسه كل الذكريات المؤلمة، وتبادل بوارو ونايتون الحديث أحياناً بصوت خفيض حتى لا يزعجاه. وعندما أنهى القطار رحلته البطيئة ووصل إلى محطة ليون أصبح بوارو فجأة شعلة متقدة من النشاط، وأدرك فان أولدين أن أحد أهدافه من السفر بالقطار هو أن يعيد تصوير الجريمة، وكان بوارو نفسه يقوم بكل الأدوار؛ فقام بدور الوصيفة وقد أغلق باب مقصورتها، وروث وقد بدت على وجهها المفاجأة والقلق عندما رأت زوجها، وديرك عندما اكتشف أن زوجته تسافر

على نفس القطار...

وأخذ بوارو يقلب الاحتمالات مثل أفضل طريقة يستطيع بها الشخص أن يخفي نفسه عن الأنظار داخل المقصورة الثانية. وفجأة بدا أن فكرة ما قد داهمته، فأمسك بذراع فان أولدين وصرخ قائلاً: يا الهي! هذا شيء لم أفكر فيه أبداً. يجب أن نقطع رحلتنا في باريس. هيا، أسرعا، يجب أن ننزل حالاً.

وأسرع يغادر القطار وهو يمسك بالحقائب في يده، وتبعه فان أولدين ونايتون حائرين ولكن دون أية معارضة. وكان عسيراً على فان أولدين أن يغير من رأيه الذي عرفه عن بوارو. لكنهم توقفوا عند البوابة إذ كانت تذاكرهم مع محصل القطار، وهي حقيقة أغفلها الجميع!

وحاول بوارو أن يشرح لهم الأمر بسرعة وانفعال، ولكن كل ذلك لم يفد شيئاً، فقال فان أولدين: دعك من هذا. أعتقد أنك في عجلة من أمرك يا سيد بوارو، فلندفع أجرة القطار مرة أخرى من كاليه ولنواصل رحلتنا كما تريد.

ولكن بوارو توقف فجأة عن الكلام وبدا كالتمثال، وظلت يده التي كان يشير بها في حديثه على حالها كما لو كانت قد أصيبت بالشلل، وقال ببساطة: كم كنت مغفلاً! إنني أفقد رشدي كثيراً هذه الأيام. هيا بنا نرجع إلى القطار ونواصل رحلتنا في هدوء.

ولحسن الحظ أن القطار لم يتحرك بعد. وعادوا قبل أن يتحرك القطار مباشرة، بل إن نايتون ألقى بنفسه داخله وهو يتحرك وعه حقيبة. وأخذ المحصل يحتج على تصرفهم هذا منفعلاً وساعدهم على حمل حقائبهم مرة أخرى إلى مقصورتهم، وسكت فان أولدين فلم يقل شيئاً ولكن كان يبدو مستاء من تصرف بوارو الشاذ. وعندما

انفرد بنايتون قال: يا لها من مطاردة! لقد فقد الرجل سيطرته على نفسه؛ لقد توقف عقله عند نقطة معينة، وأي رجل يحدث له مثل هذا فيأخذ في الجري كالأرنب المذعور لا فائدة منه.

ودخل بوارو يقدم اعتذاره في خجل، فتقبل فان أولدين كلماته بصرامة ولكنه نجح في أن يكتم تعليقاته اللاذعة في صدره. ثم تناولوا عشاءهم في القطار، وبعد ذلك -ولدهشة الآخرين- اقترح بوارو أن يجلسوا جميعاً في مقصورة فان أولدين.

نظر إليه المليونير دهشاً وسأله: أهناك شيء تخفيه عنا يا سيد بوارو؟

فتح بوارو عينيه في دهشة وبراءة وقال: أنا؟ يا لها من فكرة!

ولم يردّ فان أولدين، ولكنه بدا غير راض. وجلس الثلاثة في صمت، وتململ بوارو في جلسته وبدا قلقاً، ثم استدار إلى نايتون فقال: ميجور نايتون، ترى هل باب مقصورتك مغلق؟ أقصد الباب المؤدي إلى الممر؟

- نعم، لقد أغلقته بالمزلاج بنفسي الآن.

- أواثق أنت؟

ومضى بوارو خلال الباب الذي يفصل بين المقصورتين ثم عاد بعد ثانية أو اثنتين وهو يومئ برأسه ويقول: نعم، نعم، لقد كنت على حق، أرجو أن تغفر لرجل عجوز أخطاءه.

ثم أغلق الباب الفاصل بين المقصورتين وأخذ مكانه كما لو كان في الركن الأيمن. ومرت الساعات، وبين الفينة والفينة كان بوارو ينظر إلى ساعته ثم يومئ برأسه ويسلم نفسه للنعاس مرة أخرى. وفي مرة نهض واقفاً فدفع الباب الذي يفصل بين

المقصورتين وجال ببصره في المقصورة المجاورة ثم عاد إلى مقعده وهو يهز برأسه.

وتثاءب نايتون ثم همس: يا لها من رحلة متعبة! أظنك تعلم ما أنت فاعل يا سيد بوارو؟

واعتدل في جلسته عله يصيب شيئاً من الراحة، واستسلم هو وفان أولدين للنعاس بينما نظر بوارو في ساعته للمرة العشرين ثم مال إلى الأمام ولمس كتف المليونير الذي قال: ماذا هناك؟

- بعد نحو عشر دقائق سنصل إلى ليون.

- يا إلهي!

وامتقع وجه فان أولدين ثم قال: لا بد وأن المسكينة روث قد قُتلت في مثل هذا الوقت.

وجلس يحدق فيما أمامه وقد ارتجفت شفتاه قليلاً، وعقله يستعيد المأساة الدامية التي أحالت حياته إلى حزن مرير. وتناهى إلى أسماعهم صوت الفرامل، وأبطأ القطار من سرعته ثم توقف في محطة ليون، وفتح فان أولدين النافذة ونظر إلى الخارج وقال: إذا لم يكن ديرك هو الفاعل وكانت نظريتك الجديدة صحيحة سيكون الرجل قد غادر القطار هنا.

ولدهشته هز بوارو رأسه وقال وهو يفكر: لا، لم يغادر القطار رجلٌ ولكن امرأة على ما أعتقد.

وشهق نايتون وتساءل فان أولدين بحدة: امرأة؟!

أومأ بوارو برأسه وهو يقول: نعم، امرأة. قد لا تتذكر يا سيد فان أولدين أن الآنسة جراي قد ذكرت في شهادتها أن صبياً يرتدي كاباً ومعطفاً نزل إلى الرصيف متظاهراً بأنه يتمشى قليلاً. أما أنا

فأغلب ظني أن هذا الصبي كان امرأة.

- ولكن من هي؟

بدا على وجه فان أولدين عدم التصديق، ولكن بوارو أجابه جاداً: إن اسمها، أو الاسم الذي عُرفت به سنين طويلة، هو كيتي كيد. أما أنت يا سيد فان أولدين فكنت تعرفها باسم آخر، باسم آدا ميسون.

قفز نايتون وافقاً وصاح: ماذا؟!

فالتفت إليه بوارو وقال: آه، قبل أن أنسى...

وأخرج شيئاً من جيبه ومد يده وهو يقول: اسمح لي أن أقدم لك سيجارة من علبة سجائرك. لقد كان إهمالاً منك أن تسقطها عندما صعدت إلى القطار في باريس!

وقف نايتون يحملق فيه كمن شلت المفاجأة تفكيره، ثم مدّ يده، لكن بوارو سحب يده بالعلبة محذّراً: كلا، لا تتحرك؛ إن الباب المؤدّي إلى المقصورة المجاورة مفتوح وأنت في مرمى رصاص الشرطة في هذه اللحظة. لقد فتحت المزلاج المؤدي إلى الممر عندما غادر القطار باريس وطلبت إلى أصدقائنا من رجال الشرطة أن يتخذوا مكانهم هناك، ولعلك تعلم أن البوليس الفرنسي يجِدّ في طلبك يا ميجور نايتون... أو هل أقول: يا سيدي الماركيز؟!

* * *

الفصل العشرون

ابتسم بوارو. كان يجلس مقابل المليونير على مائدة الغداء في النجرسكو، وكان فان أولدين مرتاحاً لما توصلوا إليه من نتائج ولكنه كان في نفس الوقت في حيرة من أمره. قال: ما زلت عاجزاً عن فهم الطريقة التي توصّلتَ بها إلى حل اللغز يا سيد بوارو. هل كان ذلك كله بسبب علبة السجائر؟

اعتدل بوارو في كرسيه وهو يقول: لم تكن علبة سجائره هي التي حيرتني، بل أمر آخر. أتعلم ما هو؟ الوجه المشوه. إنه أمر نادر الحدوث، وكان يثير سؤالاً مباشراً عن شخصية الضحية. لذلك كانت مسألة شخصية الضحية هي أول ما واجهني: هل كانت السيدة كترنج فعلاً؟ ولكن سرعان ما وضعت شهادة الآنسة جراي حداً للتساؤل، كانت واثقة من أنها فعلاً السيدة كترنج ولذلك نحيت أي احتمال آخر جانباً، إذ كانت القتيلة هي ابنتك روث بلا جدال.

- ومتى بدأت تشك في الوصيفة؟

- لقد شد انتباهي شيء صغير، ذلك هو علبة السجائر التي وجدت في العربة والتي أخبرتني بأن السيدة كترنج، أي روث، كانت قد أهدتها لزوجها. وكان هذا احتمالاً بعيداً إذا نظرنا إلى الظروف التي كانا يعيشان فيها، فأشعل ذلك نار الشك في نفسي

وامتد شكي إلى أقوال آدا ميسون بصفة عامة. وكانت أيضاً هناك حقيقة أخرى، إن الوصيفة لم تلتحق بهذا العمل إلاّ منذ شهرين، وكانت تبدو بعيدة الصلة بالجريمة ما دامت قد تخلفت في باريس كما أن السيدة كترنج قد شوهدت بعد ذلك على قيد الحياة، ولكن...

ومال بوارو إلى الأمام ولوح بسبابته مؤكداً حديثه لفان أولدين: ولكني مخبر ممتاز، فأنا أشك. ما من شيء وما من شخص إلا وأشك فيه ولا أصدق أي شيء يقال لي. ولذا قلت لنفسي: كيف عرفنا أن آدا ميسون قد تخلفت في باريس؟ في بادئ الأمر بدت الإجابة عن هذا السؤال مقنعة تماماً، فهناك شهادة سكرتيرك المحايدة تماماً، وهناك أيضاً الكلمات التي قالتها القتيلة نفسها لمحصل القطار. ولكني أضع النقطة الأخيرة جانباً في الوقت الحاضر لأن فكرة في غاية الغرابة (ربما كانت فكرة خيالية مستحيلة الحدوث) بدأت تراودني، ولو صحت هذه الفكرة لما كان لهذه الشهادة أية قيمة.

وركزت اهتمامي على المسألة التي كانت تقف حجر عثرة في سبيل صحة نظريتي، وهي شهادة الميجور نايتون بأنه رأى آدا ميسون في فندق الريتز بعد أن غادر القطار الأزرق باريس. وبدا الأمر بهذه الصورة لا جدال فيه، ولكن عند بحث الحقائق لاحظت شيئين: أولاً، كان هو أيضاً قد دخل خدمتك منذ شهرين تماماً... صدفة غريبة! وثانياً كان أول حرف من اسمه هو حرف «ك». فلنفرض، مجرد فرض، أنها كانت علبة سجائره هي تلك التي وُجدت في القطار، إذن فلو كانت آدا ميسون وهو يعملان معاً وتعرفت هي على علبة السجائر عندما عرضناها عليها، ألم تكن لتتصرف تماماً كما فعلت؟ في بادئ الأمر وقد بوغتت ردت بسرعة

مقبولة توحي بأن للسيد كترنج علاقة بالجريمة. لقد كانت الشبهات تتجه إلى الكونت دي لاروش في ذلك الوقت إلا أن آدا ميسون لم ترد أن تؤكد تعرفها عليه، إذ ربما يستطيع أن يثبت وجوده بعيداً عن مكان الجريمة. وإذا عدت بذاكرتك الآن إلى ما حدث حينئذ لتذكرت شيئاً ذا مغزى قد حدث، فقد قلت لآدا ميسون أنه ربما لم يكن الشخص الذي رأته هو الكونت دي لاروش لا ديرك كترنج فبدت غير واثقة من ذلك عندئذ، ولكن عندما عدت إلى الفندق الذي أنزل به اتصلتَ بي تليفونياً وأخبرتَني أنها حضرت إليك وقالت إنها قد اقتنعت تماماً بعد أن فكرت في الأمر بأن الرجل كان السيد كترنج. وقد توقعت أنا حدوث شيء من هذا القبيل، ولا تفسير لديّ لهذا اليقين المفاجئ من جانبها إلاّ شيء واحد؛ فبعد أن تركت فندقك كان لديها من الوقت ما يسمح لها باستشارة شخص ما فتلقّت تعليمات بما تفعل. فمَن هو هذا الذي ألقى بهذه التعليمات؟ إنه الميجور نايتون. وكانت هناك مسألة صغيرة أخرى، وهي قد لا تعني أي شيء وقد تعني الكثير؛ ففي حديث عارض ذكر نايتون شيئاً عن حادث سرقة مجوهرات وقع في يوركشير في منزل كان يقيم فيه. ربما كانت مجرد مصادفة وربما كانت حلقة صغيرة في السلسلة.

– ولكن هناك شيئاً صعُبَ على فهمه يا سيد بوارو. أظن أنني غبي وإلاّ لاستطعت أن أفهمه من تلقاء نفسي، مَن هو الرجل الذي كان في القطار في باريس؟ ديرك أم الكونت دي لاروش؟

– هذه كانت أبسط نقطة في الأمر كله: لم يكن هناك أي رجل! مفاجأة مذهلة طبعاً، ألا ترى براعة الخطة؟ مَن الذي قال بوجود رجل هناك؟ آدا ميسون، ونحن نصدق ما تقول آدا ميسون لأن نايتون شهد بأنها قد تخلّفت في باريس.

- ولكن روث نفسها أخبرت المحصل بأنها تركت وصيفتها في باريس.

- آه، سأصل إلى هذه النقطة. إن لدينا شهادة القتيلة بخصوص هذا الموضوع، ولكن من ناحية أخرى ليس لدينا فعلاً شهادتها؛ لأن الموتى لا يتكلمون يا سيد فان أولدين! إذن فهي ليست شهادتها ولكن شهادة محصل القطار، وهذه تختلف تمام الاختلاف.

- إذن فأنت تعتقد أن الرجل كان يكذب؟

- لا، لا، أبداً؛ فقد قال ما اعتقد أنه الحقيقة، ولكن المرأة التي قالت له إنها تركت خادمتها في باريس لم تكن السيدة كترنج.

حدق فيه فان أولدين دهشاً. وتابع بوارو حديثه: سيد فان أولدين، إن روث كانت قد ماتت قبل أن يصل القطار إلى محطة ليون. لقد كانت آدا ميسون مرتدية ملابس سيدتها المميزة، وهي التي طلبت سلة العشاء، وهي التي ألقت بهذه الشهادة البالغة الأهمية إلى المحصل.

- مستحيل.

- أبداً يا سيدي، ليس مستحيلاً؛ فالنساء متشابهات هذه الأيام حتى إنك تتعرف عليهن بملابسهن أكثر من وجوههن. وكانت آدا ميسون في نفس طول ابنتك فلا عجب أن المحصل قد خُدع حين رآها ترتدي معطف الفراء الفاخر والقبعة الحمراء تغطي عينيها وخصلات من الشعر الأحمر تبدو تحت القبعة وتغطي أذنيها. وهو لم يكن قد تحدث مع السيدة كترنج من قبل كما تذكر، صحيح أنه رأى الوصيفة برهة عندما قدمت له التذاكر ولكن انطباعه عنها كان أنها أنثى ترتدي ملابس سوداء، ولو كان شخصاً حاد الذكاء لربما كان

في استطاعته أن يدرك أن السيدة والوصيفة كانتا متشابهتين ولكن هذه الفكرة لم تخطر بباله. وتذكّر أيضاً آدا ميسون (أو: كيتي كيد) كانت ممثلة وكان في استطاعتها أن تغير مظهرها ونبرة صوتها وقتما تشاء. نعم، لم يكن هناك أي خطر من تعرّفه على الوصيفة وهي في ملابس سيدتها، ولكن الخطر كان يكمن في دخوله المقصورة إذ ربما سيكتشف أن الجثة لم تكن جثة السيدة التي تحدثت إليه في الليلة السابقة، وهذا هو السبب في تشويه الوجه. كانت المخاطرة الوحيدة التي خاضتها آدا ميسون هي احتمال دخول كاترين جراي للمقصورة بعد أن يغادر القطار باريس فاحتاطت لذلك بأن طلبت العشاء وأغلقت على نفسها المقصورة.

- ولكن من الذي قتل روث؟ ومتى؟

- أولاً، يجب أن تذكر أن الجريمة قد خُطّط لها ونفذت من الاثنين معاً، نايتون وآدا ميسون. كان نايتون في باريس ذلك اليوم يؤدي مهمة لك، وقد صعد إلى القطار في مكان ما. وكانت السيدة كترنج ستدهش حتماً لرؤيته ولكنها لن تشك أبداً، وربما يكون قد لفت نظرها إلى شيء خارج النافذة وعندما استدارت لتنظر لف الحبل حول عنقها... وانتهى كل شيء في ثانية أو اثنتين. ثم أغلق باب المقصورة وبدأ هو وآدا ميسون العمل، فلفّا القتيلة في بطانية ووضعاها في المقصورة الملحقة على أحد المقاعد، ثم نزل نايتون من القطار ومعه علبة المجوهرات وفيها الياقوت، ولما كان من المقدر ألا تكتشف الجريمة قبل مضي ١٢ ساعة بعد حدوثها فقد كان في أمان تماماً، وستعتبر شهادته وحديث السيدة كترنج المزعومة مع المحصل دليلاً على بعده عن الجريمة تماماً. وفي محطة ليون تناولت آدا ميسون سلة العشاء وأغلقت على نفسها باب الحمام، وبسرعة ارتدت ملابس سيدتها وثبتت خصلات الشعر

الأحمر المستعار فبدت قريبة الشبه منها، وعندما دخل المحصل ليعد السرير أخبرته بقصة تركها لوصيفتها في باريس. وبينما كان منهمكاً في عمله وقفت تنظر من النافذة وظهرها إلى الممر وإلى الناس الذين يسيرون عبره، وكان هذا الاحتياط حكيماً لأن الآنسة جراي -كما نعرف- كانت واحدة من الذين عبروا الممر في ذلك الوقت وكانت مستعدة لتقسم على أن السيدة كترنج كانت لا تزال حية حتى تلك الساعة.

قال فان أولدين: استمر.

- وقبل أن تصل آدا ميسون إلى ليون وضعت سيدتها على السرير وسوّت ملابسها بعناية وارتدت هي نفسها ملابس الرجال واستعدت لمغادرة القطار. وعندما دخل ديرك مقصورة زوجته ورآها نائمة (أو كما ظن هو ذلك) كان كل شيء قد تم وكانت آدا ميسون مختفية في المقصورة المجاورة في انتظار اللحظة المناسبة لتغادر القطار دون أن يراها أحد. وبمجرد أن غادر المحصل القطار إلى الرصيف في ليون تبعته كما لو كانت تتمشى قليلاً على الرصيف، وفي لحظة عبرت إلى الرصيف الآخر دون أن يلحظ أحد وعادت بأول قطار إلى باريس وإلى فندق الريتز. وكان اسمها مسجلاً هناك كنزيلة إحدى الغرف منذ الليلة السابقة فما كان عليها إلاّ أن تنتظر عودتك هناك. أما عن نايتون فلا شبهة عليه، ولذلك أتى بالمجوهرات إلى نيس دون أدنى خوف، وكان قد رتب تسليمها إلى بابوبولوس وعهد إلى ميسون بتسليمها في اللحظة الأخيرة إلى الرجل اليوناني. وهكذا كانت الخطة محكمة كما هو منتظَر من شخص قدير مثل الماركيز.

- هل تعني حقاً أن ريتشارد نايتون مجرم معروف مارس إجرامه لسنين طويلة؟

أومأ برأسه وقال: من أهم الصفات التي يتميز بها الماركيز سلوكه الجذاب، وقد وقعت أنت ضحية لذلك حين عينته سكرتيراً لك رغم معرفتك الواهية به.

صاح المليونير: كنت مستعداً لأن أقسم على أنه ليس من هذا الطراز!

- لقد وُضعت الخطة كلها ببراعة متناهية لدرجة أنها خدعت رجلاً له خبرة كبيرة بالناس مثلك.

- لقد كشفت عن ماضيه فوجدت أن سجله لا غبار عليه.

- نعم، نعم؛ كان هذا أيضاً جزءاً من الخطة. إن حياته تحت اسم ريتشارد نايتون كانت بعيدة عن كل شبهة، فهو من أصل طيب وله صلات حسنة بالناس، كما أنه أدى خدمات جليلة في الحرب ويبدو بعيداً تماماً عن أية شبهة. ولكن عندما أخذت في جمع المعلومات عن الماركيز الغامض وجدت كثيراً من أوجه الشبه؛ فنايتون يجيد الفرنسية، وقد سافر إلى أمريكا وفرنسا وإنجلترا في نفس الوقت الذي كان الماركيز يمارس نشاطه، وكان آخر ما ورد عن الماركيز هو عمليات سرقة مجوهرات في سويسرا، وقد التقيت أنت بالميجور نايتون في سويسرا، وفي ذلك الوقت سرت الإشاعات لأول مرة عن مفاوضاتك بشأن شراء الياقوت.

همس فان أولدين بصوت حطمه الحزن: ولكن لماذا قتلها؟ لا شك أن أي لص ماهر كان يستطيع سرقة المجوهرات دون أن يعرّض نفسه لحبل المشنقة.

فهز بوارو رأسه وقال: ليست هذه أول جريمة قتل يرتكبها الماركيز؛ فهو قاتل بالفطرة وهو يؤمن إيماناً راسخاً بوجوب عدم

ترك أي دليل ضده، والموتى لا يتكلمون. كان الماركيز يحب المجوهرات ذات الشهرة التاريخية حباً لا حدّ له، وقد بدأ بوضع خطته قبل تنفيذها بوقت طويل بأن عمل سكرتيراً لك ثم سعى لكي تحصل شريكته على وظيفة وصيفة لابنتك التي ضَمِنَ أنك ستهديها المجوهرات. ورغم أن هذه الخطة كانت كاملة ووُضعت بعناية إلاّ أنه لم يتردد في اختصار الطريق بأن استأجر اثنين من قطّاع الطرق ليهاجماك ليلة أن اشتريت المجوهرات. وقد فشل الهجوم ولكنه لم يدهش لذلك على ما أعتقد. أما خطته الأخيرة فقد كانت مأمونة تماماً باعتقاده، فلن تعلق أي شبهة بريتشارد نايتون. ولكن مثله مثل كل العظماء كانت له ناحية ضعف، فقد وقع في حب الآنسة جراي فعلاً، ولما شك في ميلها إلى ديرك لم يستطع أن يقاوم إغراء إلصاق الجريمة به حين واتته الفرصة.

ولقد كانت هناك مسألة حيرتني إلى حد كبير؛ فإن سكرتيرك يعرج نتيجة لجرح أصابه في الحرب أما الماركيز فمن المؤكد أنه لم يكن يعرج. كانت هذه المسألة حجر عثرة، ولكن الآنسة لينوكس ذكرت أمامي يوماً أن عرج نايتون قد أدهش الجرّاح الذي كان يعالجه في مستشفى أمها، وقد أوحى هذا بأنه ربما كانت حيلة للتمويه، وعندما كنت في لندن ذهبت إلى ذلك الجراح فحصلت منه على كثير من التفاصيل الفنية التي أيدت اعتقادي. كما أن الآنسة جراي أعطتني قصاصة من جريدة ذُكر فيها أن حادث سطو قد وقع على مستشفى الليدي تامبلين في نفس الوقت الذي كان نايتون موجوداً فيه. لقد أدركَتْ أنني أسير معها على نفس الطريق عندما كتبتُ لها من فندق الريتز في باريس. وقد لقيت بعض المتاعب في تحرياتي هناك ولكني توصلت إلى ما أريد: شهادة بأن آدا ميسون قد وصلت إلى هناك صباح يوم الحادث وليس مساء اليوم الذي قبله.

قال فان أولدين: أنت ثروة يا سيد بوراو، حقاً إنك ثروة.

فنهض بوارو واقفاً وقد نفخ صدره وقال بتواضع: إنني فقط هيركيول بوارو، ولكن -كما تقول- أنا رجل عظيم في مهنتي كما أنك عظيم في مهنتك. أنا سعيد لأنني استطعت أن أؤدي لك خدمة، والآن إلى اللقاء.

* * *

في ردهة الفندق التقى بوارو بصديق، السيد بابوبولوس وابنته زيا إلى جواره. وقال الرجل اليوناني وهو يسلم على المخبر: كنت أظنك قد تركت نيس يا سيد بوارو.

- لقد اضطرتني ظروف العمل للعودة يا سيد بابوبولوس.

- العمل؟

- نعم، العمل. وما دمنا نتكلم في العمل فأرجو أن تكون صحتك على ما يرام يا صديقي العزيز.

- إنني أفضل بكثير، وسوف نعود إلى باريس غداً.

- أنا سعيد لسماع هذه الأخبار، وأرجو ألا تكون قد دفعت برئيس وزراء اليونان السابق إلى الإفلاس.

- أنا؟!

- لقد علمت أنك بعته ياقوتة في غاية من الروعة تتزين بها الآنسة ميراي الراقصة.

قال بابوبولوس بصوت خفيض: نعم، هذا صحيح.

- ياقوتة لا تختلف عن الجوهرة المشهورة «قلب من نار».

- إنها تشبهها بالتأكيد.

- إن لك خبرة رائعة بالمجوهرات يا سيد بابوبولوس. لقد كنت آمل أن أراك بعد أن انتهت مهمتي.

فسأله بابوبولوس: أيعد تطفلاً مني لو سألتك عن كنه هذه المهمة؟

- لا، أبداً. لقد نجحت لتوي في الإيقاع بالماركيز.

- الماركيز؟ لماذا يبدو هذا الاسم مألوفاً لديّ؟ لا، لا أستطيع أن أتذكّر.

قال بوارو: لن تستطيع، أنا واثق من هذا. إنني أشير إلى مجرم مشهور وواحد من أكبر لصوص المجوهرات، وقد أُلقي القبض عليه بتهمة قتل السيدة الإنجليزية، مدام كترنج.

- حقاً؟ يا له من أمر غريب!

تلا ذلك تبادل كلمات الوداع، وعندما ابتعد بوارو التفت بابوبولوس إلى ابنته وقال بانفعال: زيا، هذا الرجل هو الشيطان نفسه!

* * *

جلس بوارو في الشرفة مع لينوكس تامبلين وقد فرغ لتوه من سرد نفس القصة التي سردها على سمع فان أولدين منذ يومين، وكانت لينوكس تنصت إليه باهتمام واستغراق وقد عقدت حاجبيها وبان الاكتئاب في عينيها. وبعد أن فرغ من قصته سألته ببساطة: وماذا عن ديرك؟

- لقد أطلق سراحه أمس.

تلت ذلك فترة صمت، ثم قالت لينوكس: لقد أخطأت تقدير

أحاسيس كاترين، كنت أظن أنها لا تهتم به. لقد كنت مغفلة إذ اعتقدت أنها تميل إلى نايتون، كان يجب أن يكون حكمي أصوب. أظن أن هذا كان رأيي لأني... لأني كنت آمل أن يكون كذلك.

فتناول بوارو يدها وضغطها برفق وقال برقة: تشجعي يا آنسة.

نظرت لينوكس أمامها بجمود لبعض الوقت ثم قالت: لن يجدي هذا شيئاً، فأنا أصغر كثيراً من ديرك.

وتلت ذلك فترة صمت طويلة، ثم التفتت إليه بسرعة وقالت: ولكنني قدمت بعض المساعدة يا سيد بوارو، أليس كذلك؟

- بلى يا آنسة؛ لقد كنت أول من لفت نظري إلى حقيقة غابت عني حين قلتِ إن الشخص الذي ارتكب الجريمة ربما لا يكون من ركّاب القطار أصلاً، وقبل ذلك لم أكن أستطيع تصور ما حدث.

قالت لينوكس: أنا سعيدة لهذا، لقد قمت بعمل ما.

ومن بعيد تناهى إلى سمعها صوت القطار، فقالت لينوكس: إنه ذلك القطار الأزرق اللعين! إن القطارات شيء جبار لا يلين، أليس كذلك يا سيد بوارو؟ فالناس يموتون، ومع ذلك فهي تسير لا تعبأ بشيء. يبدو أنني أتكلم كلاماً لا معنى له ولكنك تفهم ما أريد أن أقوله.

- نعم، نعم، أعرف. إن الحياة مثل القطار يا آنسة؛ فهي مستمرة، وإنه لجميل أن تستمر الحياة في سيرها الطبيعي. إنك شابة أصغر مما تظنين، فضعي ثقتك في القطار يا آنسة، فهو يسير بمشيئة الله.

* * *

(تمت)